معلّم الحياة

شذراتٌ عن القديس إسحق السرياني

٢٠١١

منشورات دَيري القديس جاورجيوس والشيروبيم

الراهب سابينو والأرشمندريت باسيليوس

مُعلِّم الحَياة

شذراتٌ عن القديس إسحق السرياني

ترجمة وإعداد

رهبنة ديريْ القديس جاورجيوس والشيروبيم

منشورات ديريْ القديس جاورجيوس والشيروبيم

صيدنايا

2011

دير القديس جاورجيوس

Saint Georges
Monastery Patriarchal

دير الشيروبيم

Cherubim
Monastery Patriarchal

طبعة أولى

2011

شرح أيقونة الغلاف

هي من الأيقونات البيزنطية الأولى. يعود تاريخها للقرن الرابع. وتسمى باسم (الصليب البيزنطي). وهي مليئة بالرموز التي نلاحظها، فمن الأعلى إلى الأسفل نجد:

١- الروح القدس وهو أيضاً الروح المحيي، وهنا يسكب قوة الحياة على رموز هذه الأيقونة وقد رُسم بشكل حمامة للدلالة على معرفتنا به خاصةً في سر العماد المقدس.

٢- الشكل المحدد للصليب المغمور بحلول الروح القدس عليه وانسكاب الماء منه الذي يرمز للحياة، ويسوع هو الحياة (يو٤:٦).

٣- وعلّين عن يمين ويسار بركة الحياة، وهما يمثلان الشعب الذي لم يصل بعد إلى الإيمان، ولذا نجدهما خارج بركة المياه. وهذه البركة رمز للملكوت.

٤- خراف عن اليمين وعن اليسار، والخروف بالرمز يعني يسوع، والإقتداء به يشكل قطيع المسيح إلى الملكوت.

٥- شجرة ترمز للعلاقة الصحيحة مع الله، وتسمى شجرة الحياة، ونجد عليها الطاووس رمز العزة الإلهية.

٦- باب في المنتصف يقف عنده الملاك الذي انتدبه الله بعد السقوط كي لا يدخل منه الخطأة.

تم طباعة هذا الكتاب على نفقة السيد عصام لحام من أجل صحته وصحة عائلته

الفهرس

كلمة الناشر ٩

المقدمة..... ١٣

الفصل الأول: القديس إسحق السرياني إضاءات على حياته ولاهوته

١- مقدمة للراهب سابينو كيالا..... ٢٤

٢- حُجرة الكتر..... ٢٩

٣- بين الوحدة والشركة..... ١١٧

الفصل الثاني: تأملات في فكر القديس إسحق السرياني

١- كلمة المحرر باللغة الانكليزية..... ١٤٢

٢- عوالم القديس إسحق السرياني..... ١٤٥

٣- من القديس إسحق السرياني إلى دوستويفسكي..... ١٨٩

الفصل الثالث: القديس إسحق السرياني فيلسوف الروح

١- أقوالٌ ملهمةٌ للقديسِ إسحق السرياني..... ٢١٠

٢- صلوات القديس إسحق السرياني..... ٢٧٩

كلمة الناشر

هذا الكتاب الذي بين أيدينا هو كتابٌ آبائيٌ نسكيٌ بامتياز. يصدره ديري القديس جاورجيوس والشيروبيم كأول كتابٍ من سلسلة كتب الآباء. حيث تم العمل على جمع نصوص هذا الكتاب وترجمتها وإعدادها وتنقيحها ووضع الحواشي لها (باستثناء حواشي القسم الثالث من الفصل الأول) ليخرج هذا الكتاب كثمرةٍ لعدة كتبٍ ومواضيع ومقالات تتحدث عن القديس إسحق السرياني. آملين من الله أن نكون قد أحطنا القارئ العربي ببعض الشذرات عن هذا القديس، الذي تشحُ مكتبتنا العربية بالكلام عنه.

هذه الشذرات هي ثمارٌ روحيةٌ غنيةٌ من ثمار الروح القدس، جُنيت من بستان الفردوس عن طريق فلاحٍ مجاهدٍ هو القديس إسحق السرياني. ليقدمها لنا كوجبةٍ شهيةٍ تغذي الروح، وتشدُّ الجسد، متذوقين منذ الآن طعم ملكوت السماوات.

في هذا السفر الروحي نبحر في ثلاثة فصولٍ روحية، الأول منها هو للراهب الأستاذ سابينو كيالا[1] الذي يأخذنا في جولةٍ إلى الوسط الذي

1- راهبٌ من دير بوزه في شمال إيطاليا، باحثٌ في اللغة العبرية واللغة السريانية، أكمل دراسته في جامعة تورينو في إيطاليا، وفي جامعة لوفان لانوف الكاثوليكية في بلجيكا. عمل في الأبوكريفا اليهودية، ونشر الترجمة المشروحة من كتاب (أمثال لأخنوخ 1997م). في التقليد السرياني، تركز عمله بوجهٍ خاص على القديس إسحق النينوي، وترجم بعض الكتب عنه باللغة الايطالية (المجموعة الثالثة من خطابات القديس إسحق 2004م). وقدم دراسات تمهيدية في التاريخ والفكر. كما ولديه أيضاً عن الرهبنة السريانية الشرقية (إبراهيم القشقري ورهبنته 2005م).

عاش فيه قديسنا إسحق، لنتلمس فيه ملامح تلك الفترة التي أخرجت لنا هذا القديس، ولنشقَّ عباب فكره، فنكتشف أرضاً لم تطأهـــا قـــدمٌ بعد.

الفصل الثاني هو للأب المتوحد باسيليوس رئيس دير الإيفـــيرون في جبل آثوس[2]، الذي يتضمن ترجمةً لكتـــابين صـــغيرين Abba Isaac The Syrian: An Approach To His World – From St Isaac The Syrian To Dostoyevsky عن عـــوالم القديـــس إسحق، وأدبـــه مقـــارنةً مع الأدب العالمي ممثلاً بشخص دوستويفسكي، فننتقل من عالم الأرض إلى عالم الروح ونلجُ ثنايا روح هذا القديس الأديب.

أما الفصل الثالث فهو عبارةٌ عن قسمين: الأول هو أقوالٌ لقديسنا، جمعها راهبٌ آثوسي، وتُرجمت من اللغة اليونانية. والثاني هو صلواتٌ للقديس إسحق نقلناها عن كتابٍ باللغة الإنكليزية صدر من دير القديس يوحنا الذي من سان فرانسيسكو (مانتون، كاليفورنيا)، نصل من خلاله إلى النبع الذي نرتشف منه مباشرةً من القديس إسحق.

في النهاية لا بد لنا من تقديم الشكر الكبير لمن ساهم وتعب في إظهار هذا الكتاب إلى النور. وهم الراهب سابينو كيالا الذي أهدانا ما قدمه من ثمرة بحثه في عالم القديس إسحق السرياني، والأستاذ ميشيل نصير الذي أعطانا من وقته الكثير في مراجعة وتحرير الفصل الأول من

2- وُلد الأب باسيليوس في جزيرة كريت عام 1936م، تلقى دراسة اللاهوت في أثينا، وفي ليون في فرنسا. ترأس دير ستافرونيكيتا في جبل آثوس (1968 – 1990م)، ومن ثم أصبح رئيساً لدير الإيفيرون عام 1990م والآن يعيش كراهب متوحد بعد أن استقال من رئاسة الدير.

الكتاب الذي قدمه الراهب سابينو إضافةً إلى ترجمة مقالة "بين الوحدة والشركة". والأستاذ نقولا قندلفت الذي ساعدنا في الترجمة الإنكليزية. والأخت ليلاس مسلم مصممة الغلاف. وأخيراً الأستاذ المفكر ياسين الأخرس الذي دقق وجمّل اللغة العربية للكتاب. طالبين من الله، بشفاعة القديس إسحق السرياني، أن يغمرهم بعطاياه الكثيرة.

المقدمة

للأدب النسكي الآبائي خصوصيته، ولا يستمتع بمعانيه إلا من تتلمذ على الكتاب المقدس، وارتبط بحبٍ لا ينفصم مع شخص المسيح. فمن لا يتكئ على صدر المخلص لا يعرف مذاق الإلهيات. ومن لا يتحلى بفكر المسيح لا يستطيع أن يكتشف "من هو الإنسان؟" (راجع، يو2:25).

وفي تتلمذنا على يد الآباء النساك عامةً، وعلى القديس إسحق السرياني خاصةً، نتذوق أهمية شخص المسيح في حياتنا، وندرك أجوبةً عن أسئلةٍ كثيرة، تمر ببداهةٍ في كتابات الأدب النسكي. تلك الأسئلة التي ترد عن طريق مشاركة الإنسان للقديس إسحق بغنى خبرته، فيصل إلى أجوبةٍ تفيده.

القديس إسحق السرياني إضاءات على حياته ولاهوته

جُلّ اهتمام القديس إسحق في فكره وكتاباته هو الاهتمام بالعلاقة القائمة بين الله والإنسان. فالإنسان المدعو إلى الانسحاق والتوبة عن طريق التواضع هو مدعوٌ أيضاً إلى التشامخ عن طريق النعمة في الولوج إلى عمق الحياة بالروح ليصل إلى التأله.

في نصوص الكتاب الذي بين أيدينا يحثُّنا قديس الروح هذا، إن لم نقل قديس الكيان البشري برمته، ويدعونا من هذه الناحية دعوتين

مبهمتين قائلاً: (الإنسان الذي لا يعـــرف نفســـه هو إنســـانٌ تائهٌ) [ص70]. ويضيف: (الإنسان الذي يعرف نفسه يمكن أن ينهض)[ص70]. فالمصالحة بين الإنسان وذاته هي نقطة الانطلاق للطريق الروحي، حينئذٍ يصل هذا المجاهد إلى معرفة نفسه وإلى دوره في الوجود البشري. فإذا تحقق الأمر بموجب هذه الدعوة إلى هذه الصورة، يبرز حضور الروح القدس في موضوع معرفة الإنسان لنفسه.

فالحياة الروحية هي جهادٌ غير متوقف، تحياه الروح في الإنسان، وهي التي تساعد على استمرار اكتشاف حقيقة الله في الإنسان. فقديسنا يقول: (إن الحياة الروحية ليست عملاً من خارج الإنسان، بل هي الذهاب إلى قلب الإنسان نفسه) [ص70]. ويضيف: (اجتهد أن تدخل إلى غرفة الكنز الداخلية التي فيك، وهناك تجد تلك التي في السماء، هذه وتلك هما واحدة، وعبر باب واحد تراهما معاً. السلّم الذي يقود إلى الملكوت مخبوء فيك، في روحك. اغطس في ذاتك بعيداً عن الخطيئة، وهناك ستجد الدرجات لكي تصعد) [ص70]. الإنسان الداخلي عند القديس إسحق هو المدخل إلى الملكوت حيث الله. أما القلب فهو معراج الوصول إلى الله. وما علينا إلا أن نستعين بحواسنا الداخلية لنكتشف الطريق.

وهو يرى بأن الإنسان الخارجي عندنا يتحرك بتأثيرات الإنسان الداخلي المتحرك ليس فقط من الروح القدس بل أيضاً من الدموع التي نذرفها في الصلاة، وبعد هذا نشعر بوجود الله الذي هو غايتنا. إلا أن

الخطر الذي ينبهنا عليه قديسنا هو داخل الإنسان بالرغم من أنه مسكن الروح القدس، إلا أنه نبع الخطيئة أيضاً. وهي الناحية السلبية في حياتنا والتي تغتني بأنانية الإنسان.

عمق النظرة لدى القديس إسحق تكمن في أن هذا الضعف الذي فينا ليس هو الخطر على حياتنا الداخلية، فوجوده إذن أمرٌ طبيعي؛ إلا أن الخطر يكمن في عدم سعينا وقدرتنا على كشف هذا الضعف وإزالته. فالنمو الروحي للإنسان هو سندنا وقوتنا. وهنا تبرز فكرة إضافية ولكنها أساسية ينبهنا القديس إسحق عليها وهي تدعونا لعدم تجاهل ضعفنا الذي لا نقدر عليه وحدنا، فنحن بحاجةٍ للآخر. والآخر هو الله. وكذلك للإنسان الذي بتواجده بالقرب منا يتحقق إقامة حياة شركةٍ معه. ويستخلص قديسنا سبب هذا الضعف في قوله التالي: (إن ضعف طبيعتنا تصبح إعلاناً لرحمة الله وعذوبته وحلاوته) [ص73]. فالترميم أو اكتمال النقص يأتي إلينا رحمةً من الله علينا. وهذا ييسِّر لتنقاد حياتنا إلى حياةٍ روحيةٍ سليمة. أما إذا رفضنا ما يقدمه هذا الآخر لنا، فنتحول إلى أناسٍ ذوي قلوبٍ قاسية. فتتراجع حياتنا الروحية. حتى الأهواء وكذلك التجارب فإن القديس إسحق يرى أهمية وجودها، وأنه علينا قبولها. هنا يُصار لنا أن نعيش الأهواء بطريقةٍ أخرى تقودنا لإيجابية العلاقة مع الله. والتجارب تقوِّي فينا مناعة الابتعاد عن الله، وتساعد على الخلاص، لا بل على المزيد من معرفة الله.

وعندما يتحدث قديسنا عن التجارب وعلاقة الخطيئة بها، فهو

يحذرنا بأن لا شيء يعيق علاقتنا بالله إلا أمرين هما: فقدُ حساسيتنا تجاه الخطيئة، والثانية وهي أخطر من الأولى عندما نقع في الاستسلام في أحضان اليأس بعيداً عن رحمة الله. ويقدم لنا في هذا المعنى نصاً رائعاً يتوضَّح من خلاله المعنى فيقول: (أعظم البِّر على الإطلاق هو امتلاكنا الحساسية نحو خطايانا، والذي يبكي على خطاياه للحظة واحدة يكون أعظم ممَّن يقيمون الموتى بصلاتهم. وأما القادر على أن يرى نفسه، فهو أفضل ممَّن يرى الملائكة) [ص77].

هناك تعاليم كثيرة ومتنوعة يقدمها لنا القديس إسحق السرياني ومن أهمها، الفكر الخريستولوجي بحيث يكون المسيح هو مركز لتلك الأفكار. ومن أهم تلك الأفكار الخريستولوجية موضوع التواضع الذي يرى فيه قديسنا أن يسوع ولمرةٍ واحدةٍ يهتم بإبراز تعليمه حول شخصه ليكون محور ارتباطنا فيه يقوم على فكرة التواضع المقرونةً بفضيلة الوداعة. فالقديس إسحق يعيد اكتسابنا لها ليس فقط من معرفتنا للمسيح، بل وأيضاً من معرفتنا لذواتنا، حيث يصير الرباط بيننا وبين المسيح هو الروح القدس. ويفيدنا القديس إسحق بأن الإنسان لا يستطيع اقتناء فضيلة التواضع إلا بعد تحرره من الخوف، وأيضاً بعد التغلب على اليأس والحزن في حياتنا. فالتواضع لا يتماشى مع إنسانٍ قابعٍ تحت ظل اليأس والقنوط. فإنسان السلام هو إنسان التواضع، وفي هذا يقول القديس إسحق: (لا يكون الإنسان متواضعاً إلا إذا كان مسالماً، ولن يكون الفرد مسالماً إلا إذا كان متواضعاً، وهو ما يجعله فرحاً) [ص9].

وفي الموضوع الخريستولوجي ينقلنا القديس إسحق إلى أهمية رحمة الله وحبه. فإذا كان الله قد أعلن عن نفسه بلسان السيد المسيح على أنه متواضع، فإن الكتاب المقدس يعلن لنا عن الله قوله: "الله محبة" (1يو4:16). فإذا كان الله محبةً وتواضعاً فكم بالحري أن يكون رحوماً. وهو في مثل هذه الأقوال يُبعد بشكلٍ حتميٍ عن الله فكرة أن يكون إلهاً منتقماً، بل هو إله رحمةٍ ومحبة. ولما كان التأديب ضروريٌ فهو يؤدب بطريقةٍ فيها كامل محبة الله لأبنائه.

يقيم قديسنا إسحق أيضاً تقارباً بين عدل الله ورحمته. مستخلصاً بأن المسيحي مطلوبٌ منه أن يتشبه بالله ليكون رحيماً وليس عادلاً. فالرحمة هي فوق العدالة. وينوِّه بأن هذا التعليم وصل إليه من معرفته للكتاب المقدَّس فيقول: (إن الذي لا يقدر أن يذهب بعلاقته مع الآخر خارج العدالة يكون غير عادل كذلك) [ص97].

لقد تحدث القديس إسحق أيضاً في موضوعٍ صعبٍ ومهمٍ هو المفهوم الاسخاتولوجي أي الأُخروي. وينبِّهنا من خلاله كيف أنه علينا أن نبحث في هذا الموضوع من وجهة نظر الله وليس من وجهة نظر الإنسان. والبحث الإلهي حوله يكون أيضاً من خلال المحبة والرحمة على قاعدة الرجاء والحدس الروحي. وهو يرى بأن محبة الله تسير بالعالم وتقوده من أجل خلاص الجميع، فيقول: (الدينونة ليست فعلاً انتقامياً من الله، ولكنها عملية شفاء للإنسان) [ص108]. تنقلنا هذه الفكرة إلى

موضوع جهنم. فهو يقبل بها على أنها موجودة من أجل التطهير، فيقول: (إذا كانت جهنم للتطهير فهي ليست أبدية... فالإله الذي يتخيل أنه سيمضي حياته مع أولاده وجزء منهم يتعذب هو إلهٌ شرير. إن هذه الرؤية هي طريقةٌ بشريةٌ للنظر إلى الله) [ص109].

وفي حديث القديس عن حياة الوحدة والشركة، يطلب من الراهب أن يقتني التمييز، الذي يقوده في النهاية ليصل إلى هدف الحياة الرهبانية وهو محبة الله والآخر.

عوالم القديس إسحق السرياني: الدخول إلى سر الدهر الآتي

من هو القديس إسحق السرياني بالنسبة إلينا؟ بالرغم من صعوبة التحديد، إلا أنه بإمكاننا أن نطلق عليه اسم (فيلسوفنا الروحي). هذه التسمية اختارها له البعض من آباء الروح المعروفين مثل نيقوديموس الآثوسي وغيره. هو هدوئيٌ بامتياز وصامتٌ بامتياز. فإذا كان قد ترك أثراً عميقاً في قديسين ولاهوتيين من الآباء، فإنه قد ملأ قلوب كثيرٍ من المسيحيين والمسلمين أيضاً، حيث أثّر على بعض المتصوفين منهم. وأبرزَ كلاماً ممتلئاً بالروح والحكمة والفضيلة، وأعطانا نصائح مهمة لاقتناء الحكمة بقوله: (الحكمة الروحية تُنشئ الصمت، والحكمة الدنيوية تُنشئ وقاحةً في الأحاسيس) [ص152]. ويعطي قديسنا أهميةً للخبرة الروحية عند الإنسان الساعي لاكتساب حكمة تفيد في كافة أنواع التجارب التي يمر بها.

يربط القديس إسحق المعرفة عموماً بمعرفة الإنسان لنفسه. ومن ثمّ

يقود بفكره المبدع والخلاق الإنسان ليصل إلى (ملكوت الحرية) تلك التي يصير فيها الإنسان معلماً بالروح.

يرى القديس إسحق بأن للنفس قوَّة تعمل في الإنسان، الذي يسعى بدوره فاتحاً المجال للقوَّة التي في الروح القدس أن تدبَّ فيه، فتصير أعمال هذا الإنسان ظاهرة بفعل الروح القدس مباشرة. عنـــدئذٍ يبلغ الإنسان: (الصمت الذي هو سر الدهر الآتي) [ص173]. إنها حالةٌ من حياة الروح متقدمة تخترق حدود المعرفة لدرجة أن صاحبها لم يعد بحاجةٍ إليها، ولا لأحاسيس لها دورٌ أساسي في حياتنا. فتساعد الدموع مثل هذا الإنسان، ليصل إلى فرحٍ يتنعم به دون وجود أسبابٍ داعيةٍ له. والصلاة التي تكون متعبة في البداية مع من يصلّي، تصير مع الحالة المتقدمة دون قلقٍ ومحققةٍ بدورها لهذا الفرح الذي يحل مكان التعب. كل هذا يقود إلى حيث الحضرة الإلهية، فتقول مع القديس إسحق: (يرتقي الذهن فوق الصلاة، وتُهجر الصلاة باكتشاف شيءٍ أفضل) [ص175]. فما هو هذا الشيء الأفضل بحسب خبرة القديس إسحق السرياني؟ إنه دون شك الوصول إلى رؤية الله التي تُغني الفعل عن الصلاة.

مع هذه الحضرة الإلهية يرتقي الإنسان لدرجةٍ لا يعود فيها تمييزٌ بين الجسد والروح. حينئذٍ يموت القلب عن تلقيه لهجمات الأهواء، رغم أن الأهواء موجودةٌ وتظل باقية. إلا أن القلب قد امتلأ حقاً بشيءٍ آخر، سكنه الله، والإنسان صار بفضل هذه السكنى ينتشي روحياً، وحاله

تتحول إلى قداسةٍ حقيقية، ودنياه تصير دنيا الله وعالمه. فيكتسب هكذا عالماً جديداً. أما فكره فيصير إلهياً بكلّ ما في الكلمة من معنى. ولا بد من التوضيح هنا بأن حالة السمو هذه لا تُقيِّد عمل التوبة الدائم والمستمر عند هذا الإنسان ليبقى في ارتقائه محافظاً على تقدمه في تواضعه، لأن التواضع عند القديس إسحق مُجلبٌ للنعمة الإلهية: (إنها لباس الألوهة التي يتَّشح الله به) [ص182]. وأيضاً يقول: (التواضع هو قوةٌ سريةٌ مؤكدة، يتلقاها القديسون الكاملون عند إنهائهم رحلة اختبارهم على الأرض) [ص182].

من القديس إسحق إلى دوستويفسكي

ندخل مع القديس إسحق إلى عالمٍ جديد، فإن لم نقل إلى عالمٍ معياره القديس إسحق في مجالات قضايا الإنسان مثل الحياة والفن والعمل، فبأقل تعديل إلى عالم الأدب. بحسب معطيات الكتاب المقدس، والتي تجعل بعضاً من أدباء العالم يستقون منه معين الروح لأنهم يشبهونه بنواح متعددةٍ كمثل دوستويفسكي الذي يقول أحدهم عنه: (بأن دوستويفسكي هو القديس إسحق في العالم) [ص200]. أما هو فيقول: (إن برهنتم لي بأن المسيح لم يكن الحقيقة، فإني أريد المسيح وليس بالحري الحقيقة) [ص200].

لقد عاش دوستويفسكي شخصيات أبطاله. فكان مرشداً لمسيرة الأحداث بأنموذجٍ فريد، فهو يترك المجال لفهم ما يجري حسب ما يراه القارئ، وبذات الوقت مفسحاً المجال للمسيح ليوجه كل ما يجري

بشخصه القدوس، وهكذا تبقى الأحداث دون ترابط.

القُرَّاء يشتركون أيضاً كمثل أبطاله بكلّ حرياتهم. وغالباً ما يتآخى الكثيرون من قرَّائه ليكونوا أخاً مع هذا الذي جمعهم. فيسير الجميع (إلى الأمام، إلى المستقبل حيث نتلاقى جميعاً، ويحتضن القاتل ضحيته، والميت قاتله) [ص204]. وكلمة الله تأتي في آخر المطاف لتكون هي الغاية المرجوَّة.

لقد توغَّل دوستويفسكي – وهو يسير برفقة القديس إسحق – إلى أعمق أعماقه، وكشف عن غوامض هذا السر، وكان يحمل كشاف الرؤية الذي هو الحب. فيظهر لنا هناك في ذروة هذا العمق أن الله معنا.

كلُّ ما نجده عند دوستويفسكي مرتبطٌ بالتجارب والمحن التي يعيشها الإنسان في تنوعه، متلاقياً مع القديس إسحق في ما فهمه وعاشه. فكان إرث دوستويفسكي بين أيدينا يحمل صورة القديس إسحق مع كلمات هذا الإرث. وماذا بعد ذلك؟ هناك شيءٌ مهمٌ لنا وهو أننا نلمس فرح الله فينا عن طريق النعمة الإلهية الآتية إلينا.

يبقى لدينا الفصلان الأخيران تحت عنوان أقوال وصلوات، وهنا نترك التقديم، لنشترك بكلماتهما مع معنى الروح الذي يلهمنا خلال تلاوتهما إلى ما أراد القديس إسحق (فيلسوف الروح) بواسطتهما.

الأرشمندريت يوحنا التلي

فصح 2011

الفصل الأول

القديس إسحق السرياني

إضاءات على حياته ولاهوته

للراهب سابينو كيالا - دير بوخه - إيطاليا

مقدمة للراهب سابينوكيالا

من بعد القديس أفرام معلم الكنيسة الجامعة العظيم، يبقى القديس إسحق النينوي المعروف أيضاً باسم إسحق السرياني[1] واحداً من أكثر الآباء الذين نقرأهم ونحبهم في كلّ التقاليد المسيحية في الشرق والغرب. إن شخصية قديسنا غامضةٌ ومُبهرةٌ بسبب كتاباته التي تُرجمت إلى جميع اللغات التي يتكلمها المسيحيون تقريباً. وبسبب هذه الجاذبية عبر التاريخ، نسبته إليها كلُّ جماعةٍ أحبّت تعاليمه: ففي المخطوطات العربية يُقدَّم القديس إسحق كراهبٍ قبطيٍ عاش في إسقيطٍ على أرض مصر، وبالنسبة لليونانيين عاشَ كمتوحدٍ على أرضٍ سوريةٍ من الإمبراطورية البيزنطية، أما اللاتينيون فهو لهم ناسكٌ شرقيُ الأصلِ، أتى واستقر في إيطاليا قرب سبولِتو... لكلٍّ "إسحاقه" إذاً!

المؤكد بالنسبة للجميع هو أنه كان أرثوذكسياً (قبطياً أو يونانياً أو لاتينياً) أتى من كنيسةٍ غير محددةٍ تماماً. إن تقييم كتاباته واضحٌ دائماً. وهذا التقييم تمتع به المؤمن حتى اليوم أيضاً، حسب تقليدٍ جامعٍ غير

1- الأصح المستعمل من قبل الآباء إسحق السرياني وليس السوري، علماً بأن سوري وسرياني Syrian هي نفس الكلمة خاصةً باللغات الأجنبية والأخص اليونانية واللاتينية، أما في العربية فالسوري تعني من سكن في سوريا أو بلاد الشام وهذا ممكن أن ينطبق على القديس أفرام السرياني أو السوري. أما القديس إسحق فهو قطري أو نينوي. لذلك من الأصح أن نقول إسحق السرياني. عن مقالة للأب السرياني جوزيف شابو "القديس إسحق السوري في التقليد السرياني" (المجلة البطريركية للسريان الأرثوذكس عدد 299- 300 لعام 2010م).

منقطعٍ؛ تقليدٍ استمر في قراءته واعتبره واحداً من الآباء الأرثوذكسيين وفق المعنى الحرفي للكلمة.

ثمة دراساتٌ حديثة يعود أولها إلى نهاية القرن التاسع عشر[2] أعادت إلى النور السيرة الذاتية الحقيقية لمؤلّفنا: إنه راهبٌ سوريٌ مشرقيٌ، تماماً كما نقول اليوم عموماً بعد بضعة عقودٍ من الحركة المسكونية. وقد كان يُقال عنه في ما سلف مع قليلٍ من الازدراء إنه "نسطوري". راهبٌ وحتى أسقفٌ (لمدة بضعة أشهرٍ فقط) عاش خلال القرن السابع، بين قطر الحالية مسقط رأسه، وشمال العراق حيث سُمي أسقفاً على مدينة نينوى وإيران. أمضى سنواته الأخيرة كمتوحدٍ، وخلالها كتب أو أملى مؤلفاته. إذاً هو راهبٌ "هامشيٌ" من وجهة نظرٍ لاهوتية كما من وجهة نظرٍ جغرافية. وحتى حياته التي عاشها في الوحدة مثلاً كانت تسمح بزيادة "تهميش" تعليمه، الموجه للرهبان المتوحدين فقط.

لكن الملفت للنظر لدى هذا "الأب" ذي الدعوة الكونية، هو قدرته الكاملة، على تجاوز جميع الحواجز (اللاهوتية والجغرافية والاجتماعية) بفكره، وعلى أن يكون واضحاً محبوباً للرهبان كما للعلمانيين؛ للكُتّاب المثقفين كما للناس البسطاء، للعرب كما لليونانيين والسلافيين والجيورجيين والأثيوبيين واللاتين...، ولرجال القرن السابع كما لرجال عصرنا هذا.

كلّ مرةٍ نقرأه نشعر أنه كأحد أفراد العائلة، فلا يمكن أن يُحسّ

2- اعتقد أن ذلك وارد في رسالة دكتوراه المستشرق الكبير (J.-B. Chabot) بتاريخ (1892م).

بأنه غريبٌ. سواء كان قارئه راهباً أثيوبياً يقرأه في قلايته الصغيرة، أو ناسكاً في جبل آثوس. كما أن هذا هو أيضاً شأن اليافع أو الأكبر سناً في عالمنا المعاصر الذي نعطيه إياه ليقرأه.

إن لديه قدرةً فريدةً من نوعها على أن يجعل نفسه مفهوماً ومُبهِراً، وعلى أن يتحول إلى أبٍ روحيٍ، وإلى رفيق دربٍ لكلٍّ من يريد أن يتبع السيد في حياته.

هذه هي التجربة التي سررت في أن أعيشها. في كلّ مرةٍ شاركت فيها بعضاً من تعليم القديس إسحق مع مجموعاتٍ من العلمانيين، أو طلابٍ شباب، أو في أديرة رهبانٍ وراهباتٍ أيضاً. في كلّ هذه المناسبات، كانت السعادة العظمى بالنسبة لي هي أنني كنت ألاحظ على وجوه الحاضرين هذا النوع من الدهش الاختلاجي، الذي يحصل لنا عندما نحس بحقيقة كلامٍ يخترق عمق كياننا، تاركاً لنا زيادة وضوحٍ وتعزية.

المؤلَّف الذي بين أيدينا هو علامةٌ أخرى لما أشرتُ إليه قبل قليل، فقد دُعيت في تشرين الأول 2004 إلى معهد اللاهوت في جامعة البلمند (التابعة لبطريركية أنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس) لإعطاء سلسلةٍ من المحاضرات عن القديس إسحق. لقد كان ذلك ثمرةً لصداقةٍ مميزةٍ مع غبطة البطريرك إغناطيوس الرابع بطريرك أنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس، ومع عميد الكلية آنذاك سيادة المطران يوحنا؛ المطران الحالي للروم الأرثوذكس الأنطاكيين في أوروبا، وأيضاً

مع البروفسور مسؤول مكتبة الكلية آنذاك السيد ميشيل نصير العزيز، الذي كان دليلاً ومترجماً وصديقاً. إن مجموعة الطلبة التي كانت تَحضرُ الدرس أبدت حماساً واهتماماً شديداً بفكر هذا الأب القديس، وقد كان العديد منهم يعرفون شيئاً من فكر هذا القديس بفضل الترجمة العربية لجزءٍ من كتاباته، التي تم نشرها في المجموعة التي تحمل عنوان (نسكيات)، أو بفضل ترجماتٍ أخرى. لكن لا يمكنني إلا أن أصدق ما حصل معي قبل بضعة أشهرٍ فقط رغم غرابته. فخلال إقامةٍ لي في دمشق جاءني أحد هؤلاء الطلبة وهو الراهب إسحق (وليس من قبيل الصدف أن يحمل هذا الاسم!) من ديريْ القديس جاورجيوس والشيروبيم صيدنايا (سورية)، وبتشجيعٍ من رئيس الديرين الأب الحكيم يوحنا التلي، وعرض علي ثمرة عملٍ قام به، كواحدٍ مع مجموعةٍ تشكل فريق عمل، عملت بصبرٍ وشغفٍ بتدوين ما قلته في لقاءاتنا في البلمند. وهنا أقول أيضاً أن القديس إسحق لا يزال يعمل، وأن فصاحة رسالته لا تزال تصنع تلامذة...

إذاً بين أيدينا هنا ثمرة هذا العمل، الذي يجب أن نعترف فيه بالفضل بشكلٍ خاص للذي أنجزه وكذلك لديره.

الأستاذ ميشيل نصير وأنا قرأنا النص، الذي بقي عن قصدٍ بشكله الأصلي، ودون حواشٍ، وفي لغةٍ شفوية. فإلى الذين يرغبون في أن يتعمقوا في معرفة مؤلّفنا حول القديس إسحق السرياني، وأن يستزيدوا في معرفة المراجع، فإنني أُحيلهم إلى الدراسة الشاملة التي كرستها له،

كما إلى المؤلفات الأخرى المذكورة فيها[3].

أتمنى أن تكون هذه المقدمة لتعاليم القديس إسحق طريقاً مضيئاً للقارئ، كي يدخل بثقةٍ أكبر إلى "حجرة الكنز" التي تركها لنا معلم الحياة هذا في الروح القدس.

الأخ الراهب سابينو كيالا – من دير بوزه (إيطاليا)
فصح قيامة ربنا يسوع المسيح 2010

3- S. Chialà, Dall'ascesi eremitica alla misericordia infinita. Ricerche su Isacco di Ninive e la sua fortuna, Olschki, Firenze 2002.

حُجرة الكنز

حُجرة الكنز†

أولاً: كنيسة القديس إسحق

ينتمي القديس إسحق النينوي إلى ما يُعرف اليوم بالكنيسة السريانية الشرقية. وقد سُمِّيت هذه الكنيسة في مراحل تاريخيّةٍ مختلفةٍ على نحوٍ غير دقيقٍ بالكنيسة النسطورية. وهي تحمل الآن اسم "كنيسة المشرق الآشورية"، مع اسمٍ آخر هو "الكنيسة الكلدانيّة" الذي يدلّ على القسم الذي اتّحد بروما. وقد انشقّت هذه الكنيسة السريانية الشرقية عن باقي الكنائس على إثر مجمع أفسس سنة 431م. ورغم أن كنيسة القديس إسحق السريانيّ لم تكن في شركةٍ مع باقي الكنائس، إلاّ أنّ كتاباته كانت تُقرأ في جميع الكنائس. وهو يعتبر حتّى اليوم قدّيساً عظيماً. وهذا ما يطرح تساؤلات عديدة عند اللاّهوتيين.

أما تاريخ ابتداء كنيسة القديس إسحق فكان بتشكل أول مجموعةٍ مسيحيةٍ في منطقة كوخي (kokhe)[1]. حيث تخبرنا المصادر القديمة أنّ الرسولين أدّاي (تداوس) وماري، اللّذَين يُعتبران تقليديّاً من تلاميذ

† أمالي ألقيت على طلاب معهد القديس يوحنا الدمشقي اللاهوتي – البلمند، تشرين الأول 2004م. من قبل الأستاذ ساينو كيالا من دير بوزه – ميلانو – إيطاليا.

1– وهي منطقةٌ تقع حالياً في العراق قرب بغداد كانت تدعى المدائن وتسمى حالياً (بعية)، ويقال أنه عندما توجه الرسول ماري أحد السبعين إلى منطقة سلوقيا – قطيسفون أسس هناك كنيسة كوخي – أي مُجمع الأكواخ أو المنازل – وذلك لأن مار ماري كان قد شفى بنت رئيس قطيسفون، فأهدى الأخير مجمع المنازل الذي يملكه إلى مار ماري كعلامة عرفانٍ للجميل الذي صنعه معه.

المسيح الاثنين والسبعين، هما اللّذان قاما بالتبشير في منطقة كوخي، وصولاً إلى بلاد ما بين النهرين. ومن أحد المصادر التي يمكن الاعتماد عليها موجودةٌ في (كتاب مار ماري)[2]. وبحسب هذه القصة تتضح لنا معالم سيرة مار ماري المذكور، من حيث أنّه كان ملتصقاً بالقديس توما، وهو الذي قال: (إنّ القديس توما أوصل المسيحيّة إلى الهند).

ولا تكشف لنا تلك المصادر بالتفصيل كيف تمّ نشر المسيحيّة في هذه المنطقة، ولكننا نستطيع أن نجزم أنّها نشأت هناك منذ نهاية القرن الأول الميلادي وبداية القرن الثاني. وأخذت هذه الكنيسة تتوسع منذ القرن الرابع خارج العراق، فتشكلت لها أبرشيات في شبه الجزيرة العربية كقطر واليمن. وبدءاً من القرن الخامس، وبجهود آباء هذه الكنيسة، أخذ التبشير المسيحي يمتد على طول طريق الحرير وصولاً إلى الصين. ويدلّ البحث في هذه النقطة على وجود أساقفة وكنائس لكنيسة قديسنا ممتدةً من إيران حتى الصين. ويمكننا أن نعتبر أنّ القرنين السادس والسابع كانا العصر الذهبيّ لتلك الكنيسة.

الاضطهادات في الإمبراطورية الرومانية كانت إحدى أسباب انتشار هذه الكنيسة في تلك المنطقة، لأنّها دفعت بكثيرٍ من المسيحيّين إلى الفرار من الإمبراطوريّة الرومانيّة إلى الإمبراطوريّة الفارسيّة، حيث كانت توجد كنيسة قديسنا.

2- كتاب أعمال مار ماري: يروي لنا أحداث إرساليته وكيف أنه ذهب إلى منطقة بابل وبشر سائر المناطق المجاورة لها: كالأهواز، وشط العرب، وبلاد فارس، وكشكر...

ويعود العامل الآخر لهذا الانتشار إلى الأسرى المسيحيّين الرومان لدى الفرس خلال الحملات الفارسيّة ضدّ الإمبراطوريّة الرومانيّة. وما يؤكّد حضور هذا العامل حدثٌ يعود إلى العام 260م، ويفيد بأن أسقف أنطاكية دمتريانوس قد أُخذ أسيراً من قبل جيوش الفرس المحاربة للرومان، وأنه اقتيد إلى منطقة البصرة في العراق حيث أسّس كنيسة، وهو ما يدلّ على أنّ الإمبراطورية الفارسية قبل مرحلة القديس قسطنطين الكبير كانت تسمح بالنشاط المسيحي في أراضيها. ولكن حين ابتدأت الإمبراطورية الرومانية تعترف بالمسيحية كديانةٍ رسميةٍ منذ عام 313م، تغيّرت نظرة الفرس إلى المسيحيين، وصاروا يعتبرونهم خونةً بسبب الحرب الدائرة بين الإمبراطوريتين.

وتشير المصادر المسيحيّة على أنه منذ القرن الرابع تعرَّضت هذه الكنيسة لاضطهادٍ شديدٍ من قبل الفرس، أدّى إلى استشهاد المئات من المسيحيّين بدءاً من عهد الملك شابور الثاني (309 - 379م)، الذي قتل أربعة بطاركة متتالين[3]. وهذا ما فرض على هذه الكنيسة التوقّف عن انتخاب البطاركة لأربعين سنة. ويمكن لهذه الأخبار أن تفيدنا في فهم

3- وهو ما تدعوه الكنيسة السريانية بالاضطهاد الأربعيني الذي دام قرابة أربعين سنة وأول البطاركة الذين استشهدوا كان مار شمعون بار سابا الذي أُستشهد في ربيع عام 341م. ثم تلاه البطريرك مار شاهدوست الذي خلفه وقد استشهد في صيف عام 342م. ثم البطريرك بار باشمين هو ابن أخت مار شمعون وخلف مار شاهدوست على كرسي المدائن واستشهد في 9 كانون الثاني 346م. وتتضارب أخبار المؤرخين في استشهاد البطريرك تومرصا (تموزا) الذي قيل أنه ربما استشهد بعد وفاة شابور الثاني. (من كتاب "تاريخ الكنيسة الشرقية" تأليف الأب ألبير أبونا - الطبعة الثانية بغداد 1985م) [ص47 - 48 - 54 - 55].

الأسباب التي أدّت بهذه الكنيسة إلى إيجاد تنظيم خاص بها، اختلف عن تنظيم الكنيسة البيزنطية.

وبسبب هذه الظروف حاولت كنيسة قديسنا أن تُثبتَ للإمبراطور الفارسي أن لا علاقة لها بالإمبراطوريّة الرومانيّة، وأنّ ولاءها هو ولاءٌ خالصٌ له. وهذا ما جعل هذه الكنيسة لا تقبل قرارات المجمع المسكوني الثالث وما بعده من المجامع، التي انعقدت ابتداءاً من القرن الخامس، مما أدّى إلى وصفها بكلّ ما نعتتها به الكنائس البيزنطية حين ذاك. وقد حدث تقاربٌ فيما بعد حين قبلت هذه الكنيسة قرارات المجمعين النيقاوي والقسطنطيني، وذلك بسبب زيارةٍ قام بها أسقف من الإمبراطورية البيزنطية عرّفهم خلالها على إيمان المجمعين فقبلوه. ولكنّ اشتداد الصراع بين الرومان والفرس أوجد صعوباتٍ فرضت على الكنيسة السريانية الشرقية الابتعاد التام عن الغرب، ودفعت بها إلى شقّ طريقها مستقلةً عن الكنيسة الأم. وقد أنتجت هذه الوقائع كلّها قيام هذه الكنيسة بعقد ثلاثة مجامع في السنوات 410 – 420 – 424م[4] نظّمت فيها لاهوتها الكنسيّ. وهو ما أوجد فكراً لاهوتياً خاصاً بها بناه آباؤها

4- وهي مجمع البطريرك مار إسحق 410م الذي يعتبر أول مجمع مهم في الكنيسة الشرقية، وقد انطلق من قوانين المجمع النيقاوي 325م. ومجمع البطريرك يهب الله 420م، الذي عُقد عندما أوفد الإمبراطور ثاودوسيوس الروماني أسقف آمد (آفاق) في سنة 419 – 420م سفيراً إلى ملك فارس، وفي أثناء زيارته عرض على البطريرك والأساقفة قرارات المجامع وتم المصادقة على قرارات المجمعين النيقاوي والقسطنطيني. أما مجمع عام 424م فهو مجمع البطريرك داديشوع الذي انتهى إلى تأكيد استقلال الكنيسة الشرقية التابعة للإمبراطورية الفارسية وعدم قبولها وصاية الآباء الغربيين (يقصد بهم آباء الكنيسة البيزنطية) على كنيستهم. (نفس المرجع)

على نظامٍ لاهوتيٍ أنطاكي، لأن كنيسة أنطاكية هي أصل كنيسة قدّيسنا.

ولا تخفى علينا السمات الخاصّة للاّهوت الأنطاكي الذي صاغه آباءٌ كبارٌ في تاريخ كنيسة أنطاكية الذين كانوا هم نفسهم آباء هذه الكنيسة وعلى رأسهم ثيودورس المبسويستي الذي أُدين في مجمع القسطنطينية عام 553م. إنّ تفحص اللاهوت الأنطاكي لهذه المرحلة يُرينا أنه كان لاهوتاً متطوراً. وقد تابع آباء الكنيسة الكبار مثل يوحنا الذهبي الفم، العمل عليه رغم اتهامات الغرب لمدرستهم اللاهوتية.

من خلال تحليل العلاقات داخل الكنيسة السريانية الشرقية، نكتشف أن اتهامها بالنسطورية هو اتهامٌ غير صحيحٍ، لأن نسطوريوس يونانيٌ في الأصل، وقد صار بعدها راهباً أنطاكياً، ثم رُسِم أُسقفاً على القسطنطينية. وهذا ما يجعلنا نجزم أن كنيسة قديسنا لم تعرفه شخصياً، إنّما تعرفت عليه من خلال كتاباته فقط، وأنّ اتهامها هذا لا تؤيّده الوقائع.

إنّ دراسة لاهوت الكنيسة السريانية الشرقية يوصلنا إلى أنّه لاهوتٌ أنطاكي، تطور منفصلاً عن كنائس الغرب[5] بسبب الظروف القاسية التي أحاطت بهذه الكنيسة. وقد تعزّزت نسبته الأنطاكية بفضل مدارس لاهوتية اختصت بها هذه الكنيسة وغذتها بكلّ أدبياتها المميزة. فمنذ

5- كنائس الغرب هنا هي الكنائس الواقعة جغرافياً غرب النهرين دجلة والفرات، والكنيسة التي كانت في الجهة الشرقية منهما تدعى بكنيسة المشرق.

القرن الرابع نشأت حركةٌ لاهوتيةٌ في الشرق، كان من أبرزها مدرسة نصيبين الواقعة حالياً على الحدود السورية التركية في الجانب التركي[6]. وتؤكد وثائق تاريخية من القرن الخامس بأن مدرسة نصيبين شكّلت جامعةً يتجهز الطلابّ فيها، وهذا ما أدّى إلى اتساع هذه الحركة اللاهوتية التي انضوى فيها آلاف الطلاب. نستطيع أن نطالع في هذه الوثائق ملامح نظام هذه المدرسة الداخلي، وطبيعة المواد التي كانت تُدرّس فيها، والمناهج المستخدمة. وهذا ما شكل نموذجاً اقتدى به كاسيادوروس[7] حين أزمع إنشاء مدرسةٍ، فقدّم اقتراحاً مقتبساً من جامعة نصيبين إلى البابا.

كان لهذه الكنيسة مبشرون تقاة نشروها على امتداد الشرق كما قدمنا. وحين استقرت علاقتها بالإمبراطورية الفارسية توسعت خارج حدودها بشكلٍ يسمح بتصنيف انتشارها أوسع انتشار. وهذا ما ظهر في القرن السابع في كنيسة (التيبت). ولم تتكون شهرة الكنيسة السريانية الشرقية من انتشارها الواسع فقط، بل إن شهرتها قد ترسخت بفضل آدابها التي عُرفت بها إلى جانب الأدبين اليونانيّ واللاتينيّ. وتُعتبر آثار القديس أفرام السرياني من أهم آثار هذه الكنيسة.

وأدب النسكيّات كان باباً مهماً من أبواب الأدب السريانيّ الذي

6- نصيبين هي إحدى مدن ما بين النهرين تقع على سفح جبل إيزلا، ضمن الدولة التركية، وهي اليوم بلدة صغيرة، يبلغ عدد سكانها ما يقارب الثلاثين ألف نسمة. فتحت فيها مدرسةٌ لاهوتية هي من أوائل المدارس في الشرق المسيحي، أسسها القديس يعقوب النصيبيني الذي كان أسقفاً على المدينة سنة 309م.

7- كاتب روماني، ورجل دولة، وراهب، اسمه الكامل فلافيوس ماجنوس كاسيادوروس 490 – 583م.

خلّفته هذه الكنيسة، وقد حفلت آثار هذا الأدب بكتابات القدّيس إسحق السريانيّ، والقدّيس سمعان المنعم عليه[8]، والقدّيس يوحنّا الدّلياتي[9]، والقدّيس يوسف الرّائيّ[10]. وقد شكّل هؤلاء القدّيسون مرحلة ازدهارٍ لكنيستهم، ما لبثت أن تلتها مرحلة انحطاطٍ أدّت إليها أسبابٌ عديدة؛ كان من أهمّها الحروب والغزوات الخارجيّة لمناطقها، ومن جملة ذلك الفتح المغوليّ لبلاد ما بين النهرين، حيث انضوت هذه الكنيسة لاحقاً تحت هذا الحكم.

وبشكلٍ عام، كانت العلاقة بين الكنيسة السريانيّة الشرقيّة وبين العرب علاقة مودّةٍ في البداية، ويرجع ذلك إلى أنّ السريان الشرقيين كانوا يعتبرون العرب الفاتحين أصحاب ديانةٍ موحِّدة، تعترف بالعهدين القديم والجديد. وكان العرب يعاملون السريان معاملةً أفضل من معاملة

8- يورد اسمه ضمن قائمة أسماء الأطباء السريان عاش في القرن السابع، في أوج الحركة الروحانية السريانية، ودخل دير الربان شابور بقرب (الأهواز). وقد ذكره ابن العبري 1286م في تاريخه الكنسي. ألفّ كتاباً عن الحياة الرهبانية دعاه (النعمة) ولُقب باسم كتابه أيّ سمعان صاحب كتاب النعمة (طيبوثا).

9- دعيَّ بالدّلياتي نسبة إلى بلدة دلياتة، وهي على الشاطئ الغربي لنهر الفرات. وهو المعروف باسم الشيخ الروحاني أو يوحنا سابا. هو من مشاهير كُتّاب ونُسّاك الآباء السريان في القرن السادس الميلادي. وقد أثرى الحياة الرهبانية بتعاليمه وإرشاده. له عدة كتابات منها: الميامر وعددها 32 ميمر - مجموعة الرسائل الروحية وعددها 48 رسالة تتباين في أحجامها من عدة أسطر إلى بضعة صفحات (ترجمة الأب سليم دكاش اليسوعي) - المقالات وهي تحمل عنوان "رؤوس المعرفة".

10- من القرن الثامن ولد في بوس نمرود. أسَرَته الجيوش التي سيرها عمر بن الخطاب للفتح الإسلامي، ثم بيع عبداً لعربي في سنجار. ثم اشتراه فيما بعد أحد المسيحيين ويدعى كرياكوس. وبعد اعتنائه إلى المسيحية أعتقه كرياكوس، فذهب ودخل الحياة الرهبانية، وأضحى بعد ذلك رئيساً لدير مار بسيما في بلاد قردو، ثم رئيساً لدير الربان بخيشوع في ضواحي بلدة زيباي. أما عن كتاباته فيقول عبديشوع الصوباوي: إن يوسف الرائي (حزايا) كتب ألفاً وتسعمائة كتاب منها: ثبات الصائمين - الحوادث والمصائب - الكنز في أحكام الله.

الفرس لهم، الذين كانوا يدينون بديانةٍ متعدّدة الآلهة. ولقد ساعد السريانُ العربَ في فتح بلاد ما بين النهرين، وبَذلَ علماؤهم الكبار جهوداً كبيرةً في ترجمة كتب الفلسفة اليونانيّة إلى العربيّة، وهذا ما جعل العلاقة بين الطرفين جيّدةً في البداية. ولكنّ مؤشّر هذه العلاقة أخذ بالتحول التدريجيّ في القرن العاشر، ففقدت علاقتهما بعض أوجه الإيجابيات الأولى.

أُعتبر غزو المغول في القرن الثالث عشر لبلاد ما بين النهرين نقطة تحوّلٍ في العلاقة بين الطرفين، ولاسيّما مع اجتياح تيمورلنك[11] حيث قام بهدم الكنائس والأديرة، مما أدى إلى اختلاط الأوراق، وعدم القدرة على رسم حدود علاقة السريان بالمغول. وذلك لأن المغول حين اتجهوا لغزو العرب كانوا قد تأثروا بالمسيحية بجهد مبشري هذه الكنيسة، الذين بشروا بين القبائل المغولية في بلادها، وأحرزوا نجاحاتٍ متفاوتةٍ أدّت إلى دخول أعدادٍ منهم إلى المسيحية .

ولقد أدّى هذا التداخل في المواقف إلى تبدّل العلاقة بين العرب والسريان الشرقيين. فلقد حاول العرب والسريان هداية المغول كلٌّ إلى دينه، وقد تأرجح المغول بين الديانتين، وانعكس هذا التأرجح في سياساتهم، حتّى أنّهم في فترةٍ معيّنةٍ حاولوا استعادة القدس من يد العرب وإعطاءها للمسيحيين، وقد أُطلق على محاولتهم هذه اسم

11- تولى السلطة في نهاية القرن الرابع عشر 1396-1405م، واضطهد المسيحيين ولاحقهم، فانتهت المسيحية في بلاد الصين والتيبت واواسط أسيا كليّاً، باستثناء الهند. أما المسيحيون في بلاد فارس وما بين النهرين، فاضطرّوا إلى الفرار واللجوء نحو مناطق كردستان الجبلية. وهكذا مسحت حملة تيمورلنك العسكرية العديد من أبرشيات كنيسة المشرق، وصارت الأبرشيات النائية معزولة عن مركز رئاستها الأم وعن بعضها البعض.

(الحملة الصليبية الصفراء). ولكنّ محاولة المغول هذه باءت بالفشل ولم يستطيعوا الوصول إلى القدس، بل استحصلوا على أنطاكية من يد العرب، وإنّ وجود بطريركٍ مغولي اسمه يهب الله[12] يدلّ على كثرة المسيحيين في صفوف المغول حتّى القرنين الثالث عشر والرابع عشر.

كما ذكرنا، فقد شكّل غزو تيمورلنك المحنة الكبرى التي تأثّرت بها كنيستا السريان الشرقيين والسريان الأرثوذكس[13]. وبشكلٍ أخص الأثر الذي خلّفه غزوه لمنطقة (طور عابدين)[14]، التي تقع حالياً في تركيا، على وضع المسيحيّين هناك. تلك المنطقة كانت تشبه جبل آثوس في اليونان، حيث كان هناك ثمانون ديراً قبل غزو تيمورلنك لها، بينما لم يبق منها بعد مغادرته لها سوى القليل منها. أمّا اليوم فتوجد (في طور عابدين)

12- البطريرك يهب الله، واسمه مرقس، ولد سنة 1245م وتتلمذ لراهب متوحّد وهو الربان برصوما المغولي. اختاره البطريرك دنحا مطراناً على مدن قاتاي وونغ في الصين وذلك سنة 1280م. ثم اختير بطريركاً في 2 تشرين الثاني سنة 1281م، واتّخذ له اسم يهب الله. وقد نقل الكرسي البطريركي من بغداد إلى مراغا، حيث كان يقيم الملوك الايلخانيون، لكي يكون قريباً من السلطة الحاكمة، ويشترك في اتّخاذ القرارات لخير كنيسة المشرق وتقدّمها. ازدهرت كنيسة المشرق وبلغت أوج عظمتها في أيامه، وبلغت مدة رئاسته 36 سنة. وسام البطريرك يهب الله أكثر من 70 أسقفاً. وتوفي يهب الله في 13 تشرين الثاني سنة 1317م.

13- السريان الشرقيون هم الذين ينتمون إلى الكنيسة الآشورية، ويتبعون مذهب نسطوريوس. أما كنيسة السريان الأرثوذكس فهم السريان الغربيون (أي غرب النهر) وهي التي رفضت قرارات المجمع الخلقيدوني (المجمع المسكوني الرابع 451م).

14- منطقة جبلية تقع في ما بين النهرين جنوب شرق تركيا بين نهر دجلة والحدود السوريّة. لها أهمية عظيمة عند الكنيسة السريانية الأرثوذكسية، فقد كانت مسرحاً لحركةٍ سريانيةٍ رهبانيةٍ وثقافيةٍ. اسم طور عابدين يعني (جبل العبيد) ويقال أنه أُخذ إما من أيام الملك قسطنطين عندما سبى الكثير من المجوس والوثنيين وأسكنهم في هذه المنطقة كعبيد. أو أن الرومان أخذوا من شعب المنطقة الاسم الذي ارتبط بالرهبان منذ القرن الرابع الميلادي حيث حوّلوا المكان إلى جبل لعبيد الله إذا جاز التعبير.

أربعة أديرة كبيرة يسكنها رهبان سريان أرثوذكس.

ثانياً: حياة القديس إسحق السرياني

1- تاريخياً

تؤرخ الكتب لقديسنا منذ القرن السابع، حين كانت منطقة شرق المتوسط تشهد أحداثاً سياسيةً مصيرية. ففي سنة 614م توسعت الإمبراطورية الفارسية نحو الغرب على حساب الإمبراطورية الرومانية البيزنطية. وقد تمكنت قوات الفرس أن تصل إلى القدس وأن تُدمر كنيسة القيامة، وأن تسلب خشبة الصليب المقدس. واستمر انتصارها أربعة عشر سنة إلى أن جاء الإمبراطور البيزنطي هرقل، الذي تمكن من استعادة الأرض المحتلة، وتحرير القدس ومناطق ما بين النهرين وصولاً إلى نينوى، التي أصبحت فيما بعد أبرشيّة القديس إسحق. وقد استطاع الإمبراطور هرقل أن ينتصر على الفرس في معركة نينوى أيضاً[15]. وقد استمرت المعارك سجالاً بين الإمبراطوريتين حتى قدم القائد العربي خالد بن الوليد سنة 633م، وأجلى الفرس عن أرض ما بين النهرين بشكلٍ نهائي.

عاش القديس إسحق في خضم هذه المرحلة، متعايشاً مع الإسلام

15- فلافيوس أغسطس هرقل (575 – 641م) كان إمبراطوراً بيزنطياً حكم بين (610 – 641م) يعتقد بأنه من عائلةٍ أرمينية الأصل. أبدى شجاعةً ومهارةً كبيرين في مواجهة الخطر الفارسي، وقام بمواجهتهم في عقر دارهم في البلاد الفارسية. وقد ألحق بالجيوش الفارسية هزيمةً ساحقة. على إثرها عزل كسرى وقتل. خلفه ابنه شيرويه الذي رأى أن من الأفضل أن يعقد الصلح معه. وقد تم الصلح في سنة 628م، وبمقتضاه استردت بيزنطة كلّ ما كان لها من البلاد التي كانت قد سقطت في أيدي الفرس، بما في ذلك أملاكهم في بلاد الجزيرة الفراتية والشام ومصر وعلى رأس كلّ شيء عود الصليب الكريم.

كتحدٍّ للمسيحية لأنه أتى بإيمانٍ جديدٍ. وكما تقدم تؤكد الوثائق التاريخية أن السريان الشرقيين نظروا بإيجابيةٍ إلى العرب ودينهم، رغم تحدي الإسلام الديني للمسيحية. وهذه الإيجابية تبدَّت بأشكالٍ كثيرةٍ منها المساهمة في الفتح العربي، الذي ظهر فيه الغساسنة في جنوب بلاد الشام، والمناذرة الذين كانوا يتواجدون في جنوب بلاد الرافدين.

2- مصادر سيرة القديس إسحق

يؤرخ لسيرة قديسنا مصدران اثنان، أولهما: يتشكل من فصلٍ قصير ضمه كتاب المؤرخ ايشودناخ[16] وهو يعرض سير بعض الرهبان من الكنيسة السريانية الشرقية، وكانت سيرة القديس إسحق من جملة هذه السير. وثانيهما: سيرة لكاتبٍ مجهول الهوية، ولكنه يروي قصةً قريبةً جداً من الكتاب الأول.

3- ملامح حياة القديس إسحق

تُعرِّفنا القصتان المذكورتان أن قديسنا وُلد في النصف الأول من القرن السابع في منطقة بيت قطرايا (إمارة قطر الحالية)[17]، ولهذا السبب يسمى أيضاً بإسحق القطري. ومن المرجّح أنه أمضى وقتاً قصيراً في أحد أديار تلك المنطقة، وهو ما يثبت وجود أديار في تلك الحقبة في

16- هو مؤلف ومطران البصرة في جنوب العراق، عاش في القرن التاسع، وكتب بين (860م – 870م)، من أعماله كتاب (العفة) للرهبان السريان.

17- كان اسم قطر (بيت قطرايا) في تلك الأيام يُطلق على معظم الشاطئ الغربي من الخليج، أي من السعودية والبحرين وقطر والإمارات حتى عُمان. وبما أن الخليج كان الطريق نحو الهند يطلق عليها بعض الأحيان (منطقة قطر التي تحت الهند).

قطر[18]. ثم تخبرنا قصته المروية أنه عندما نزل بطريرك كنيسته جاورجيوس الأول إلى قطر في عام 676م لعقد مجمعٍ لحل بعض المشاكل المحلية[19]، تعرف على القديس إسحق واصطحبه إلى مركز البطريركية، وسامه أسقفاً على نينوى التي تقع قرب الموصل حالياً. وهذا التحديد الزمني هو التاريخ الوحيد الأكيد الذي نملكه من سيرة قديسنا. ومن أخبار سيرته نتبين أنه بعد مضي خمسة أشهرٍ على سيامته، ترك أسقفيته، وقصد منطقة تدعى (بيت هوزاي) وهي في إيران الحالية[20]. متابعاً حياته الرهبانية، التي مارسها متوحداً حسب الطريقة الشرقية، مع جمعٍ من تلاميذه. ويُرجّح أنه ألّف كلَّ أعماله وكتاباته التي نقرأها له في تلك المنطقة، وفي تلك الفترة من حياته.

لم تُحدد أسباب تركه لأبرشيته بدقة، فبعض المراجع أرجعت هذا التصرف إلى وجود مشاكل في أبرشيته، وتحاول هذه المراجع أن تؤكد ذلك بأن الأسقف الذي شُرطن بعده، قد ترك هو الآخر هذه الأبرشية

18- تقول إحدى المصادر أنه دخل فيما بعد إلى دير (بيت عابي) الذي يقع على السفح الجنوبي لجبل عقرة شمال الموصل - العراق. ولكن ينقل لنا السمعاني في موسوعته (المكتبة الشرقية) المجلد الأول، ما كتبه أحد المؤلفين في بدء الترجمة العربية لكتاب إسحق النينوي، محدداً فيها هذا المؤلف أن عصر القديس إسحق هو في بداية القرن السادس. ويذكر أنه ذهب إلى دير مار متى شمال الموصل، عوضاً عن دير بيت عابي، وعوضاً عن بيت هوزاي ودير الربان شابور، يجعل موضع اعتزاله، بعد تركه لأسقفيته، في برية صعيد مصر ودير السيدة المختص بالسريان الأرثوذكس.

19- بسبب تقلص عدد المسيحيين في منطقة قطر في منتصف القرن السابع، اهتمت كنيسة المشرق (الآشورية) بتنظيم المسيحيين هناك، فذهب البطريرك جاورجيوس الأول (660 - 680م) إلى بيت قطرايا سنة 676م، وبعد أن زار العديد من مراكز الأبرشية، حل في جزيرة ديرين قرب البحرين وهناك عقد مجمعاً برئاسته. وقد صدر عن هذا المجمع 24 قانوناً.

20- وهي حالياً الأهواز مدينة في جنوب غربي إيران عاصمة إقليم خوزستان.

بعد فترةٍ وجيزة[21]. ويمكن إرجاع اعتزال القديس لرغبته في أن يعيش حياةً رهبانيةً بعيداً عن العالم، أو أن تعليمه الذي نُقل عنه قد كان السبب في ذلك، وهو الذي سيجلب عليه بعض المتاعب في المستقبل. حيث تعرَّفنا أخبار القديس إسحق، أن الأسقف دانيال بار طوبانيتا قد كتب كتاباً ضد تعاليم قديسنا[22]. وبسبب فقدان كتاب الأسقف دانيال فإننا لا نعرف القضية التي رد فيها على قديسنا. ولكننا يمكن أن نتلمسها بعموميتها من خلال ما كان يُروى عن تعليم القديس إسحق وبشكلٍ أساس موضوع "رحمة الله"، حيث نُقل عنه أن الله لديه رحمةً تشمل البشر جميعاً، ويبدو أن معارضة الأسقف دانيال كانت حول هذه الفكرة.

كلّ هذا اقتبسناه من كتابٍ لكاتبٍ عربيٍ مسيحيٍ في القرن التاسع يدعى ابن السلط، الذي ترجم بعض الكتابات المختارة للقديس إسحق[23]. وفي مقدّمة كتابه، يتكلّم عن الاعتراضات على تعاليم القدّيس إسحق ولاسيّما تلك التي تتعلّق بمفهوم رحمة الله. وذلك من خلال

21- في تلك الفترة من حكم الأمويين أصبح الأساقفة مرجعية مدنية لمؤمنيهم من (أهل الذمة)، وهذا ما لم يتحمله الأسقف الناسك. ويوماً ما دخل إليه رجلان، لأحدهما دَينٌ على الآخر، فقال له الدائن بغضب: (قل له أن يُرجع إلي مالي وإلا أحلته إلى القاضي)، فأجابه القديس بوداعةٍ: (ألم يقل المسيح في الإنجيل: "من أخذ منك الذي لك فلا تطالبه" (لوقا 6.30). فعليك على الأقل أن تمهله بعض الوقت). فأجابه: (ضع تعاليم الإنجيل جانباً). ففكر القديس في ذاته قائلاً: (إذا لم يكن الإنجيل حاضراً فماذا أتيت أفعل هنا؟). لهذه الأسباب وغيرها التمس القديس إسحق إعفاءه من منصبه، فسمح له البطريرك بالعودة إلى حياة التوحد في بلاد الأهواز.

22- هو أسقفٌ سريانيٌ شرقيٌ لمنطقة (طحال) بيت حرماي (تبعد حوالي 100 كم جنوب شرق الموصل)، عاش في منتصف القرن السابع. وكتب عدة أعمال ضد القديس إسحق السرياني.

23- هو حنون بن يوحنا ابن السلط مؤلفٌ سريانيٌ شرقيٌ، كتب بعض المؤلفات عن قديسنا إسحق باللغة العربية.

حوارٍ بين ابن السلط وأبيه الروحيّ، حيث يسأل ابن السلط عن سبب عدم تعريفه بالقدّيس إسحق، فيجيبه أبوه الروحي: لأن القديس إسحق قد نبه إلى أن فكرة رحمة الله لا تعطى للمبتدئين في الرهبنة، بل يطلع عليها من امتلكوا خبرةً روحيةً كافية. ويعود ابن السلط ليسأل أباه الروحي: إذن هل أفهم أنك تفضل تعاليم دانيال بار طوبانيتا على تعاليم إسحق؟ فيجيبه أبوه الروحي برأيه على الشكل التالي: إن دانيال بار طوبانيتا يتكلم بلغة الناس، بينما يجيب القديس إسحق بلغة الملائكة!! وتكشف هذه القصة طبيعة الفكرة التي عارضها دانيال بار طوبانيتا في تعاليم القديس إسحق وجداله حولها.

تذكر المراجع التي تحدثت عن القديس في تلك المرحلة أن تأليفه لآثاره قد تم بإحدى طريقتين كانتا شائعتين حينئذٍ، فإما أن يكون قد كتبها شخصياً، أو أن أحد تلاميذه قد كتبها بإملاء القديس إياها. وتذكر هذه المصادر أن قديسنا قد أُصيب بالعمى بسبب انكبابه على مطالعة الكتاب المقدس. ونحن لا نعرف سنة وفاته[24]، وكلّ ما نعرفه أنه قد دفن في دير (رابان شابور) في منطقة (بيت هوزاي) التي نسك فيها. وليس للدير آثار باقية ولم يجرِ التنقيب عنه، ونستطيع أن نحدده بأنه قريب من منطقة (شوش) عند جبال شوشتر[25].

24- يُرجح الأب السرياني جوزيف شابو في مقالته "القديس إسحق السوري في التقليد السرياني" أن القديس إسحق السرياني وُلد عام 596م وتوفي عام 700م. (المجلة البطريركية للسريان الأرثوذكس عدد 299- 300 لعام 2010م).

25- شوش: أو سوس مدينة في منطقة خوزستان (عربستان) الإيرانية، وكانت عاصمة العيلاميين ثم الأخمينيين.

ثالثاً: أعمال القديس إسحق السرياني

رغم هذه الضبابيّة التي أحاطت بحياة القديس إسحق ومكان وفاته وزمانه، إلا أن كتاباته بقيت خالدة. وحين نريد رصد هذه الكتابات فإننا سنجد أنفسنا مضطرين للعودة إلى وصف المخطوطات، لأن ما ينسب إليه من خطاباتٍ وكتبٍ هو إرثٌ كبير، حيث جاء في كتاب العفة لإيشودناخ البصري: (تضلع إسحق النينوي كثيراً في الأسفار الإلهية وألّف كتباً عن سيرة النساك) لكنه لم يحدد نوعيتها وعددها. يقول عبديشوع الصوباوي 1318م في كتابه فهرس المؤلفين: (وضع إسحق النينوي سبعة مجلدات في تدبير الروح والأحكام والعناية الإلهية). ويحتاج إلى ضبطٍ وتدقيقٍ في مصادره. وبدراسة المخطوطات نجد أن لدينا ثلاث مجموعات من الخطابات:

المجموعة الأولى منها تحتوي على اثنين وثمانين خطاباً. وهي من أشهر أعماله وأكثرها انتشاراً وترجمة. وتحتوي هذه المجموعة على سلسلةٍ من الخطابات النسكية، وتدور حول الحياة الروحية. وهناك مطبوعٌ لهذه المخطوطة السريانيّة التي تمّ نشرها عام 1909م في باريس من قبل الكلدانيّ بولس بجّان. وقد ترجمها إلى الانكليزية العالم الهولندي A.J.Wensinck ونشره سنة 1923م تحت عنوان (The Mystic Treaties by Isaac of Ninive, Amesterdam) وقد تم ترجمة هذه المطبوعة إلى اليونانية وإلى معظم اللغات المحكيّة من المسيحيّين.

أما المجموعة الثانية فتضمّ إحدى وأربعين عظة. تتألّف الثالثة منها

من أربع مئويّات. وقد تمّ اكتشافها للمرة الأولى حوالي عام 1900م من قبل بولس بجّان المذكور سابقاً، الذي لم يتمكّن من نشر سوى بعض المقاطع منها. وفي سنة 1983م اكتشف الأستاذ سيباستيان بروك[26] نسخةً ثانيةً من العظات في مكتبة أوكسفورد تحتوي على ما تسميه (الجزء الثاني من مقالات القديس إسحق السرياني). وقد قام بترجمتها إلى اللغة الإنكليزيّة. تحت عنوان (Isaac of Niniveh, the Second part, Chapters IV-XLI, CSCO, Louvain Peeters, N554, 555, 1995).

حالياً، توجد ترجمة فرنسية لهذه المجموعة كاملةً قام بها الراهب الفرنسي أندريه لوف. وهناك ترجمة يونانيّة قام بها نسطور كافاداس.

والمجموعة الثالثة تضمّ 17 عظةً، كانت 14 عظة منها غير معروفة، وثلاث منها موجودة في المجموعتين السابقتين. والمخطوطة الوحيدة لهذه المجموعة اكتُشفت في طهران على يد أسقف طهران الكلداني حين اشترى مخطوطات سريانية قديمة من تاجر تحفٍ يهوديّ، فاكتشف أن فيها مخطوطتان اثنتان تعودان للقديس إسحق. وإذا ما تمعنا في هذه المخطوطة نجد أنها تضم المجموعة الثانية نفسها. وأما المخطوط الثاني فهو الذي يضم المجموعة الثالثة تحت عنوان (الجزء الثالث من خطابات إسحق النينوي). وقد قام الأستاذ سابينو كيالا من دير بوزه في إيطاليا بترجمتها إلى اللغة الإيطالية.

26- ولد في لندن عام 1938م، وهو من أكبر المتخصصين بالدراسات السريانية الشرقية، حائز على درجة الليسانس من جامعة كامبريدج ودرجة دكتوراه في الفلسفة من جامعة أكسفورد. من أهم كتبه (العين النيرة – الرؤية العالمية الروحية للقديس أفرام السرياني – الآباء السريان حول الصلاة والحياة الروحية) ولا يزال على قيد الحياة.

لا بدّ من الإشارة إلى أنّ خارج هذه المجموعات الثلاث، توجد أيضاً صلوات وخطابات تنسب إلى القديس إسحق متناثرة في مخطوطاتٍ مختلفة. وهي تحتاج إلى دراسةٍ متأنّيةٍ لتقرير صحة نسبها إلى قديسنا قبل التعامل معها.

الآثار المعروفة للقديس إسحق السرياني هي ما تم شرحه في الفقرات السابقة. و يمكن من خلال تتبعها أن نحدد مدى انتشار تراث هذا القديس. فسنجد أن المجموعة الأولى قد ترجمت إلى لغاتٍ متعددة، وتُعتبر ترجمتها إلى اللغتين اليونانية والعربيّة من أقدمها. وقد قام بالترجمة اليونانيّة راهبان عاشا في دير القديس سابا في فلسطين، وهما أبرهام وباتريكيوس. وتمّ إنجاز هذه الترجمة في القرن التاسع، وهي أساس جميع ترجمات هذه المجموعة، عدا الترجمة العربية التي قام بها ابن السلط في القرن التاسع، حيث ترجم مقتطفات منها إلى العربية[27]. ثم قام عبد الله بن الفضل الأنطاكي بترجمة هذه المجموعة كاملةً إلى اللغة العربية في النصف الأول من القرن الحادي عشر[28].

وبالتدقيق في المخطوطات العربية لهذه الترجمة، نجد أنها تُقسم إلى

27- حيث اختار منها نصوصاً استلهمها من المقالات الطويلة وضمنها رسائل ثلاث وجهها إلى أحد الرهبان من أصدقائه. وقد نشرها الأب بولس سباط الحلبي، مع ترجمة فرنسية في القاهرة سنة، 1934م تحت عنوان:
(Traites religieux, philosophiques et moraux extraits des oeuvres d Isaac de Ninive (VIIe s.) par Ibn As-Salt (IXe.s), le Caire 1934).

28- الشماس عبد الله ابن الفضل الأنطاكي لمع في أفق الكنيسة في القرن الحادي عشر، كان بارعاً بالعربية واليونانية والسريانية. وأهم مصنفاته كتاب (المصابيح). وقد قام بترجمة المجموعة الأولى للقديس إسحق من اليونانية وعددها خمسة وثلاثون خطاباً.

مجموعتين. تضمّ الأولى ما بين 40 إلى 80 عظة. وهي في شكلها هذا تناسب المجموعة الأولى من المخطوطة السريانيّة[29].

وأمّا المجموعة الثانية، فهي مخطوطة تحتوي على أربعة كتب، وعند التدقيق فيها نكتشف أن الكتابين الثاني والثالث يُطابقان المجموعة الأولى، بينما يحتوي الكتابان الأوّل والرابع على بعض عظات المجموعتين الثانية والثالثة. وكذلك تضم هذه المجموعة نصوصاً ليس بين أيدينا أصولٌ سريانية لها. وقد كان بعض الدارسين القدماء يرفضون نسبها إلى القديس إسحق، ولكن اكتشاف المجموعة الثانية التي ذكرتها هذه الدراسة، أظهر أن العديد من عظاتها موجودة في الكتاب الأول من المخطوط العربي.

لا بد من الإشارة إلى أنّ ترجمةً لآثار القديس إسحق باللغة الجيورجية في القرن التاسع، قام بها القديس أفتيميوس الكبير في جبل آثوس. كما أن هناك ترجمةً أخرى باللغة السلافية القديمة، قد أُنتجت في الفترة بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وقد أُعيدت ترجمتها إلى اللغة ذاتها مرّاتٍ عديدة. وقد تُرجمت آثار قديسنا إلى اللغة الرومانية في القرن الثامن عشر، وكذلك إلى اللغة الروسية في القرن التاسع عشر. وفي القرن الرابع عشر أُكتشفت ترجمة أثيوبية. وبين القرنين العاشر

29- وصلت إلينا هذه الترجمة في مخطوطاتٍ عدة، أقدمها محفوظٌ في مكتبة دير القديسة كاترينا في سيناء، كما نجد لها نسخاً في مكتبات الأديار في لبنان وسوريا، وفي المكتبات الغربية الكبرى. وهناك أيضاً مخطوطاتٌ قديمةٌ تحمل ترجمةً أخرى من اليونانية إلى العربية، بجهولة المعرّب، وتحتوي على ما يقارب الستين مقالة، أقدمها المخطوط السينائي 346 المؤرخ سنة 1117م.

والرابع عشر – وهذا ما يجعل التحديد صعباً – أُنجِزت ترجمة آثار هذا القديس إلى اللاتينية في نسخٍ عديدة. ومنذ القرن الثالث عشر والقرن الذي يليه وُجِدت ترجماتٌ لآثاره في اللغات الأوروبية الحديثة، كالفرنسية والإيطالية والإسبانية.

إن هذا الاستعراض للغات التي تُرجمت إليها أعمال القديس إسحق، يجعلنا نكتشف سعة انتشار أقوال هذا القديس. وهي ساحةٌ أوسع من ساحة انتشار عظات القديس أفرام السرياني، أو يوحنا الذهبي الفم. وهذا ما يجعلنا نقول إنه كان مقروءاً ومحبوباً في غالبية أقطار العالم المسيحي. وإذا ما تذكرنا أنه كان من الكنيسة السريانية الشرقية المتّهمة بالنسطوريّة من قبل الكنائس الغربية، فإن هذا الانتشار لم يكن شعبياً فحسب، بل إن العالم البيزنطي واليوناني اعترف به على أنه من أكبر الآباء النساك. كما أنّنا نجد أنّ الآباء الهدوئيين في جبل آثوس، كغريغوريوس السينائي، وغريغوريوس بالاماس، وغيرهم من الآباء يشيدون به، ويركزون عليه كمرجعٍ للحياة النسكيّة والصلاة.

إنّ مراقبة تطور الحياة الرهبانية، تُرينا أن كلّ نهضةٍ شهدتها هذه الحياة، شكلت فيها كتابات هذا القديس أحد المراجع الرئيسة لهذه النهضة. ولو أخذنا ظاهرة الازدهار التي شهدها جبل آثوس في القرن الماضي، فإننا نجد آثار كتابات هذا القديس واضحةً وجلية. حتى إنه قد نُقل عن الشيخ يوسف الهدوئي الذي توفي عام 1959م، وهو من الأشخاص الذين ساهموا في هذه النهضة، قوله: (لو فُقِدت الكتابات

النسكية والزهدية كلّها في العالم، فإن كتابات القديس إسحق السـرياني تكفي وحدها لإعادة الحياة الرهبانية). وهذا ما حدث في العالم العـربي، حيث نجد أنّ نشر كتابات هذا القديس كان الأساس لتحقيق التجدد لهذه الكنيسة. وأما في الكنيسة الروسية فإننا لا نكاد نجد مؤلَّفاً في النسكيات إلا ويذكر القديس إسحق . وتمتاز هذه الكنيسة في أن الاهتمام بقديسـنا لم يكن مقصوراً على الرهبان فقط، بل إن هذا الاهتمام قد امتد إلى العلمانيين من الكتّاب، كما نجد ذلك في كتابات الكاتب الشهير دوستويفسـكي[30]، حيث يستشهد هذا الكاتـب الكـبير في روايتـه المشـهورة "الإخـوة كارامازوف" وفي رواياتٍ أخرى بالقديس مرّاتٍ عديدة.

في العالم الغربي، وبين القرنين الرابع عشر والسادس عشر، حيـث نشطت حياة الرهبنة فيه بشكلٍ واضح، نجد أن قديسنا كان من أكثـر الآباء قراءةً من قبل رهبان هذه الأديار، ولا ينافسـه في انتشـاره إلا القديس يوحنا السلمي. وهكذا رافق تجدد الحياة الروحية في الأديـار الغربية اعتمادٌ واضحٌ على كتابات القديس إسحق، حتى من قِبَل بعض الرهبنات غير النسكية كالرهبنة الفرنسيسكانية. ولا بـد أن ننـوه أن تأثيرات هذا القديس الكبير لم تقتصر على العالم المسيحي فقط، بل إننا نجد آثاراً واضحةً له في تياراتٍ إسلاميةٍ صوفيةٍ كثيرة، حيـث جـرى تداول فكره بكثرة.

30- فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسـكي عاش بين 1821 – 1881م. وهو واحدٌ من أكبر الكتاب الروس ومن أفضل الكتاب العالميين، وأعماله كان لها أثرٌ عميقٌ ودائمٌ على أدب القرن العشرين وإلى الآن.

هذا التأثير الواسع جداً لقديسنا يطرح إشكاليةً على بعض الكنائس التي صدمتها حقيقة هذا القديس. فهو أبٌ يأتي من كنيسةٍ تواجدت على أطراف حدود العالم المسيحيّ القديم، وهي تُصنّفُ في الدراسات الكلاسيكية بأنها كنيسةٌ هرطوقية. ومع ذلك استطاع هذا القديس أن ينتشر على هذه المساحة الواسعة، وأن يؤثر بهذا العمق على الحياة الرهبانية المسيحية. بل إن تأثيره العميق تجاوز جميع الكنائس المسيحية، ليظهر في أعمال الكثير من الصوفيين المسلمين؛ كجلال الدين الرومي، ورابعة العدوية، وأبي حامد الغزالي. وهو ما يقتضي من الباحثين في اللاهوت المعاصر أن يواجهوا الحقيقة وأن يعيدوا تقييم كنيسة هذا القديس.

رابعاً: تأثير القديس إسحق على الفكر الكنسي

يَظهرُ القديس إسحق في كتاباته، متضلعاً بعلم الكتاب المقدس وبأدب الآباء السريان واليونانيين، وبعلم النفس والأخلاق عند الفلاسفة اليونان، كالأفلاطونيين والرواقيين وغيرهم، وملماً بعلم الطب والحساب. ولا شك أنه تدرج في هذه العلوم في إحدى مدارس بلاد قطر حيث أصبح بعد تخرجه معلماً فيها. ثم توحَّد في البرية منقطعاً إلى الزهد والصلاة والتأمل وقراءة الكتب المقدسة. لقد جاء في بعضٍ من مصادر سيرته أنه (كان بصيراً في الكتب الإلهية والكنسية وفي التفاسير).

يكتشف كلُّ دارسٍ يقارب فكر القديس إسحق السرياني سِمةً

أساسيةً فيه، وهو أنه فكرٌ غير منظم. فموضوعاته ليست مرتبةً على طريقة التأليف المعهودة في اللاهوت المسيحي، بل هي معروضةٌ بشكلٍ متداخلٍ على غير الطريقة المألوفة بالنسبة للباحثين المسيحيين. ولهذا فمن المستحيل تلخيص موضوعاته، لأن كلَّ قولٍ، تقريباً، هو موضوعٌ مستقل. ولهذا فإننا في دراستنا هذه سنحاول أخذ العناصر الفكرية التي تتوزع في كامل أقواله. وستتبيَّن من خلال هذا المنهج الذي اعتمدناه، بأن قديسنا لا يريد تلخيص الإيمان المسيحي، بل هو يريد أن يُعبِّر عن خبرته الخاصّة، وهو ما انعكس على قراءته الذاتية للكتاب المقدس. وكذلك سنجد أن كتاباته التي وجهها إلى الرهبان لم تبق مقتصرة عليهم، بل إن العلمانيين قد احتفظوا بها، واستخدموها كأصلٍ في كتاباتهم. ومن هذه السمة الأخيرة ندخل إلى دراسة فكر القديس إسحق من خلال رؤيته للحياة الرهبانية.

⌘ الحياة الرهبانية في فكر القديس إسحق

أول ما يلفت نظرنا حول رؤية قديسنا للحياة الرهبانية هو أنه لا يعتبرها حياةً أفضل من غيرها. وذلك لأنه يؤكد أنَّ كلَّ أشكال العيش التي يحياها المسيحي هي ناتجٌ مباشرٌ لنعمة المعمودية، ولهذا فإن الحياة الرهبانية هي إحدى الطرق المثاليّة للحياة المسيحية. ونعمة المعمودية هذه هي أساس الحياة لكلِّ مسيحي. ولهذا فإن هدف المسيحيين جميعاً (رهباناً وعلمانيين) هو أن يتعلموا المحبة. والمحبة هي ثمرة النعمة، وهي ما يسعى إليها كلُّ مسيحيٍّ وبالأخص الرهبان، وأيضاً المتوحّدين منهم.

يستخلص قديسنا من جعل نعمة المعمودية أساس حياة الرهبنة الموجودة في حياة كلِّ مسيحي، أنه ليس على الراهب أن يزدري طرق الآخرين، بسبب طريقة عيشه التي اختارها هو في الدير. فمن يفعل ذلك من الرهبان يكون قد فرّغ حياته الفضلى من مضمونها. وذلك لأن محبّة الآخرين في الحياة الرهبانية هي التجسيد الأنقى للمحبة المسيحية.

يكشف قدّيسنا عن أسبابٍ متعدّدةٍ تدفع الإنسان لسلوك طريق الرهبنة. ويمكن أن نعدّد أمثلةً كثيرةً عن الأسباب التي تدفع الفرد للسير في هذا الطريق؛ كارتكابه للخطيئة، أو وقوعه في حرجٍ حياتي ويريد أن يتوب. وهذه الطرق الإنسانية هي ظاهريّةٌ فقط، ويقابلها سببٌ واحدٌ يعرفه الله في نفس الشخص الذي اختار الرهبنة طريقاً لـه، ونحن لا نعرفه. ومن هنا يمكننا أن نجد عند قديسنا أسباباً عديدةً تمنع أيّ مسيحيٍ إلى دخول الدير، ومن أهمّها:

1- أن يكون راغباً في سلوك الطريق الرهبانيّة لازدرائه بالحياة البشريّة عند سائر الناس.

2- أن يكون سبب سلوك هذا الطريق هو الخوف من جهنم، وذلك استجابةً لما شاع في تاريخ المسيحية من أن الحياة الرهبانية تُعتق أصحابها من الدينونة. فيقول القديس كاشفاً جوهر الرهبنة: (حياة التوحد توحدنا بالله، وهذا هو سبب سلوك هذا الطريق وليس الخوف من النار). ويضرب القديس مثالاً موضِّحاً ذلك من خلال حوارٍ بين علماني اقمم راهباً بأنه مراءٍ، لأنّ دافعه للحياة الرهبانية هو الخوف من

العقاب النهائي. فيجيبه الراهب قائلاً: (ليس الخوف من النار هو سبب ذهابنا إلى الدير، بل إننا نريد أن نختبر الفرح في داخلنا، ونشارك الآخرين به).

3- أن الراهب لا يدخل الدير طمعاً بالحياة الأبدية. يقول قديسنا: (إننا لا ندخل الدير لكي نصبح أشخاصاً فاضلين، فنحن الرهبان المتوحدين لم نعش وراء باب القلاية لننمّي الفضيلة في داخلنا، بل لنصبح أمواتاً حتى بالنسبة للفضيلة، لأن الأحياء هم من ينمّون الفضيلة فقط). وبذلك يكشف قديسنا عن رؤيته لجوهر النشاط الرهباني، حين يرى أن الراهب لا يستطيع أن يكون راهباً في دير إذا كان إنساناً جباراً يعيش حياةً بطولية، بل حين يعيش حياته لينمّي شراكته مع الله.

وهكذا يتضح لنا من خلال هذه الأسباب الثلاثة المانعة، أن القديس إسحق يحدد هدف الحياة الرهبانية بأنها إقامة حياة شركةٍ مع الله. ويستشهد على ذلك بجواب الرهبان لإخوتهم المسيحيين خارج الدير: (عندما نقوم بجميع نشاطات حياتنا، فنحن لا نعملها خوفاً من جهنم، ولا طمعاً بالحياة الأبدية، بل لنحيا حياة شركةٍ مع الله). ويضيف قديسنا مؤيّداً هذا الكشف بأن الخطر في حياة الراهب هو أن تتحوّل علاقته بالله، من علاقةٍ بين أبٍ وابنه إلى علاقة عبوديّة.

يتساءل القديس إسحق السرياني حول كيفية ظهور الراهب أمام الآخرين، وما هي صورته التي يتقدم بها إليهم؟ يعلن قديسنا في عرضه، انسجاماً مع أفكاره، أن الراهب يجب أن يقدم للناس محبة الله، ولهذا لا

يجوز أن يُظهِر أمامهم استفزازاً يُنفّرهم من المحبة كأصلٍ تنبثق منه كامل أعماله. ولهذا لا يقبل القديس إسحق أن يظهر الراهب في صورة البربري، بسبب طريقة العيش التي يعيشها في توحّده. والراهب إذا ما ظهر بصورةٍ كهذه، يَعرضُ الصورة المتطرفة للرهبنة، فيصبح راهباً أمام الناس، بينما هو مطالبٌ بأن يكون راهباً أمام الله. ولتجنب ذلك على الراهب أن يكون في أعين من حوله معطياً للأمل، ومُجسِّداً للمحبة التامة حتى محبة الحياة. ومن هذه الصورة يشعُ عالم الراهب الداخلي نحو الآخرين. ويظهرُ من خلال ذلك أمام الجميع أن الإيمان الذي يحمله هو إيمان رجاءٍ ومحبة، وهذا ما يجعل أعداء الحقيقة يتبينون أن مثل هذا الراهب إنما يحمل الإيمان الحقيقي. وهكذا يعرض قديسنا حياة الرهبنة على أنها حبٌ للجمال، وليست حياة موحشة بسبب عزلة صاحبها. وهكذا يكشف القديس إسحق السرياني فرقاً دقيقاً جداً بين حياة التوحد وبين حالة الانعزال. فالراهب يستطيع عيش حياة التوحد دون أن يتزلق إلى حالة الانعزال، وذلك من خلال عيشه في شركةٍ وعلاقةٍ مع الآخرين. وعليه ألا يزدري الآخرين حتى يُريهم أنه يشجعهم على عيش الحياة وهو يعيش وحدته.

يقول القديس إسحق، إن حاجة الراهب أحياناً أن يغلق باب قلايته على نفسه وأن يمتنع عن الاتصال بالآخرين، يجب ألا تؤدي به إلى نزع المحبة من قلبه للآخرين. وذلك لأن حياة الرهبنة بكلّ أنماطها إنما هي سعيٌ للوصول إلى محبة الخليقة، من خلال تجذير محبة الله. ولهذا

يضيف قديسنا بأن الراهب الذي ينفرد بقلايته ويمتنع عن التواصل مع الناس، ويفقد بسلوكه هذا المحبة، إنما يصبح كالبذرة التي تُلقى على الصخر فلا تنبت. وهنا يؤكد القديس أنّه لتفادي الوصول إلى النتيجة السابقة، فإن على الراهب أن يدخل في حياة شركةٍ مع الآخرين، وهو ما يشكل المناخ الذي تنبت فيه بذرة المحبة في قلبه.

✠ الكتاب المقدس وعلاقته بالصلاة في فكر القديس إسحق

حضور الكتاب المقدس يكاد لا يغيب في فكر القديس إسحق السرياني. ويؤكد هذا الأمر ما ذكرناه في سيرته من أنه فقد بصره بسبب القراءة المستمرة للكتاب المقدس. وكثيراً ما يستشهد في نسكياته وأقواله بمقاطع من الكتاب المقدس، وخاصةً المقاطع التي تحتمل الالتباس والفهم الخاطئ من الآخرين. وخير مثالٍ نقدمه لذلك، هو كلام قديسنا حول الرحمة الإلهية، وهو موضوعٌ قد أوجد لقديسنا مشكلةً مع معاصريه كما ذكرنا. إن أدلة قديسنا على صحة رأيه عن المحبة، إنما جاءت من تفسيره لآيات الكتاب المقدس بمعقوليةٍ تُقنع الآخر. وبذلك ينكشف بدراستنا هذه أن الكتاب المقدس هو أحد المواقع التي يُظهر الله نفسه فيه.

فهو يؤكد أن الله يُظهر نفسه من خلال كافة خلائقه وبالأخص الإنسان، مؤكّداً أن الكتاب الأول الذي وهبه الله للناس هو الخليقة نفسها. ولكنّ خطيئة الإنسان أوجدت الضرورة لموقعٍ جديدٍ فيه يُظهر الله نفسه للإنسان. يقول القديس إسحق في أحد المقاطع: (إن أوّل

كتابٍ أظهر الله فيه نفسه هو الخليقة، ولكنّه زاد الكتاب المقدّس عليها بسبب خطيئة الإنسان)، وهذا يعني أنّه لولا خطيئة الإنسان، لكانت الخليقة كصورةٍ لله كافية. ولكنّنا حين أخطأنا صرنا بحاجةٍ إلى صورة الله في الكتاب المقدس، وهو ما يُشكّل الغذاء اليومي للراهب المسيحيّ.

لابد من التنويه أن القديس إسحق يُكثر من استخدام صورة الغذاء كما تقدم في العبارة السابقة (الكتاب المقدس هو غذاء الراهب المسيحي)، ويستخدمها بصيغٍ أخرى فيقول: (المسيحي والراهب خصوصاً لا يستطيع أن يعيش دون دراسة الكتاب المقدس). وقد أوصت قواعد الرهبانية السريانية وأكّدت أن الراهب الذي لا يعرف القراءة يجب عليه أن يتعلّمها لتكتمل شروط رهبنته. وهذا ما أدّى إلى وجود مدارس في الأديار السريانية تُدرِّس رهبانها علوماً متقدمة. ومع ذلك فقد دعت أدبيات الرهبنة السريانية ألا تكون دراسة الراهب دراسة نظرية، لأنه لا يسعى للحصول على المعرفة من أجل المعرفة، بل هو يجُدُّ في تحصيلها لإغناء الحياة الروحية حسب الروح القدس. ويوضح قديسنا ذلك بقوله، إنّه عندما نقرأ الكتاب المقدس فعلينا أن نتعلّم قدرة تفسيره، لأنّ للكتاب المقدس وجهاً خارجياً وآخراً داخلياً. فالكلمات والجمل هي وجهه الخارجي، بينما مضمونه والفكر الذي يدل عليه، هما وجهه الداخليّ، وعلى الراهب أن يتبحّر في البحث عنها. وهكذا يطلق قديسنا على الوجه الداخلي تسميات وتعابير تدل على جوهرها، كالعذوبة والنور والجمال والسّر. ومن هنا يجب أن تكون قراءة الراهب

للكتاب المقدس اجتيازاً للوجه الخارجي الذي يُشكل سطحه، والنفاذ إلى الوجه الداخلي الذي يشكل جوهره. ويستنتج قديسنا أن طريقة قراءة الكتاب المقدس تجعل من يكتفون بالتعامل مع الوجه الخارجي (الكلمات والجمل) سطحيين في حياتهم.

هذا الرأي قد وُجِد عند كاتبٍ آخر في عصر قديسنا هو داديشوع القطري[31]. حيث يذهب إلى أن هنالك ثلاثة مستوياتٍ لقراءة الكتاب المقدس: فهناك قراءةٌ روحية، وقراءةٌ تاريخية، وأخرى قراءةٌ وعظية. ويؤكد داديشوع أن مستويات القراءة مهمة كلها، ولكن جوهرها الذي يجب التوصل إليه هو القراءة الروحية. لأن القراءة الروحية هي قراءة الذي يصلي الكتاب المقدس. وأما القراءة التاريخية فهي قراءة من يدرس الكتاب المقدس بشكلٍ تاريخي، وتكون القراءة الوعظية قراءة الذي يفسر الكتاب المقدس للآخرين.

يعرض القديس إسحق صورةً للذي يقرأ الكتاب المقدس روحياً، فيصفه بالذي يغطس في عمق المعنى الكتابي. وهكذا تشيع في كتاباتٍ كثيرةٍ له صور الغطس والصيد. وهو ما يمكن أن نراه من تأثير البيئة في قديسنا، لأنه عاش في منطقة الخليج حيث اشتهر صيد اللؤلؤ. وقد طبّق حال الغطاس على الراهب، ورأى أن كلاً منهما يسعى إلى صيد لؤلؤٍ مختلف. فالراهب كالغطاس، يُولَد في هذه الحياة عارياً.

قراءة الكتاب المقدس عند قديسنا هي الطريق للتكلم باللاهوت،

25- مؤلفٌ سريانيٌ شرقيٌ، عاش في نهاية القرن السابع.

ولاكتشاف وجه الله في الكتاب المقدس حيث يُظهر الله نفسه. وينبه القديس في كلماته الآخرين خلال قراءتهم الروحية بأن عليهم أن ينتبهوا لئلا يشوهوا وجه الله، لأن الكلمات التي تتكلم عن الله قاصرة، وذلك لأنها كلماتٌ بشرية، وبتجسيدها تكون ضعيفة. لذا يجب ألا نقرأها حرفياً كما نقرأ كلام البشر، بل يجب علينا أن نفسرها. وإذا ما قرأنا هذه الكلمات كحروفٍ كما نقرأ كلام البشر، فنحن بذلك نشوه وجه الله.

يُعطي قديسنا أمثلةً متعددةً لهذا التحذير. فالكتاب عندما يُظهر لنا أن الله منزعجٌ، ومنتقمٌ وإلى غير ذلك، يعني برأي القديس لا يمكن أنْ يُفهم ذلك كما نفهم الكلمات البشرية، لأننا بذلك نكون قد شوهنا وجه الله. الله غير راغبٍ بالانتقام والانزعاج، وهذا ما يوجب علينا معرفة تفسير ذلك، منطلقين في تفسيرنا من صليب المسيح. وهكذا يتوصل قديسنا إلى أنّ مفتاح قراءة الكتاب المقدس هو صليب المسيح، وهو مفتاح قراءة الكتاب عند القديس أفرام السرياني كذلك. وهكذا فإنّه من الواجب علينا أن يكون صليب المسيح مفتاحنا لكلّ صفحةٍ نقرأُها من صفحات الكتاب المقدس. فصليب المسيح بالنسبة للقديس إسحق السرياني هو الحدث الذي أظهر الله من خلاله محبته لنا.

هناك نصٌّ للقديس إسحق يتساءل فيه: (لماذا مات المسيح على الصليب؟) ويعرض قديسنا الجواب المعروف بأنه أراد أن يخلصنا من الخطيئة، وينزع آثارها من العالم. ولا يتوقف القديس عند هذا الجواب

التقليديّ، بل يضيف عليه بأنّ الله كان بإمكانه أن يحقّق هدفه هذا دون أن يميت ابنه على الصليب. ويتوصّل القديس إلى أنّ هذه الطريقة التي تمّ بها الحدث الخلاصيّ إنما تقصد في المقام الأول أن يعلّمنا الله بها كم كان يُحبنا، ويُظهر مدى هذه المحبة لنا. وهذا ما يسمح لقديسنا أن يعرض استنتاجه بأنّه علينا كلما قرأنا الكتاب المقدس، أن نقارن ما نقرأُه بصورة المسيح المصلوب، وبذلك نمتلك المفتاح المطلوب لفهم الكتاب كله.

وحين يُفَصِّل القديس إسحق خصائص القراءة الروحية، يُظهر لنا أن هنالك ثلاثة شروطٍ يجب أن تتخللها مسبقاً:

أولها: الإيمان، إذ بدونه لا توجد قراءةٌ مسيحيةٌ للكتاب المقدس في رأي قديسنا. فيؤكد على هذه الفكرة بقوله: إن قراءة الكتاب المقدس دون الإيمان، هي قراءةٌ فكريةٌ دراسيةٌ لا تمت بصلةٍ إلى القراءة المسيحية التي تسعى أن تكون روحية. وهو يُظهر دور الإيمان في القراءة المسيحية، فيرى أننا بفضله نستطيع أن نستنشق ونتذوق ونرتشف عذوبة الكتاب المقدس، عذوبة الروح القدس فيه.

وثانيها: الصمت، وهو ما يستتبع أن نكون هادئين.

وثالثها: جوّ الصلاة. حيث نتبين من قراءة نصوص قديسنا أن الصلاة بالنسبة إليه هي الروح، وأن موقف الصلاة الشخصي هو الحالة التي تكون فيها لكي تقرأ الكتاب المقدس. وهو بذلك يكشف أن بين القراءة والصلاة نوعاً من العلاقة الجدلية. فلكي تقرأ الكتاب المقدس يجب أن تكون في وضعية صلاة، وهو ما يُعبر عنه القديس بأن الصلاة

هي المفتاح الذي ندخل به إلى قراءة الكتاب المقدس. وهذا وجهٌ من وجوه العلاقة الجدلية. وأما الوجه الثاني لهذه العلاقة فيظهر في أن قراءتنا للكتاب المقدس تؤدي إلى الصلاة. وهكذا تبدو الجدلية أمامنا، فدون الصلاة لا نستطيع أن نقرأ في الكتاب المقدس، وبالضرورة لا نستطيع أن نصلي دون الكتاب المقدس. وهذا الاستنتاج لم يكن فكراً نظرياً عند قديسنا، بل قد طبقه عملياً، وذلك حين أخبره أحدهم بأنه لا يقدر أن يصلي، فأجابه القديس: لأنك لم تقرأ الكتاب المقدس.

هذه العلاقة بين الصلاة وقراءة الكتاب المقدس هي محل تأكيد أقوال القديس، حيث يرى أن قراءة الكتاب المقدس تصبح مادة الصلاة، فتتحول قراءتك للكتاب المقدس في الصلاة إصغاءً إلى ما يريد الله أن يقوله لك في نصوص الكتاب المقدس. وفي سبيل عرض قديسنا لهذا التأكيد يستعمل صوراً يستعين بها ليشرح مفهوم الصلاة. ومن خلال النصوص المنقولة عنه، نجد أن هناك صورةً يحبها كثيراً، ولا يقصِّر في استخدامها. وهي صورة الإنسان المقبل على الصلاة من خلال تفريغ نفسه وذاته من خلال توجهه إلى الله.

فالمصلي عند القديس إسحق لا يملأ ذاته بأشياء يريد قولها لله، بل إن المصلي الحقيقي في رأيه هو الذي يُفرِغ ذاته لكي يستقبل ما يقوله الله له. ولهذا فالصلاة عنده ليست هي كلماتٌ يحضِّرها المصلي ليقولها لله، بل هي في أن يحضِّر نفسه لما سيقوله الله له. ويختصر هذا كله في قولٍ آخر يحاول أن يُعرِّف الصلاة فيه فيقول: (الصلاة هي إفراغ الذهن

من كلِّ شيء، وتوجيه القلب نحو الله).

ليست هذه الصورة الوحيدة التي يعرض بها قديسنا رؤيته للصلاة، بل إنه يستخدم كذلك صورة الغطس في البحر، كما في هذا القول: (أن نصلي أي أن نغطس في البحر لكي نذهب ونبحث عن اللؤلؤ. والغطاس يغطس عدة مراتٍ ليجد اللؤلؤة، ونجاحه في هدفه محكومٌ بنسبة (1/10). والذي يصلي محكومٌ بالنسبة ذاتها (1/10) لتعطي صلاته نتائجها ويختبر الفرح)، مما يعني أن الصلاة تتطلب جهداً متواصلاً وكبيراً. وتؤكد أقوال الآباء ما قاله قديسنا، فيقولون: (إن كلَّ الجهادات النسكية سهلة عدا الصلاة، فهي جهادٌ يواكبنا حتى نهاية حياتنا). ولذلك يطلب القديس من الرهبان المبتدئين أن يقيموا الصلاة المطلوبة، حتى إن اتسمت بالترداد ويحذّرهم من الاستسلام للتعب من تردادها.

ولأهمية موضوع الصلاة بالنسبة لحياة المسيحي فإن القديس إسحق ينبّه إلى أمرين:

أولهما: أن قيمة الصلاة لا تحصل من كميتها وطول خدمتها، ولكن قيمتها تتحقق حين نتمكن من أن نفهم مفتاح كلمةٍ من الكلمات التي نُصليها في مكانٍ ووقتٍ معينين. وهكذا تبدو خدمة الصلاة على طولها تدور حول كلمةٍ تستوقفك وتصبح صلاة. ويخلص القديس إلى ضرورة ترتيب الصلاة، وهذا الترتيب ليس هو الأمر الجوهري فيها، ولكنه وسيلةٌ للوصول إلى الصلاة الحقيقية.

ثانيهما: يحذر القديس المصلي قائلاً: (لا تكن كسولاً بسبب طول الخدمة، وطول الصلاة أو الترداد المتعدد فيها. كن متيقظاً إلى أن ما تفكر فيه خلال الصلاة هو ثمرها). ويشدد في أقوالٍ أخرى على أن تكون الحركات الجسدية والسجدات في الصلاة كثيرة. ويكشف سبب ذلك في أحد النصوص قائلاً: (إنّ أفضل صلاةٍ نؤدّيها، عندما يكون ذهننا مشتتاً هي الصلاة، التي تكثر فيها السجدات، لأنه حين تسجد وأنت مشتت الذهن وتستمر في ذلك، فإن جسدك بتعبه، ينبّه ذهنك إلى أن يتخلص من تشتته ويتوجه نحو الله).

يمكننا أن نستخلص من فكر قديسنا رؤيته لثلاثة مستويات للصلاة:

1- المستوى الابتدائي.

2- الصلاة النقية.

3- اللاصلاة.

ويُحدد المستوى الأول بأن الصلاة مطلوبةٌ منا، وهي طقسٌ ورتبةٌ، نحن مجبرون على تأديتها، ونحس بثقلها، وبأننا نقف أمام الله لأن هذا مطلوبٌ منا. لذلك فنحن لا نشعر بأيّ شكلٍ من أشكال الفرح أثناءها. ويذكر القديس أن في هذا المستوى من الصلاة يمكن أحياناً للمصلي أن يصبح فرحاً. وعندها ندخل إلى مستوى الصلاة النقية، ونذوق فرحها، ولكن بالرغم من ذلك نحس بثقل الصلاة. وأما المستوى الثالث وهو الذي يسميه "باللاصلاة"، مُطلِقاً هذا المصطلح على هذا المستوى، رافضاً التسمية التي أُطلقت من قبل من سبقوه أو عاصروه من الكُتّاب

عليها، وهي "الصلاة الروحية". ويرفض قديسنا هذه التسمية لأنها لا توفي المستوى الثالث حقه، فهو لا ينكر وجود الصلاة الروحية، بل يريد أن يوضح أن المصلي في هذا المستوى هو الروح القدس الساكن فينا، وليس نحن من نقوم بها. ويؤكد قديسنا في شرح هذا المستوى بأن الإنسان يتحول إلى هيكلٍ للروح القدس، حيث يُقيم الله فيه ليتورجيته. ولذلك فإن كلَّ ما يجري في مثل هذه الصلاة لا يكون فعلاً للإنسان، بل يكون الروح القدس هو الذي يعمل كلَّ شيء. لذلك فهذا المستوى من الصلاة هو صلاةٌ روحية. ولكن قديسنا يسميها "اللاصلاة"، لأنه يعتبر أن الإنسان لا يعمل شيئاً خلالها.

في ما يختصّ بمفهوم الصلاة الروحيّة، ينتقد القدّيس إسحق من كانوا يُسمَّون بـ "المُصلّين messaliens". وهم من كانوا يعتقدون أنهم يستطيعون أن يُصلّوا بطريقةٍ روحيةٍ بجهودهم الخاصة، وليس بنعمةٍ من الله. وذلك لأنهم يؤكدون على دورهم حين يُقيمون الصلاة الروحية. بينما يرى قدّيسنا من خلال خبرته أنّ هذه الصلاة ليست من عمل الإنسان وجهده، بل هي هبةٌ من الله، وعطيةٌ من الروح القدس.

لدينا نصٌّ منقولٌ عن قديسنا يعرض لنا هذه المستويات الثلاثة فيقول: (هناك لحظاتٌ في الصلاة تكون فيها الكلمات عذبة. ونكرر ونردد هذه الكلمات لعذوبتها دون أن نعرف أن هناك مستوى للصلاة أعلى من المستوى الذي نحن فيه. في مثل هذه الفترة يكون المستوى الأول، وفي فترةٍ أخرى من صلاتنا يتشكل المستوى الثاني. ففي منتصف

الصلاة يسيطر علينا تأملٌ يقطع ترديـــدنا لتلـــك الكلمـــات ولتلـــك الصلوات. وفي تأدية هذا المستوى يكون ما تزال الصلاة هناك، ويكون جوهر هذا التأمل أن تفقه شيئاً ما في الصلاة، وليس أن ترى أجراً مـــا. وبعد ذلك يتم الانتقال إلى المستوى الثالث حيث يصبح ما يؤديه المصلي لا صلاة. وفي هذه الفترة يتم الدخول إلى حجرة الكنز، وهناك تصمت الألسنة وتكف عن الكلام، وتصبح الحواس كلها في سكونٍ وهـــدوء، ويفقد الفكر هنا أيّ رغبةٍ. فلا يعود لديـــه دمـــوع، ولا ســـلطة، ولا تضرع، ولا رغبات أو رجاء في أن يحصل علـــى شـــيءٍ في الـــدنيا أو الآخرة. في هذه اللحظات تنتهي الصلاة بكلّ أشكالها المعروفة ويحـــل الدهش. لا تعود هناك صلاة، بل يكون هناك تعجبٌ وانبـــهارٌ أمـــام عظمة الله).

من فهمِ القديس لمستوى اللاصلاة هذا، يتوصل إلى أنّه علينـــا أن نصلي ونصلي فقط. وعلى السؤال الذي يقول: كيف لنـــا أن نصـــلي دائماً إذا كان علينا أن نأكل ونشرب، وندرس ونفكر؟! يجيب قائلاً إن هذا ممكن إذا كان الروح القدس هو الذي يصلي فينا. ويشرح لنا كيف يمكن أن نمارس ذلك، فيذكّرنا أن الروح القدس حين يسكن في الإنسان الذي يأكل ويشرب ويدرس ويفكر، فإنه (أي الروح) لا يتوقف عـــن الصلاة أبداً. فعلينا إذن، حتى يكون الإنسان في صلاةٍ دائمةٍ لا تنقطع، أن يبذل أقصى جهده في أن يتذكر دوماً أن الروح القدس يصلي فيـــه. يقول القديس عارضاً ذلك، إنّه بينما أنت تعمل تذكرْ أن الروح القدس

يصلي فيك، فأنت بذلك تصلي فعلاً.

يستعمل قديسنا صورة صلاة الروح القدس حين نكون في مستوى اللاصلاة، فهو يعتمد على ما أورده الإنجيلي لوقا حين يعلن الملاك لوالدة الله: "أنّ الروح القدس يحلُّ عليك وقوة العلي تظللك" (لو35:1). فالروح القدس يلد الإنسان باستمرار بإدخاله إلى الحياة الروحية.

يثير القديس إسحق السرياني إشكاليةً خاصةً بالصلاة، تظهر أنها ناشئةٌ من تناقضٍ في الكتاب المقدس. فهو يورد النص حيث يقول السيد المسيح أنه يجب ألا نطلب شيئاً من الآب، لأنه يعرف مسبقاً ما نحن بحاجةٍ إليه. والأمر الآخر أنه عندما طلب التلاميذ منه أن يعلمهم أن يصلّوا، علمهم صلاةً مملوءةً بالطلبات "أبانا الذي في السماوات...". هنا يصوغ القديس الإشكالية في سؤالٍ: إن كان الله يعرف ما نحن بحاجةٍ إليه، لماذا يعلّمنا أن نطلب؟

يخصص قديسنا عظتين من مجموعته الثالثة حول ما أسماه بالصلاة الربيَّة، ويفسرها بقوله: أن الصلاة الربيَّة هي مدرسةٌ قبل كلِّ شيء، هي تعليمٌ عن الحياة. حين نؤديها كصلاةٍ يكون عملنا معلوماً عند الله مسبقاً. فصلاة الطلبات (الربيّة) أمرٌ لا يحتاجه الله نفسه، بل أنا الذي احتاجه. والدليل على ذلك أنه في الحياة الآخرة لا يبقى هناك حاجةٌ لأن نطلب شيئاً، ولذلك فالطلبات أمرٌ نحتاجه في هذه الحياة الحاضرة. أما هناك فلا يبقى حاجةٌ للصلاة بمعنى الطلبات، لأننا في شركةٍ تقوم مع الله من خلال وجوده بيننا. ويعلل القديس سبب إقامتنا لصلاة الطلبات

(الربيَّة) بالرغم من أنّ الله يعرف كلَّ شيء، ويجيب على التساؤل بشرح الفائدة المرتجاة منها فيقول: (بأنني حين أتلو الصلاة الربيَّة "الطلبات" تتشكل فرصةٌ ذهبيةٌ لأتطهر، وذلك من خلال فحوى هذه الكلمات في داخلي، لأنني أحصر حاجتي بالخبز اليومي، وبغفران خطاياي).

تذكرُ الصلاة الربيَّة أنّي لست بحاجةٍ إلى أي أمرٍ آخر غير ما أطلبه، كالفن والنجاح. فأنا بحاجةٍ إلى الخبز لأحيا مادياً، وإلى غفران خطاياي لتكتمل حياتي الروحية. ولهذا فإن الأمر الأول الذي تعلّمنا إياه الصلاة الربيَّة هو أن نُظهر ذواتنا محددةً بهذين الأمرين.

وتعلمنا الصلاة الربيَّة أمراً ثانياً، فهي تُذكّرنا أن كلَّ ما نملكه إنما هو عطاءٌ من الله. فعندما نصلي: "أعطنا خبزنا اليومي" فكأننا نقول إن هذا الخبز الذي نأكله هو عطاءٌ من الله، وليس بفضل عملنا وجهدنا.

أمرٌ ثالثٌ تعلّمنا إياه الصلاة الربيَّة، وهو أن نتجاوز حاجاتنا اليومية - وهي كثيرةٌ جداً - فنصلي قائلين: "ليأتِ ملكوتك ولتكن مشيئتك".

ما نتعلمه من هذه الطلبات هو أن نتيقن أن كلَّ ما نحياه على الأرض يجب أن يكون هادفاً للأمور السماوية.

فنكتشف أن الصلاة الربية عند القديس إسحق ليست اقتراحاً لطلباتٍ نريدها من الله، بل تعليم هذه الأمور الثلاثة لنا. ففي كلِّ مرةٍ أصلّي فيها: " أبانا الذي... " يجب أن أتعلم ما يلي:

1- أن حاجتي في هذه الحياة تتحدد بالخبز ومغفرة الخطايا فقط.

2- كلّ الأمور تأتي من عند الله.

3- كلّ ما نحياه له بعدٌ ملكوتي أخروي.

الصلاة بالنسبة لقديسنا هي مناسبةٌ لكي ننمو في الحياة بحسب الروح القدس، ولنحصل على فرصةٍ للاهتداء. ولهذا فالصلاة عنده لا تكون غنية حين نُكثر من الطلبات لإرضاء رغباتنا، ونحاول أن نُقنع الله بها. ولكن الصلاة الحقيقية هي أن نقبل مشيئة الله بالنسبة لنا، ويضرب القديس مثالاً على ذلك من خلال ما حصل ليسوع المسيح في الجثسيمانية (مت26:26-46). فيسوع طلب في البستان "أن تعبر عنه هذه الكأس" وفي نهاية صلاته قال: "فلتكن مشيئتك لا مشيئتي أنا". وهذا فحوى ما هو موجود في "أبانا الذي..." الصلاة الربيَّة. وهكذا يتحقق هدف الصلاة لا لأن الله قد بدَّل إرادته في الصلاة، بل لأننا نحن قبلنا أن نبدِّل ذهننا. وبذلك تكون هذه الصلاة مناسبةً للتوبة، وموجهةً لحياتنا نحو الله.

خامساً: في الأنثروبولوجيا الروحية

رؤية القديس إسحق للإنسان، وعلاقته بالجهاد الروحي

في ما يتعلق بدراسة الناحية الأنثروبولوجية في فكر القديس إسحق، نجد أنه يستعمل نموذجين أنثروبولوجيين حول الإنسان.

الأول منهما يُحَلل الإنسان فيه إلى مكوناته:

1- الجسد 2- النفس 3- الروح.

هذا الفهم للإنسان على أنه مؤلفٌ من جسدٍ ونفسٍ وروح، مذكورٌ في العهد الجديد في الرسالة إلى أهل تسالونيك (1تس5:23). ولهذا فقد تداول الآباء قبل القديس إسحق هذه الفكرة، إضافةً إلى ورودها عند أفاغريوس البنطي، ويوحنا المتوحد (يوحنا أفاميا)[32]. ومن هذا الفهم للإنسان يقول قديسنا: إذا كان كيان الإنسان ينقسم إلى ثلاثة أقسام، فإننا نستطيع أن نُقسم حياة الإنسان الروحية إلى ثلاث مراحل، هي:

1- الطفولة 2- المرحلة الوسطى 3- النضوج أو الكمال.

المرحلة الأولى تتسم بالخوف من الله. أعمال المسيحي عامةً في هذه المرحلة، والراهب بشكلٍ خاص، تتم تحت وطأة الخوف من الله. وأما في المرحلة الثانية فيخالط خوف المرحلة الأولى شيءٌ من السعادة والفرح مع الله خلال تأدية العمل. وفي المرحلة الثالثة عندما يشعر الإنسان أنه قد وصل إلى شراكةٍ مع الله، يتملكه إحساس أنه صار ابناً له. إن هذه المراحل هي النموذج نفسه الذي كان في حياة الصلاة. ففي المرحلة الأولى عملٌ وخوف، وفي الثانية يتطور العمل ليوجِد فرحاً مع الخوف، وهو ما يكسبنا الحرية والبنوة في المرحلة الثالثة.

أما النموذج **الثاني** الأنثروبولوجي عند قديسنا، فإن منظور الإنسان يظهر في فكره مكوَّناً من كائنٍ داخلي (خفيٌ وغير منظور) وآخر

32- هو راهبٌ من القرن الخامس. لا نعرف شيئاً عن حياته. إن النقطة الأساسية في تعليمه هي تقسيم الحياة الروحية إلى ثلاث درجات في علاقات الإنسان مع الله. وهي الجسدية والنفسية والروحية.

خارجي (منظور ومشاهد). وقد انصب جهد القديس، الذي سعى فيه إلى معرفة الإنسان ليرسم له طريق حياته الروحية، على أن يجد سبيلاً لجمع هذين القسمين اللذين يكوّنان الإنسان. ومن خلال تحليل كلّ ما قاله القديس في هذا القسم، فإنه لا يرى أن هذين الجزأين متناقضان، وأن أياً منهما لا يسعى إلى إلغاء الآخر. لهذا يقرر القديس أن هدف جهد الإنسان وغاية عمله في حياته هما أن يُصلح هذين الجزأين، وأن يعزز التناغم بينهما. يقول القديس: (أوجدْ التناغم بين روحك وجسدك ونفسك، تجد أن الخليقة كلها قد صارت في تناغمٍ معك). وإذا ما أردنا شرح قول القديس نقول: إنه عندما نسعى أن نكون في سلامٍ مع الآخر ومع الخليقة (سلام خارجي)، فهذا يستدعي منّا خطوةً سابقة، ألا وهي تحقيق سلامنا الداخلي. فإذا كنتُ في سلامٍ داخلي أستطيع أن أكون في سلامٍ مع الآخرين. ومثل هذا الهدف (السلام الداخلي) يحتاج إلى جميع أجزاء الإنسان.

كثيراً ما نقع في الأدب النسكي على نصوصٍ تزدري الأمور الجسدية. أما عند القديس إسحق فنجد أن الجسد يجب ألا يُلغى ولا يُزدرى به، بل يجب أن يدخل في تناغمٍ مع القسمين الآخرَين.

انطلاقاً من ثنائية الإنسان التي أعلنها بأنه كائنٌ داخلي وكائنٌ خارجي، يحاول القديس إسحق أن يفهم ما يدور في داخل الإنسان، من حيث أنه كائنٌ غير منظور. فيرى أن في داخل الإنسان مساحةً للروح القدس مخصصة له. ومن هذه الرؤية يحدد القديس الخطوة الأولى

لكلِّ إنسانٍ، وهو أن يحاول معرفة ذاته. يقول الكاتب العربي ابن السلط نقلاً عن قديسنا: (الإنسان الذي لا يعرف نفسه هو إنسانٌ تائه). ويقول أيضاً: (الإنسان الذي يعرف نفسه يمكن أن ينهض). في منظور القديس كلُّ طريقٍ روحيٍ تبدأ بإقامة مصالحةٍ بين الإنسان وذاته. أي يجب عليه أن يعرف نفسه، وماذا يشكل في الحياة البشرية. وانطلاقاً من التقليد الآبائي القديم، يرى القديس إسحق في الإنسان أنه – وقبل كلِّ شيءٍ – مطرحٌ لحضور الروح القدس. وبذلك يتضح أن لديه رؤيةً إيجابيةً للخليقة كلّها، وهي (أي الخليقة) بالنسبة له عملٌ إيجابي من الله، وليس عمل شرٍ. وبهذه النظرة الإيجابية يقف قديسنا ضد النظرة الثنائية للخليقة.

تظهر هذه الايجابية في كامل عمله الفكري، الذي يؤكد أن كلَّ عضوٍ من الإنسان هو صورة الله. حتى إنه يذهب بفكره إلى أبعد من ذلك، حيث يستعمل نصاً من الإنجيل "ملكوت الله في داخلكم" (لو17:5) مُظْهِراً احتفاءه به، ومُكثِراً من استخدامه، للتأكيد على شرحه من أن ملكوت الله داخل الإنسان وليس خارجه. ويستنبط من فهمه لهذه الآية، أن الحياة الروحية النسكية هي جهدٌ متواصلٌ لكي نكتشف هذه الحقيقة، والتي هي إعادة اكتشاف حقيقة الله في الإنسان. يقول القديس إسحق: (إنّ الحياة الروحية ليست عملاً من خارج الإنسان، بل هي الذهاب إلى قلب الإنسان نفسه. وهذا ليس هروباً من الخليقة، بل هو غوصٌ في عمقها). ويقول كذلك: (اجتهدْ أن تدخل إلى حُجرة

الكنز الداخلية التي فيك، وهناك تجد تلك الكنوز التي في السماء. هذه وتلك هما واحدة. وعبر بابٍ واحدٍ تراهما معاً. السلم الذي يقود إلى الملكوت مخبوءٌ فيك، في روحك. اغطس في ذاتك بعيداً عن الخطيئة، وهناك ستجد الدرجات لكي تصعد). هذا النص يساهم في توحيد فهمنا لنظرة القديس إسحق للإنسان، فلكي نصعد نحو الله يجب علينا أن نتزل إلى أعماقنا. وفي التزول إلى داخل الإنسان، إلى قلبه، يجد الملكوت الذي يسعى إليه.

اعتماداً على ما قدمناه نستطيع أن نقول إن القديس إسحق يرى أن في داخل الإنسان الظاهر لنا إنساناً آخر، وهو ما يسميه الإنسان الداخلي. وكما هو الخارجي الذي نعرفه بكلّ أعضائه وحواسه، فإن الإنسان الداخلي يمتلك عيوناً وآذاناً، ولديه كامل حواس الإنسان الخارجي. إنه إنسانٌ آخر يعيش داخل الإنسان الذي نشاهده ظاهراً لنا، ويرى القديس أن علينا أن نتعرف عليه. وإلى هذا الإنسان الداخلي يعيد القديسُ الدموعَ التي نذرفها في الصلاة، ويراها تعبيراً عن شعور الإنسان الداخلي فينا. وهكذا هي الدموع في نظر قديسنا، إنها فيضٌ من الإنسان الداخلي على الإنسان الخارجي. وفي الإنسان الداخلي نجد الروح القدس، حيث نستطيع أن نشعر بوجود الله. ويؤكد أسقف منبج فيلوكسانوس[33] – وهو سابقٌ تاريخياً للقديس إسحق – هذا المعنى بقوله:

33- وُلد في طحال في العراق، نحو أواسط القرن الخامس، وفي العام 485م أصبح أسقفاً لمنبج على الفرات، وبعد أن قاوم النساطرة عارض فلافيانوس سنة 449م في القسطنطينية، توفي في المنفى عام 523م، بعد 33 عاماً من الخدمة الأسقفية.

(الروح القدس يصبح روح روحنا، وهو يسكن في عمق أعماقنا، ويصبح بالنسبة لنا أكثر الأمور حميمية).

تدلّ عظات القديس إسحق أنّه يعي أنّ الإنسان ليس مسكوناً بالروح القدس فقط، بل يوجد إلى جانب الروح شيءٌ آخر سلبي. ويشدّد القديس إسحق على ضرورة معرفة هذا العنصر السلبي في الإنسان الداخلي، كما يشدد على ضرورة اختباره، لأنه يؤكد في أقواله أنّه من الممكن هدايته. ففي داخل الإنسان، وفي عمقه، يوجد كلّ ما هو شر، وهو ما ينبع من محدوديته وفرديته. إن هناك نبع خطيئته. كثيرةٌ هي الأمور في داخل الإنسان التي تحدّه وتظهر أنانيته. ومن هنا فليس في الداخل النِعَمُ فقط، بل هناك أمورٌ أخرى. وكلّها ضروريةٌ للنمو الروحي للإنسان.

أولُ خبرةٍ نجدها لمحدودية الإنسان، هي ما يمكن أن نسميه "الضعف – النقص" كمظهَرين لهذه المحدودية. لهذا فنحن، بناءً على ما يقوله القديس إسحق، بشرٌ ناقصون وضعفاء بسبب هذه المحدودية. يمكن لهذا الضعف الذي فينا أن يتحول بالجهاد الروحي إلى نعمةٍ بالنسبة لنا. يقول القديس إسحق كاشفاً هذا كله: (طوبى للرجل الذي يعرف ضعفه). وهذه المعرفة ستشكل الأساس والمبدأ لكلّ أمرٍ جيدٍ سيفعله. وعلى هذا فالضعف الكامن فينا يجب ألا نتجاهله، بل على العكس من ذلك يجب أن نعرفه، وبذلك نحدد بداية حياتنا في الروح.

إنّ الضعف ومعرفة المحدودية هما ما يجعلاننا نعي أن حاجتنا للآخر

دائمة. فإذا كنت أعي أنني محدود، فأنا بالتالي أعي أنني بحاجةٍ دائمةٍ للآخر. وهذا الآخر هو الله أولاً، وهو أيضاً الأخ الذي إلى جانبي. وهكذا يتحول الضعف في داخلي ليكون سبباً لحياة الشركة، وليصبح نعمةً. وهذا المعنى يُعبَّر عنه بالقول الإنجيلي التالي: "قوتي في الضعف تكمل" (2كو12:9). يقول القديس إسحق بانياً كلامه على فهمٍ واضح: (إنّ ضعف طبيعتنا يصبح إعلاناً لرحمة الله وعذوبته وحلاوته). فأن أكون محدوداً وضعيفاً، وأن يظهر في عملي أثر ذلك كلّه، فهذا مجالٌ لاختبار رحمة الله علينا. فيتحوّل ما كان جرحاً ونقصاً ليصير قوةً وديناميكية. وهكذا يستنتج القديس إسحق أن كلَّ جرحٍ يصيبنا في حياتنا سيكون سبباً لأحد أمرين؛ فهو إما أن يورثنا قساوة القلب، أو أن يقودنا إلى حياةٍ روحيةٍ أكبر. فإذا عشنا محدوديتنا بطريقةٍ إيجابية، فإنّ حياتنا الروحية تتقدم، وأما إذا انفعلنا بها وعشناها بطريقةٍ سلبية، فإنّ حياتنا الروحية تتراجع.

الخبرة الثانية التي نشكلها حول محدوديتنا هي سلبيةٌ في جوهرها، وهي التي يمكن أن نسميها "أهواء الإنسان". والأهواء لا تتعلق بجراحات الإنسان الناشئة عن ضعفه ومحدوديته، بل هي قوى تجتاز الإنسان وتنبع من الكيان الداخلي لأنها غرائزٌ فيه. وإذا ما اطّلعنا على ما ذُكر في الأدب الآبائي والرهباني النسكي عن الأهواء، نجد من بين الرهبان من يؤكّد أنها (أي الأهواء) شيءٌ سلبي، وأنّه يجب أن تُغلب، وأن تُمحى وتُستبعد. ويشيد تراث الآباء والرهبان بهذا، ويمتدح ما

يُسمّى باللاهوى، ويُعلي من مكانة الإنسان الناضج الذي سحق أهواءه وتغلّب عليها. ولكن، وخلافاً لهذا التراث، نجد أن القديس إسحق يمتلك نظرةً إيجابيةً تتعلّق بهذه الأهواء، وذلك انطلاقاً من أنّ الله هو الذي وضعها في الإنسان. فهي، من وجهة نظر قديسنا، قوّةٌ وضعها الله في الإنسان ليستخدمها في تقدّمه ونموّه الروحيّ. وحين يشوّه الإنسان هذه الأهواء تنشأ المشكلة. ولهذا على الإنسان تجنّبها بأن يعيش هذا الهوى بطريقةٍ أخرى. يعطي قديسنا مثالاً على ذلك بهوى الحب، وهو يرى أن على الراهب ألا يمحو هذا الهوى، بل أن يعيشه بطريقةٍ روحيةٍ صحيحةٍ في تضحيةٍ تجاه كلّ الخليقة.

أما **الخبرة الثالثة** لمحدودية الإنسان كما تعرضها كتابات القديس إسحق، فهي تتشكّل من "تجارب الإنسان". ونلمح إلى أنّ قديسنا ليس أوّل من تكلّم عن التجارب، بل سبقه إليها آباءٌ كثر، ومنهم القديس أنطونيوس الكبير بقوله: (بدون التجارب لن يخلص أحدٌ). وإذا ما تتبعنا عظات قديسنا وأقواله، نجد أنّه يؤكّد معنى قول القديس أنطونيوس الكبير، وذلك من خلال تأكيده على أنّ التجارب أساسيّة في التقدّم الروحي. وتنبع أهميتها عنده من أسبابٍ عدة:

1- هي شيءٌ طبيعيّ يحصل لكلّ إنسانٍ، ويجب قبوله ببساطة.

2- تجعل الإنسان قويّاً وتمنحه فرصة اختبار الحرية، من حيث أن الحرية تعني أنّنا اتّبعنا الله لأنّنا اخترناه.

3- التجارب، بحسب قديسنا، تقودنا إلى معرفة أعماق الله، وإلى

حكمةٍ في العلاقة مع الروح القدس.

4- التجارب تجعلنا في علاقةٍ حميميّةٍ مع الله.

ويمكن أن نورد نصاً لقديسنا عن هذا الموضوع يجمع غالبية أشكال التجارب هذه: (دون التجارب لا يمكننا أن نختبر العناية الإلهية، ولا نستطيع أن نكون مقربين من الله، وكذلك لا يمكننا أن نتعلم حكمة الروح القدس، دون ذلك لا تتجذر محبة الله في نفوسنا. قبل أن نكون مُجَرَّبين يصلّي الإنسان إلى الله كغريب. ولكن حين يُجرَّب الإنسان ويُقاوم، يصبح وكأنّه فَرَضَ على الله ديوناً، وبها صار يُعتبر مُقرَّباً إلى الله، وأنّه أصبح خليله لأنه صارع ضدّ أعداء الله). وصورة الدَين تجاه الله هي صورةٌ قويّةٌ يستخدمها القدّيس إسحق، ليفسر بها العلاقة الحميمية التي تنتج من خلال التجارب. وعلى الرغم من أنها صورةٌ شاعرية، إلاّ أن القديس يقول من خلالها إنّنا نستطيع أن نكوِّن عبر التجارب خبرةً عميقةً مع الله.

إنّ اتّساع التجارب في حياة الإنسان تشكّل مصدر الخبرة الرابعة، حيث تؤدّي إلى نضوجه. ويفسّر القديس إسحق ذلك من خلال صورةٍ يستعملها كثيراً، حيث يقول مثلاً في المجموعة الثانية العظة 18: (عندما تكون الروح، خلال التجارب في سبيل الله، معرّضةً للأهواء والشياطين، فإنها تشبه ثمار الموسم المعرّضة لقوّة أشعّة الشمس. حينئذٍ تصبح لذيذة، وتكون أكثر حلاوة).

في نصوصٍ عديدةٍ لدى القديس إسحق نجد إشاراتٍ عن المساعدة

التي نحصل عليها أثناء التجارب. فخلال جوابه على تساؤلٍ حول كيفيّة استطاعة الإنسان أن يتحمّل التجارب دون أن يسقط، يبيّن قدّيسنا أنه في كلّ مرةٍ نتعرّض فيها لتجربةٍ ما نتلقّى عوناً من الله، لا بل إنّ عـــون الله يكون معنا حتّى عندما نسقط. ولهذا فإنه يســـتخلص أننـــا لســـنا وحدنا، وإن لم نكن نشعر بهذا العون عندما نقع، فإننا غالباً ما نشـــعر بوجود الله وعونه بعد أن تعبر تلك التجربة.

1- التجارب كخطيئة

لا تخافوا من أيّ شيءٍ حتى التجارب، فالخطيئة يمكن أن تتحوّل إلى مناسبةٍ لتعميق علاقتنا بالله. واليأس هو الأمر الوحيد الذي يجب ألا نقع فيه وألاّ نستسلم له. لقد استنبطنا هذا المعنى من قول القديس إســـحق: (إذا وقعت بالتجربة فلا تيأس، فكلّ عملٍ نقوم به معرضٌ للخســـارة؛ فالتاجر حين يسافر في البر والبحر لا ينجح دوماً، بل يتعرّض للخسارة أحياناً. والمزارع حين يقطف محصوله يجد فيه أحياناً نقصاً أو خســـارة. وليس من مصارعٍ لا يتلقّى الضربات، ولو كانت قوّته توصله إلى النصر أخيراً. وهذا حالك أيها الإنسان حين تسكن في مساكن الله. فالسكان هناك تجارٌ يسلكون مسالك غير منظورة، ولهذا يمكـــن أن يتعرضـــوا للخسارة أيضاً. وعندما تتلقى الضربات في تجربتك فاحـــذر أن تـــدير ظهرك. وإذا كان من الضروري أن تسقط بالخطيئة، فليكن همـــك ألا تدير ظهرك لمشيئة الله). وهكذا نستخلص من هذا النص أن اليأس هو الشر الحقيقي الكامن في الخطيئة. وكثيراً ما يؤكد الآباء ذلك من خلال

أقوالهم في مواقع متعددة، شارحين أن الخطيئة الحقيقة ليست في اليأس من جراء الوقوع في الخطيئة. بل إنّ الخطيئة الحقيقية هي اليأس من مغفرة الله، لأنّه عندها يتمكن الشيطان من الانتصار الحقيقي على الإنسان.

لقد عرضنا رأي قديسنا في أنّ الخطيئة يمكن أن تؤدّي إلى خبرةٍ روحية، عندما لا تولّد اليأس في نفس من وقع فيها. وهذا ما يجعل الاعتراف بالخطيئة شرطاً لكي تصبح تجربتها سبباً للتقدّم الروحي. وهكذا يكتنف الخطيئة شرّان كامنان؛ هما اليأس من رحمة الله، وفقدان حساسيتنا تجاه الخطيئة. ولهذا يبدو أنّ الاعتراف بالخطيئة من قِبل الذي وقع فيها، هو التحدّي الأكبر حتّى لا يتملّكه اليأس. وهناك قولٌ للقديس سلوان الآثوسيّ يؤكّد هذا المعنى: (احفظ نفسك في الجحيم ولا تيأس). ويعرض القديس إسحق أهمية معرفة الإنسان بخطاياه بقوله: (أعظم البِّر على الإطلاق هو امتلاكنا لحساسيةٍ نحو خطايانا. فالذي يبكي على خطاياه للحظةٍ واحدةٍ يكون أعظم ممن يقيم الموتى بصلاته. وأما القادر على أن يرى نفسه، فهو أفضل ممن يرى الملائكة)[34]. وهكذا يرينا قديسنا أن (الاعتراف بالخطيئة هو أهم من رؤية الملائكة)، ويؤكّد ذلك قائلاً إنّ رؤية الملائكة لا تنفع حياتنا الروحية، ولكن ما ينفعها هو رؤية خطايانا. ويؤكّد قديسنا ذلك بقولٍ آخر، وهو أنّ الذي يعرف خطاياه يمكن أن يبدأ بمسيرة التوبة.

34- كتاب النسكيّات، النسخة العربية م31. نقله إلى العربية الأب إسحق عطاالله الآثوسي. دير مار ميخائيل 1998م.

يتناول القديس إسحق أهمية تحسّسنا لخطايانا من زاويةٍ أخرى. فهو يؤكّد أنّ الذي يرى الملائكة يبقى معهم، ولكنّ ذلك لا يلغي آثار أوجهٍ أخرى للمحدوديّة تُنتج أخطاءً متنوّعة عند الإنسان. فيعرض علينا آلام معاناتنا مع الآخرين من خلال الأذى الذي يأتينا منهم: (المحدوديّة هي مسألةٌ كامنةٌ فينا، ويجب أن نقبلها، ولكن الآلام الناشئة عنها هي أمورٌ تأتينا من الخارج فتؤلمنا وتعذّبنا). ويعرض علينا ضـــرورة هـــذه الآلام لنضجنا فيقول: (حتى هذه الآلام هي أمورٌ ضروريةٌ لحياتنا الروحيـــة، فهي تجعل كلٌّ واحدٍ منا إنساناً ناضجاً).

يرصد لنا أثراً آخر من آثار المحدوديّة في كتاباته ويسمّيها "خـــبرة الظلمات"، وهي خبرة شكٌّ تصيبنا فيما يخصّ رحمة الله بنا. وهذه خبرةٌ ناتجةٌ عن محدوديّتنا، ويمرّ بها كلٌّ مؤمن. وملخّصها هو أنّ الفرد يفقـــد رجاءه وإيمانه بالله، فيؤدّي ذلك إلى عزوفه عن العبادة، فيصبح كسولاً ومشلولاً ومعاقاً في تأديته للصلاة.

مع هذه المتابعة الدقيقة لأثر المحدوديّة فينا يصل قديسنا إلى فهم الموت كوجهٍ لهذه المحدوديّة، من حيث هو الحدّ الذي يُنهي حيـــاة الإنســـان، ويظهر محدوديّتها بشكلٍ فائق. وقدّيسنا يأخذ مسألة الموت بجدية، ويدعو جميع المسيحيين أن يأخذوا هذا المظهر للمحدوديـــة بعـــين الاعتبـــار، واستحضارها في ذهن الإنسان دائماً. ففي البداية يجـــب أن نعـــرف أنّ الموت الذي ينتظرنا كحدٌّ للحياة، هو أمرٌ أساسيٌّ وجـــوهريٌّ لحياتنـــا بحسب الروح. وأن هذه المعرفة ضرورية لكي لا نخاف من الموت.

يتوصّل القدّيس من خلال كشفه للموت كمظهرٍ أساسيّ لمحدوديّتنا إلى فكرةٍ جوهريةٍ يُعبّر عنها بقوله: (للتغلّب على الخطيئة يجب التغلّب على الخوف من الموت). كأنّه يلمّح إلى أنّ وراء وقوعنا في الخطيئة يكمن الخوف من الموت. يعبّر عن ذلك بدقّةٍ قائلاً: (نحن لسنا مائتين وفانين لأنّنا نخطئ، ولكنّنا نندفع إلى الخطيئة ونرتكبها لأنّنا زائلون). وهذا الفهم يعني أنّنا نقع في الخطيئة لأنّنا نخاف من الموت. يقول القدّيس إسحق: (الإنسان يخطئ، ثم يصبح مائتاً. فالموت نتيجةٌ للخطيئة). وهذا ما نجده في سفر التكوين حين نجد أن المرأة قد أخذت الثمرة نتيجة وعد الحيّة لها بالخلود. وهو ما يُظهر بوضوح أنّ الخوف من الموت هو الذي يدفع بالإنسان إلى الخطيئة. يقول قدّيسنا: (إزاء كلّ خطيئةٍ نفعلها، هناك مقدارٌ معيّنٌ من الخوف من الموت لا نستطيع نفيه. ولكي نتغلّب على الخطيئة، يجب أن نتصالح مع الموت، ونفهم أنّنا سنموت). ويقول كذلك: (شيئاً فشيئاً يجب أن نتعلّم ألاّ نخاف من الموت بل أن نتقبّله، شيئاً فشيئاً يجب أن نتعلّم ألاّ ننظر إلى الموت على أنّه نهاية الحياة، ولكن أن ننظر إليه على أنّه اكتمالٌ وكمالٌ لها. والموت ليس شيئاً متسلّطاً علينا بما أنّه شيءٌ لا يفرّ منه أيّ إنسان، ولهذا فهو واقعٌ يجب أن نتعايش معه)[35].

يقول ابن السلط ملخصاً فكر القديس إسحق: (إنّ المسيحيّ هو

35- بعد سر الفداء الحاصل بالصليب لم يعد الموت نهايةً للحياة بل مجرد بوابةٍ تنقلنا من زيف هذه الحياة إلى ملء الأبدية. فالموت إذاً لم يعد نهايةً بل بدايةً للزمن اللامتناهي، من هنا دعوة القديس إلى التعايش مع الموت كواقع.

الإنسان الذي يحبّ الحياة دون أن يخاف من الموت. الحياة إيجابيّة ويجب أن نحياها حتى النهاية. الحياة عطيّةٌ من الله لنا، ولهذا يجب أن نحبّها دون الخوف من أنّها ستنتهي). وهكذا يظهر في فكر قدّيسنا توازنٌ دقيقٌ في هذا الأمر المفصليّ، فإمّا أن نقع في حالة ازدراء الحياة، فنُسقِط كلّ شيءٍ من الحياة الآخرة المستقبليّة غير ملتصقين بواقعنا الحالي، وإمّا أن نتعلّق بهذه الحياة ونزدري الحياة الآخرة. لتفسير ذلك بإمكاننا استخدام الصورة التالية: (على المسيحيّ أن يعيش بعينين؛ واحدة تنظر إلى الأرض، والأخرى نحو السماء).

2- الجهاد الروحي

من الطبيعيّ أن نذكر الجهاد الروحيّ في فكر القديس إسحق بعد تقديم هذا المنظور عن الإنسان. وذلك لأنّنا رأينا الإنسان في فكر هذا القديس متلبساً بالخطيئة والضعفات مُظهِراً بذلك محدوديته. ومن هنا فالجهاد الروحي هو مصادمة كلّ هذه المظاهر التي يتلبس فيها الإنسان. ولكن ما يلفت النظر في فكر القديس إسحق عن الجهاد الروحي، هو أنّه ليس جهاداً يقوم به الإنسان ذاته ضدّ الشر، لكنّ الجهاد الروحيّ هو ما يقوم به الروح القدس داخل الإنسان ضدّ الشر. ولهذا فإنّ من يقوم بهذا الجهاد هو الروح القدس وليس الإنسان. وعلى الرغم من أنّه يبدو لنا أنّنا نحن من نجاهد ونصوم، ولكن حقيقة ما يجري أنّنا نبدأ بالفعل، والروح القدس هو الذي يتمّم هذا فينا.

للجهاد الروحيّ في فكر القديس إسحق خصائصٌ معيّنةٌ يعرضها

على الشكل الآتي:

1- إنّ زمن هذا الجهاد مستمرٌّ طوال حياتنا، وهو لا ينتهي أبداً. يقول قدّيسنا: (لا ترجُ ولا تنتظر انتهاء جهادك الروحيّ).

2- هو جهادٌ متجدّد، يبدأ كلّ يوم في حلقةٍ جديدةٍ تُكمِّل ما سبقها. وهنا يشرح قدّيسنا في فكره أمراً مُهماً احتفى به آباء الصحراء في مصر. يحكي القديس إسحق عن القدّيس أنطونيوس الكبير هذه القصة: (في يومٍ من الأيّام سأل مبتدئٌ شيخاً: ماذا تعمل في حياتك الديريّة؟ فأجاب الشيخ: أبدأ كلّ يوم من جديد). هكذا فالحياة الروحيّة بالنسبة للقديس إسحق هي أن نبدأ الجهاد الروحيّ في كلّ يوم. ويقول عارضاً هذا المعنى ومؤكّداً له: (من يقع دون أن ينسى محبّة الله الحقيقيّة له، يكون في جهادٍ روحيٍّ حقيقيّ دائماً، حتى ولو كان عنده كثيرٌ من الخطايا. يجب ألاّ نتوقّف عن الجري، ويجب ألاّ نكون متهاونين في مواجهة معركةٍ جديدةٍ كلّ يوم، ضدّ الأمور عينها التي خسرنا فيها سابقاً. لهذا فإنّ الشخص الذي لا يتعب من البدء كلّ يوم، ولا يتعب في إعادة بناء ما هُدِم من منزله، فهو بهذه الطريقة لا يتوقّف عن الجهاد ضدّ الموت. لأنه لا يعترف بنفسه مغلوباً، طالما أنّه باقٍ على قيد الحياة، ولو كانت سفينته تغرق كلّ يوم، وكلّ ما اكتسبه ذهب سدىً في عمق البحر. وهذا الشخص لا يملّ ولا يتوقّف عن البحث عن سفنٍ أخرى تحمله، حتى يصل إلى اليوم الذي يرى فيه السيّدُ إصراره فيشفق عليه ويرحمه). هكذا فالحياة الروحية هي أن نبدأ كلّ يوم في أيّ جهةٍ خسرنا

فيها. يجب ألا نهرب من الجهاد، بل أن نبتدئ بجدٍ محاولين تجاوز ما خسرناه في معركتنا السابقة.

3- ما دام الجهاد الروحي هو تعاونٌ بين الإنسان والروح القدس، فالسؤال الذي يمكن طرحه هو: من هم هؤلاء الأعداء الذين نصارعهم؟ وما هي تلك الوجوه التي نلاقيها في ساحة الجهاد؟ أهي وجوه الشياطين الموجودة في حياتنا؟

يجيب القديس إسحق عن الجزء الأوّل من السؤال بأنّ العدوّ هو "**العالم**". ويشرح ما يعني بهذا المصطلح في إحدى عظاته، من خلال تحذيره في شرحه من خطر أن نفهم "العالم" بأنّه الواقع المخلوق خارجنا. ليس العالم في فكر القديس إسحق هو الإنسان الآخر، أو الخليقة أو الجسد. العدوّ عند قديسنا ليس خارج الإنسان مهما كان الخارج، بل هو داخله. ولهذا فكلمة "العالم" عند قدّيسنا لا تدلّ على العالم المرئيّ، بل هي شيءٌ في داخلنا.

يحذر قديسنا من إحدى الأخطاء التي نقع فيها، عندما نقوم بتفسير المقولات النسكيّة التي تدعو إلى الهروب من العالم، بأنها تعني الفرار من العالم الخارجيّ. وللإثبات على فهمه هذا، يورد القديس قولاً لأحد آباء الصحراء: (إنّ العالم يلاحقنا حتّى ونحن في الصحراء). وينقل قولاً لأبٍ آخر: (الذين يعيشون في العالم يخوضون صراعين، هما جهاد العين، وجهاد الفم. بينما الذي يعيش في البرية فإنّ جبهات صراعه التي يخوضها أكثر، وهي جهاد العين والفم والقلب). وهكذا يتبعنا العالم

الذي يجب أن نهرب منه حتى ونحن في البرية. ومن هنا تبدو دلالة لفظ العالم التي استخرجها القديس إسحق تعبيراً شمولياً، عندما اعتبر أن ما يُقصد بلفظ العالم هو كلّ ما يجب أن يُجَابَه.

أمّا الجزء الثاني من السؤال، فيحدّد قدّيسنا أوجه الشيطان التي يجب أن تحارب بـ: الكسل والإهمال والعادات. ويؤكّد على أن الحزن هو اليأس المطلق والإحباط، ويضيف إلى ذلك النميمة والغضب والمجد الباطل. وحول المجد الباطل يعرض علينا صورةً مؤثرةً يكشف لنا فيها جوهر هذا الوجه من وجوه الشيطان فيقول: (الكلب الذي يلحس المبرد ويلعق دمه لا يحس بالألم الذي يسببه لنفسه، لان طعم الدم في فمه عذب، وهو ما يغريه في الاستمرار بإيذاء نفسه. وهكذا حال الراهب الذي يسكر بالمجد الباطل، فيكون كمن يمشي في حياته، دون أن يعي الشر الذي يسبّبه لنفسه بسبب هذه اللذة التي يقتنيها).

خلال بحث قدّيسنا في أوجه الشيطان التي نجاهد روحيّاً ضدّها، نجده يتميّز ببحث نقطتين لا نجدهما عند باقي الآباء.

أوّلهما: "**الغيرة**". يسلّم قدّيسنا أنها أمرٌ صعبٌ على الفهم من حيث هي موقفٌ للرهبان ضدّ الآخرين، وهي في رأي القدّيس ثمرةٌ للتكبّر والغباء. ويؤكّد أنها من أصعب الشرور التي يواجهها الراهب في الدير. وهذا ما جعل قدّيسنا يحذّر الرهبان بأنّ عليهم الانتباه لهذه المسألة ومحاربتها، لأنّ هناك رهباناً يمضون كامل حياتهم بالمشاجرة مع إخوتهم. يقول القديس إسحق: (إنّ الذي تذوّق الحقيقة لن يجد حاجةً ليجادل أو

يدافع عنها. إنّ من يكون ممتلئاً بالغيرة بسبب الشرّ، يبرهن على أنّه لم يعلم بعد ما هي الحقيقة. فالذي يعرف ماهيّة الحقيقة يتخلّى حتّى عن الغيرة عليها. لأنّ عطيّة الله ومعرفته ليستا سبباً لشغبٍ وصراخ. والمكان الذي يسكن فيه الروح القدس هو مكان محبّةٍ وسلامٍ وتواضع، هذه هي علامات الروح القدس. إنّ الذي يسكن الروح القدس فيه يكون ممتلئاً من هذه الأمور الحسنة، لأنّ الحقيقة هي الله نفسه). فما يبدو لنا أنه أمرٌ إيجابيّ كالدفاع عن الحقيقة مثلاً، يمكن أن يصبح أمراً يجب محاربته. فينقلب مثل هذا العمل من الإعلان عن الله، ليكون في الواقع تشويهاً لصورته.

ثانيهما: "**العطايا الروحية**" وهي ميزةٌ من ميزات رؤية القديس إسحق. فهو يعتبر أنّ ما هو إيجابيّ من العطايا الإلهيّة يمكن أن يصبح أمراً يجب محاربته أيضاً. وذلك إذا كنّا غير قادرين على حمل عطيّةٍ أعطانا الله إيّاها. وهذا يوجب علينا حين نفقدها، ومن ثمّ نحتاجها، أن نصلي إلى الله لنستعيدها. وهذه الفكرة تحتاج إلى شرحٍ لينكشف غموضها. فقدّيسنا يرى أنّ الأفراد لا يتلقون عطايا الله الإيجابيّة بقبولٍ متساوٍ، وهو ما يجعل بعض هذه العطايا الإيجابيّة سلبيّة بالنسبة لشخصٍ ما، بل ويجب محاربتها. فلو طبّقنا هذه القاعدة على عطيّة الصمت، وهي عطيّةٌ إيجابيّة، فسنجد أنّ المسيحيّ أو الراهب الذي يتمكّن من حمل هذه العطيّة ليتباهى بها بين الناس، تصبح بالنسبة له أمراً سلبيّاً. لأن إيجابيّة عطيّة الصمت تجعل صاحبها في مثل هذا التطبيق متكبّراً، وهذا ما

يستدعي محاربة الصمت. يقول قديسنا: (إنّه من الأفضل للراهب أن يتكلّم على أن يكون صامتاً ومتكبّراً).

وهذا التدقيق من قديسنا على جزئيّات الحياة الروحيّة يرينا أنّ هذه الجزئيات تحتاج إلى تمييز، انطلاقاً من أنّه ليس هناك أمورٌ سيئةٌ بالمطلق، وليس هناك أمورٌ جيدةٌ بالمطلق أيضاً. وسنجد في أقوال الآباء الشيوخ أمثلةً كثيرةً على ذلك.

سادساً: الفكر المركزي عند القديس إسحق

يمكننا القول إنّ هناك موضوعين أساسيّين في فكر القديس إسحق؛ هما **التواضع، ورحمة الله**. يقول ابن السلط في تلخيصه لفكر قديسنا: (إن القديس إسحق نادى بالتواضع، ورحمة الله).

1- التواضع

موضوع التواضع مثيرٌ للاهتمام، وسأبدأ بتناوله أولاً من وجهة النظر الغربيّة.

يعرض الفكر الغربيّ معنىً للتواضع ورثناه من الفكر اليونانيّ القديم، حيث يشير التواضع باليوناني (μετριότης) على وجوب أن نكون متوازنين معتدلين، وأن نتجنّب التطرّف ولا نزايد، فنكون وسطيين. ولكن ليس هذا هو المعنى الذي يُحدِّد توجه الفكر عند قديسنا.

أمّا النطاق الثاني فهو موجودٌ في التقليد الكنسي. فالتواضع فيه يعني أن الإنسان المتواضع هو من يزدري بنفسه ويحتقرها، ويعتبرها كلا شيء.

قديسنا يختلف مع مفهوم التواضع الذي نجده في بعض التقاليد النسكيّة التي تعتبره فضيلة، بمعنى أنّها تُكتسب بفضل قوّة الإنسان وجهوده. أما قدّيسنا فيعتبر أنّ المسيحيّ هو إنسانٌ متواضع، والطريقة الوحيدة ليكون الإنسان مسيحياً هو أن يكون متواضعاً. ويستشهد قديسنا على فهمه هذا بالكتاب المقدس: "تعلموا مني لأني وديعٌ ومتواضع القلب" (مت11:29). من خلال قراءتنا للعهد الجديد تبدو لنا الأمور واضحة. فحين يعرض العهد الجديد التواضع، فإنه يتحدّث عن نسك يسوع. وهذه هي المرّة الوحيدة التي يكون فيها السيّد نموذجاً. ومن خلالها يطلب منّا أن نكون تلاميذه، ويرسم لنا هذا الطريق من خلال التواضع. وبذلك يبدو التواضع في العهد الجديد صفةٌ أساسيةٌ لمن يريد أن يتتلمذ للمسيح، وأن يُظهر من خلال عمله الوجه الحقيقي للمسيح. وبإضاءة قديسنا لمفهوم التواضع في العهد الجديد، نكتشف أنّ السعي ليكون المسيحي متواضعاً هو سعيٌ مزدوج. لأننا حين نتواضع نصبح مسيحيين، وكذلك عندما نتواضع نصبح آلهةً مثل الله. وبذلك يتّضح - حسب قديسنا - كيف يمكن أن نكون تلاميذ ليسوع المسيح.

لكي نصبح بمكانة تلاميذ يسوع، يقتضي ذلك منا تحقيق إرادة الله بتغيير ما أراد منّا أن نغيّره، فنصبح أناساً حقيقيين. وهذا لا يتحقّق إلاّ إذا اتّصفنا بالتواضع، الذي يقضي على شهوة الوجاهة بين الناس. والتواضع طريقٌ لا يدفعنا إلى ازدراء الواقع وما نحن فيه، بل يدفعنا إلى النزول عن سوء تقدير قيمتنا، والتمثل بما نحن عليه في الحقيقة.

يستلهم قديسنا نصّاً من سفر التكوين ليعبِّر من خلاله عن فكره: (الإنسان الذي أراد أن يصبح مثل الله أساء تقدير حالته، وهو بالتواضع يعود إلى حالته كإنسانٍ ويقبلها دون أن يزدريها). وهذا ما يكشفه فكر قديسنا من تعريف التواضع بأنْ يقبل الإنسان ضعفاته ومحدودياته، وأن يتعامل مع كلّ شيءٍ حسب تواضعه.

نصٌ آخر من نشيد فيلبي يستشهد به قديسنا: "أخلى ذاته آخذاً صورة عبدٍ..." (في2:7). يفهم القديس إسحق هذا النص بأن الله تنازل ليصبح إنساناً، ليتلاقى معنا في واقعنا. وهذا الفهم هو أساس قولٍ مشهورٍ لقديسنا: (أن نكون متواضعين، هو أن نعود إلى ما صار إليه الله لنلتقي بيسوع، لأنّ هذا هو القاسم المشترك بيننا). وحتى لا يلتبس التواضع بمظاهر الضعف القاهر للإنسان، يفرّق قديسنا بين التواضع وبين الخنوع والسذاجة. وذلك لأن الأخيرتين هما نقيصةٌ في الشخصيّة، لأنهما طبيعةٌ قاهرة. أما المتواضع فلا يخفي قدراته الطبيعية، لأن عملاً كهذا هو تنكّرٌ لمواهب الله فينا. وهو (أي المتواضع) من يقبل بواقعه أنّه خليقة الله، فيقبل حالته الإنسانية المخلوقة بكلّ أبعادها ومضامينها، بل إنّه يحبّ هذه الإنسانيّة.

هناك نص لأفراهات السرياني[36] يقول فيه بما معناه؛ أنّ المتواضع

36- يُسمى أيضاً بافراهات الفارسي أو الحكيم، هو أول كاتبٍ سريانيٍ كبيرٍ تبقى اعماله، وُلد في أواخر القرن الثالث أو بداية القرن الرابع الميلادي في بلاد فارس. في تقليد متأخّر حُسب كرئيسٍ لدير مار متى المشهور الموجود قرب مدينة الموصل في شمال العراق، وأنه كان أسقفاً لذات المنطقة. وفي عام 344م ترأس مجمعاً لكنيسة مقاطعته (أديابين). لكنه عاد إلى توحده وتنيح حوالي عام 345م.

الحقيقيّ هو الذي يقبل أن يعود إلى التراب أي إلى ما كان عليه، وأن يتعلّم أن يحبّ الواقع. وكما أنّ الشجرة عندما تتجذّر في الأرض، لأنّ هذه هي حقيقتها، تستطيع أن تحمل الثمار في أعلاها. هكذا يجب أن نقبل إنسانيّتنا بكلّ ما فيها ونحن فرحون، وبذلك نمتلك التواضع الحقيقيّ. يقول قدّيسنا صلاتيّاً: (أعطني يا الله أن أقبل بفرحٍ تواضع طبيعيّ، أي أن أحتمل حقيقة ما أنا عليه). ويرسم فكر القديس إسحق الخطوات للحصول على التواضع الحقيقيّ، فيحثّنا على قبول أنفسنا، دون الوقوف عند هذا الحدّ، فهذه هي الخطوة الأولى نحو التواضع. ويشبّه ذلك ببناء المسكن الذي يبتدئ من تحديد الأرض والقبول بها.

أمّا الخطوة الثانية فهي أن نماثل نفوسنا بيسوع وأن نسير وراءه، ونغيّر ذهننا ونتوب إليه منطلقين في محاولة تشبّهنا به. وبذلك يتّضح من فكر قدّيسنا أنّ مسيرة التواضع هي مسيرة التألّه، وليست هي مسيرة استعادة إنسانيّتنا فقط. فاستعادة الإنسانيّة والتألّه ليسا أمرين متناقضين بالنسبة لقدّيسنا: فأن نصبح أناساً حقيقيين هو أن نصبح الله، أي أن ندخل في قصد الله.

لا يكتفي القديس إسحق بعرض الأصل النظريّ لطريق الإنسان المتألّه، بل إنّه يقدّم خطوات التطبيق العمليّة لذلك. فهو يدلّنا على أنّ التواضع ليس غنيمةً نغتنمها، بمعنى أنّه ليس إنجازاً أساسيّاً من قِبَلِنا، ولكنّه هبة من الله. وذلك لأنّ مضمون التواضع لا يتحدد بأن يكون صاحبه مسالماً وهادئاً ولطيفاً. ولكنّه قوّةٌ من العلاء يوطّن الإنسان نفسه

ويسلّمها لهذه القوّة لكي تفعل فيه ما تريد. ويَخلصُ القديس إسحق السرياني إلى أنّ التواضع هو الروح القدس نفسه، الذي يسكن في الإنسان ويعمل فيه.

يعرض قديسنا في خطبةٍ طويلةٍ إجابته عن هذه النقطة، مجيباً على ذاك الذي يسأل ماذا يجب عليّ أن أعمل من أجل هذا؟ أي ماذا أعمل لأجعل الروح القدس يعمل بي لاكتسبه من خلال ذلك؟ فيقول: (يكفي للتلميذ أن يكون كمعلمه، والخادم كسيده (مت10:25). انظر إلى الذي يطلب ذلك منك، وإلى الذي يهبك إياه. انظر إليه كيف اكتسب التواضع فتشبه به. وعند ذلك ستحصل على هذا التواضع. ولهذا فالطريق لكي نحصل على نعمة التواضع هو أن نقبل الذي عمله يسوع. وهو – كما ذكرنا – أن نكون مسيحيين. فيسوع يطلب أن نتعلم منه أن نكون متواضعين). وهكذا يظهر التواضع في فكر القديس إسحق هبة من الله، وللحصول عليه هناك طريقٌ واحدٌ هو أن نسير خلف يسوع من خلال قراءتنا للإنجيل.

أ- الفحوى الخريستولوجية لفكر التواضع

إذاً المتواضع في فكر القديس إسحق هو من يماثل نفسه مع يسوع. وهذا التواضع المسيحي ليس له أدنى علاقة بالتواضع الفلسفي القائم على التوازن الوثني. أما الأساس الخريستولوجي للتواضع المسيحي، هو نصٌ ننقله عن قديسنا حيث يقول: (من أين نستطيع أن نتعلم التواضع؟ من معرفتنا لذواتنا ومن معرفتنا للمسيح. أن نعرف ضعفاتنا ومحدوديتنا،

وأن نعرف من هو المسيح). ومن هاتين المعرفتين تنشأ حركةٌ بينهما، توجِدُ في داخلنا تفاعلاً يجعلنا نستقبل الروح القدس.

ب- العلامات المميزة للمتواضع

نحن بالطبع لن نجد جواباً محدداً ومخصصاً على هذه النقطة في فكر القديس إسحق، ولكننا سنجد مساهماتٍ له تَعرضُ بعض العلامات للمتواضع. **العلامة الأولى** التي نستخلصها هي أن يختبر الإنسان تحرّره ليعرف مداه، وهو ما يدعو للعمل حتى يتشكل لديه شعورٌ أنه تحرر من الخوف كثقلٍ معنوي. ونجد أصل هذه العلاقة في نص للبطريرك المسكوني أثيناغوراس قاله في آخر حياته: "الآن أصبحت حراً. لم يعد لي شيءٌ أدافع عنه، لقد سلمت سلاحي". **والعلامة الثانية** هي أن التواضع يساعدنا أن نعتق من يأسنا وحزننا في اللحظات التي نصاب بهما. يقول القديس إسحق: (بمقدار ما تمتلك من تواضع، يُعطى لك احتمال المشقات. وسيخف عند ذلك ثقل نفسك، وتتعزى عن أحزانك). وبذلك يجعل التواضع من صاحبه قادراً على المثابرة في نشاطه في أكثر الظروف صعوبةً. فلا يدع العقبات تغلبه، بل يصبر على الشدائد ويخرج منها. يشرح القديس هذا الدور للتواضع في نفس مقتنيه فيقول: (بإمكان التواضع، حتّى من دون أعمال، أن يكفّر عن الخطايا. بينما الأعمال من دون التواضع ليست فقط من دون فائدة، بل تدفعنا لشرورٍ كثيرة). ويقدم القديس إسحق مثالاً عملياً على ما استخلصه فيقول: (أن أصوم كثيراً دون تواضع فهو باب شرٌ كبير. أمّا إذا كنتُ متواضعاً

وأكلتُ كلّ يوم، فهناك إفادةٌ ستتحقّق).

أما العلامة الثالثة فهي أن التواضع يجعلنا نتغلب على اليأس والقنوط والحزن، وهي حالاتٌ شائعةٌ كثيراً بين الرهبان، فيفقد الراهب من جرّائها همته وفرحه. صوّر ذلك أفغاريوس البنطيّ بقوله: (شيطان اليأس "الضجر" يأتي في منتصف النهار، عندما يحاول الراهب أن يفعل شيئاً فلا يستطيع، ويحمل عليه النعاس والنوم، ويأخذ بالتلهي عمّا يفعل بالنظر نحو النافذة، حتى إنّه عندما يُقرع الباب يكون ثقيلاً باستجابته. يقرأ دون حماس، يتطلّع إلى انتهاء العمل في تدقيق عدد الصفحات الباقية، ويأخذ بالنظر في طبعة الكتاب، ويُكثر التذمر من أفكاره بل ينتقدها، ثم ينام على كتابه). وقد أظهر قديسنا السلام والفرح كثمارٍ للتواضع، فالمتواضع لا يعرف الحزن ولا يفقد السلام الداخلي، لأنه في الحقيقة رجل سلام.

بهذا العرض لثمار التواضع يوضح القديس إسحق التناقض بين المتواضع والغيور فيقول: (لا يكون الإنسان متواضعاً إلاّ إذا كان مسالماً، ولن يكون الشخص في حالة سلامٍ إلاّ إذا كان متواضعاً وهذا ما يجعله فرحاً). وبذلك يتّضح أنّ المتواضع هو الإنسان المتصالح مع الخليقة، وهذا ما جسّدته صورة آدم في الفردوس، فكان حلقة الوصل بين الخليقة والخالق. وهذا هو عمل المتواضع.

يقول ثيوذوروس المبسويستي: أنّ الإنسان حلقة وصلٍ بين السماء والخليقة. ويوضح قديسنا هذا المعنى بقوله: (المتواضع يصبح في سلامٍ مع

الخليقة والحيوانات المفترسة). نحن نجد التطبيق الواضح لما ذكره قديسنا في سيرة آباء البرية في الصحراء، حيث يعيشون سوية وبسلامٍ مع الحيوانات.

2- رحمة الله وحبه

نكاد نجد هذه القضيّة في كلّ خطابٍ من خطابات قدّيسنا. فعند مناقشة هذه الفكرة لاهوتياً عند القديس إسحق، نجد أنّ للحبّ علاقةٌ مباشرةٌ بجوهر الله نفسه. فالله هو التواضع كما ذكرنا عند بحثنا موضوع التواضع آنفاً. قال يسوع: "تعلموا مني لأني وديع ومتواضع القلب" (مت11:29). فالله نفسه إذاً يحمل التواضع. يقول القديس إسحق: (إذا كان الله متواضعاً فهو محبة). ويأتي تأكيد هذا من مقاطع من الكتاب المقدس يقول فيها: "الله محبة" (1يو4:16). وهكذا يستخلص قديسنا الفكرة التالية فيقول: (بالتواضع وبالمحبة لدينا صورتان لله). ويتضح من أفكار القديس بأنّ المحبة ليست فعلاً إلهيّاً بل هي شيءٌ أعمق. فالله بجوهره محبة، وهذا ما يجب أن نؤمن به وأن نتّخذه عقيدةً إيمانيّة.

من هذا المنطلق الذي ناقش به القديس فكرة المحبة يستخلص فكرة الرحمة فيقول: (يجب أن نؤمن أنّ الله رحوم). وبالتالي فنحن إذا ما قصّرنا في محبتنا ورحمتنا تجاه الآخر، نكون مقصّرين في الصورة الإلهية التي فينا. ويعرض قديسنا فكرة أنّ الله أحبّ الخليقة قبل أن يخلقها قائلاً: (بالمحبة خَلَقَ الله العالم، وبالمحبة يقوده في هذا المسار الزمني، وبالمحبة يقوده نحو التجلي الإلهي. وكذلك بالمحبة سيُحمل هذا العالم نحو السر

العظيم، وبالمحبة سترجع كلّ الخليقة إلى الخالق). وهذا القول يوضح أن الله محبة، وأنّ وراء كلّ عملٍ إلهيّ تكون المحبة هي الدافع.

بالتصورات البشرية نستطيع أن نعبّر بأن المحبة هي الشعور الوحيد لدى الله. مركزية المحبة عند الله أوصلت القديس إسحق للاستنتاج بأنه حتى عندما يقاصصنا الله، فإنّ هذا القصاص لا يحدث إلاّ من محبته لنا ولا يقوم أبداً على الانتقام، لأنّ الانتقام شعورٌ لا ينتمي إلى الله. وحتى حين نرى الله في بعض الأوقات يؤلمنا، فإنّه لا يفعل ذلك لأنّنا قد أخطأنا، بل لأنّ محبته نحونا هي التي تدفعه ليعاقبنا. وقد وصل قديسنا في هذا إلى أن يطالبنا أن ننقّي مفهومنا حول الله.

إله الانتقام ليس هو الإله الحقيقيّ، ولا يتطابق مع الصورة الحقيقيّة لله على الصليب. المسيح لم ينتقم بل سامح الذين عذّبوه. ومن هنا يكون الصليب هو الصورة الأكثر أمانةً لهذه المحبة. وقد قدمنا سابقاً في فكر قديسنا أن الصليب هو مفتاح الكتاب المقدس. ولذلك لا يبدو التأديب الإلهي عمل عدالة، فلا يجوز أبداً أن أقول إنّني عملت هذا الفعل فاستحققت هذا الجزاء، ولكن يجب أن نفهم التأديب كتعبيرٍ عن حكمة الله الأبويّة. وهو في تأديبه لنا يبدو مثل أبٍ يحبّ أولاده، وهو لا يؤدّبهم استجابةً للكره والغضب لأنهم ارتكبوا معصيةً واستحقوا التأديب عليها. من هنا يبدو أن التأديب ليس هدفه إقامة العدل الإلهي، ولكن الهدف من التأديب هو شفاء مرضنا. الله يعرف أنّ أول ضحايا خطايانا هي نفوسنا، ولذلك فعندما يؤدّبنا الله فهو يفعل ذلك ليشفينا.

يَنْفُذ القديس من هذه المعالجة ليتكلّم على القصاص في الجحيم، ويرى أن فكرة التأديب تساعدنا على تنقية مفهومنا للجحيم، فهي ليست للانتقام، بل للتربية والشفاء. **فالجحيم أولاً** ليس مكاناً يتلذذ الله برؤيته نتعذّب فيه انتقاماً منّا، ولكنّه المكان الذي نضع فيه نفوسنا أمام حبّ الله العظيم لنا. ومن ذلك المكان نستطيع أن نقيس مدى حبّ الله لنا، وسنكون يائسين لأننا لم نحبّ الله كما أحبّنا. ومن هذه النظرة تظهر لنا طبيعة العذاب في جهنم على أنّه ليس قصاصاً من الله لنا، ولكنّ كلّ ما نحسّ ونشعر به سيكون نابعاً من أنّنا لم نحبّ الله بقدر ما أحبّنا هو. هذه المحبة المتبادلة هي مصدرٌ للفرح الحقيقيّ للإنسان. يقول قديسنا إنّ الذي امتلك هذا الفرح يكون قد فهم أنّ الله محبة، وأنّها صفة الله، وهي تقف وراء كلّ فعلٍ إلهيّ.

من خلال رؤيته هذه للجحيم يتحدّث عن **أمرٍ ثانٍ** وهو: إذا كان الله محبة، فهو إذًا مصدر المحبة الشائعة بين الناس بكلّ أنواعها. يقول القديس إنّه إذا كان على الإنسان أن يحبّ بالمعنى الحقيقيّ، فهو إذًا يشترك بالمحبة الإلهيّة، وبإمكانه أن يحبّ الآخر إذا كان قد اختبر محبة الله له، وبذلك تكون محبّته للآخر هي جوابٌ على محبة الله له. ولهذا فالمحبّة المسيحيّة ليست أن أحبّ الآخر لأنّه جميلٌ وذكيّ، وليست هي حباً عاطفياً أو نفسياً أو جسدياً، بل هي حبّ الآخر من فهمك أنّ الله أحبّنا أولاً. وهكذا يبدو أنّ سبب محبّتي لا يكمن في الآخر، بل فيّ أنا. يقول القديس إسحق: «إذا لم أستطع أن أحبّ الآخر فيجب عليّ أن

أبحث عن السبب الذي يمنعني من حبّه فيّ لا في الآخر. وأنّ المحبّة الـــتي تتعلق بأمورٍ موجودةٍ في الآخر، هي محبةٌ عارضةٌ وستنتهي في وقتٍ من الأوقات، بينما الحبّ المعطى لنا من الله هو حبٌّ مستمرّ لا ينتهي).

بنفس المنطق يرى قدّيسنا علاقتنا بالله. وذلك لأنّ علاقتي مع الآخر توازيها علاقتي مع الله. ومعنى ذلك أنّ محبتي لله هي جوابٌ لمحبته أوّلاً. يقول قدّيسنا: (شيئاً فشيئاً أتعلّم أن أحبّ الله لأني تدريجيّاً أكتشف أنّه يحبّني). هذا التدرّج في محبّتي لله هو أن أبدأ علاقتي به بـــالخوف منـــه، ولكنّه شيئاً فشيئاً يتحوّل هذا الخوف إلى محبّة. وفي فكر القديس إسحق يوجد نوعٌ من التربية لينتقل الإنسان من الخوف الإلهيّ إلى المحبّة الإلهيّة. وبدراسة هذه التربية نجد أنّ قدّيسنا يرى أنّ هنالك ضرورة في بعـــض الأحيان لوجود الخوف من الله في بدء مسيرة الحياة الروحيّـــة، ولكنّـــه يرى أنّ الحياة الروحيّة ستجمد وتموت إن لم يتمّ التحـــوّل مـــن هـــذا الخوف إلى المحبّة. وذلك لأن مسيرة الحياة الروحية ستكشف لنا أنّ الله يحبّنا، وأنّنا يجب أن نبادله حبّه. وخلال شرح طريقة التربية هذه يعرض علينا القديس المراحل الثلاث للحياة الروحيّة، ويقول إنّ الانتباه في هذه المسيرة يمكن أن يكون جسديّاً أو عقليّاً أو روحيّاً. وبحسب موقع هـــذا الانتباه ووضعه تكون العلاقة مع الله.

يقول قدّيسنا: (ما هو جسدي؟ هو كالحيوان يخاف أن يُقتل. وأمّا عقلي فخوفه من دينونة الله له. ولكنّ روحي تُشعرني أنّ الذي أصـــبح ابناً لا يعود يخشى من القصاص، بل إنّه ينجذب إلى الله لأنّه يعرف أنّه

محبوبٌ منه). ويتابع (المحبة تمحو الخوف). هذه الخبرة موجودة في الأدب الصوفيّ الإسلاميّ وفي الأدب اليهوديّ أيضاً.

يتحدث عن **الأمر الثالث** النابع من رؤيته للجحيم، منتقلاً من حديثه عن أن علاقة المحبة لها ارتباطٌ بعلاقة الإنسان بالله، إلى الحديث عن علاقة المحبة في علاقة الإنسان بالإنسان. وإذا ما تابعنا منطق القديس إسحق فلا بدّ لنا من أن ننتقل من لغة **العدالة** إلى لغة **الرحمة**.

يقول قديسنا إنّ المسيحيّ يتعلّم شيئاً فشيئاً أن يترك منطق العدالة، وذلك بأن ينتقل إلى منطق الرحمة. فالعدالة بالنسبة لقديسنا هي إتمام ما هو حقٌّ ومناسب، وما هو عدلٌ وصحيح. والبار بالنسبة للقديس هو الإنسان الذي يعمل كلّ ما هو صحيح، وليس في فعله أيّ خطأ. ومثل هذا الإنسان في محور علاقته بالآخرين يسير الخطوة الأولى. وبحسب القديس يجب عليه أن ينتقل إلى مستوى الإنجيل، الذي ركز قديسنا على وجوب قراءته المستمرة، حيث لا يطلب من المسيحي القيام بما هو عدل، بل يطالب بالرحمة والتي هي فوق العدالة والبِّر. وهذا التفكير الخاص بالقديس إسحق، قد تعلمه من خلال انكبابه على قراءة الكتاب المقدس.

يأتي القديس بشواهد كثيرةٍ على ذلك، فمثلاً في إنجيل متّى هناك آيةٌ تقول: "إذا لم يزد برّكم على الكتبة والفريسيين لن تدخلوا ملكوت الله" (مت5:20). إذاً المسيحيون مدعوّون لأن يذهبوا إلى أبعد من الناموس كما تدلّ على ذلك هذه الآية. ولهذا يرى القديس إسحق أنّ

مفهوم الرحمة هو تصرّف يسوع نفسه. ولهذا يُصرّح قدّيسنا بملء فمه بنصٍ قويٍ جداً، يشدّد فيه على أنّ الله غير عادلٍ فيقول: (إله يسوع المسيح هو إلهٌ غير عادلٍ جذرياً). ويضيف على ذلك مخاطباً سامعه: (لا تدعو الله عادلاً فيما يختصّ بك على الأقلّ. إنّه لم يظهر عدالته في معاملتك، بمعنى أنّه لم يحاسبك على الأخطاء التي فعلتها. فإذا كان داوود يدعوه عادلاً وصالحاً، فإنّ ابن الله يسوع لا يدعوه عادلاً، وذلك لأنّه أظهر لنا ابنه الصالح معذّباً، ووُضِع مع الأشرار وغير المؤمنين). ويتابع إظهار هذا المعنى قائلاً: (كيف يمكن أن تدعو الله عادلاً عندما تقرأ مَثَلَ الفَعَلَة (مت20:1-16)، حيث يتحدّث عن المتذمر الذي يطالب بحقٍّ أكثر؟ وكيف يمكن أن تدعو الله عادلاً عندما تقرأ مثل الابن الشاطر (لو15:11-32)؟ وخاصةً أننا لم نعرفه من غريبٍ ما، بل علّمه لنا الابنُ نفسه الذي شهد عن الله. فأين إذاً هي عدالة الله؟!).

إنّ مثل هذا المعنى متضمَّنٌ في قول الرسول بولس: "بينما نحن خطأة مات المسيح من أجلنا" (رو5:8). ولم يستنتج قديسنا هذه المعاني من خلال قراءة الإنجيل وإطلاعه على هذه المقاطع فقط، بل من خلال خبرته الروحيّة أيضاً، حيث كان يعرف أنّ الله أحبّنا. وبتطبيق ما توصّل إليه قديسنا فالله إله المسيحيين هو غير عادل، وهذا يفرض علينا نحن المسيحيين ألا نكون عادلين بعلاقتنا مع بعضنا البعض. ويعني هذا أنّ على المسيحيين أن يتخطّوا هذا المفهوم للعدالة. يقول القديس إسحق: (إنّ الذي لا يقدر أن يذهب بعلاقته مع الآخر خارج العدالة يكون غير

عادلٍ كذلك). ويستنتج أنّ العادل هو من لا يكون رحوماً، لأنّه كيف يمكن أن يكون رحوماً وهو عادل. فالعدالة تقتضي عدم الرحمة.

ويقدم لنا قديسنا صورةً لكي نفهم رؤيته عن رحمة الله. ففي العدالة هناك ناموسٌ يجب التقيد به، بينما في مفهوم الرحمة فهناك الإنسان مرتكزاً على القلب، وفي القلب هناك إنسانٌ آخر ملموس أتعاطى معه، وليس مجرد شخصٍ يقف أمامي وينفذُ ما يجب عليه، ولا يوجد أيّ تواصل بيننا. ومنطق قديسنا هذا منطقٌ إنجيليٌ في جذوره. وفي الشواهد الكاشفة لهذا التفريق الدقيق بين منطق العدل ومنطق الرحمة، تبرز مقارنة يسوع بالفريسيين، حيث يظهر الفرق بين المنطقين متجسداً في السلوك والفكر. ففي (مر3:1-6) هناك مثالٌ لذلك وهو شفاء الرجل ذي اليد اليابسة يوم السبت. يسوع يعرف أن السبت مقدس، وهو لا يريد تغيير الناموس. ولكنّ المشكلة في هذه الحادثة هي أنّ العلاقة بين الناموس والإنسان الملموس قد التبست وغابت. لو قرأنا هذا النص بتمعّن لوجدنا أن الإنجيلي مرقس يفسر ذلك، فقبل أن يشفي يسوعُ الرجلَ المريض يقول له قولاً مهماً وهو: "انهض في الوسط". وهكذا تحدّد أنّ الإنسان هو في المركز الرئيس وليس الناموس، الإنسان بكلّ ضعفاته وكما هو، فنحن هنا أمام ثورةٍ منطقيةٍ قام بها يسوع بسلوكه. أول نتيجةٍ لهذه الثورة المنطقية هو هذا الاتجاه الفكريّ الذي استلهمته المسيحية.

المسيحي أولاً لا يستطيع أن يدين. ولا يعني هذا أن قديسنا يطلب

منّا تجاهل الشرّ وعدم رؤيته، بل هو يفرّق بشكلٍ أساسيّ بين الحكم على الآخر وإدانته، وبين أن ترى الشر وتميّزه. ولهذا فعلى المسيحيّ أن يتصرّف مثل الله، حيث يرى الشرّ بشكلٍ واضح، ولكنّه لا يدين الشرير. ويقول القديس إسحق بأنّ هناك نصوصاً كثيرةً تدعو إلى عدم دينونة الآخرين. (لا تذكر هذا الشيء فيما يختص بالله الضابط الكل فأعمال الشر من جميع البشر أمام عينيه، وهي أوضح من الشمس أمامه. وإذا أراد أن يدين فهو يستطيع أن يدمّر العالم كلّه بنفخةٍ منه. وأنت أيّها الإنسان لم يقمك أحدٌ أو ينصّبك ديّاناً على الآخرين، بل إنّ دورك هو أن تطلب الرحمة للعالم، فتكون حارساً يقظاً يسعى إلى خلاص الجميع. وهكذا تدخل في شركةٍ مع آلام كلّ إنسان، بارّاً كان أم شريراً).

يقول القديس إسحق إن أراد الله القضاء على الشر والأشرار فيمكنه فعل ذلك دونك، ولهذا فإنّه في المرّات التي يقيم الإنسان فيها نفسه مدافعاً عن الله، فإن الله – حسب قول قديسنا – يستطيع أن يفعل ذلك أفضل مما يفعله الإنسان. وهكذا يمكن للمسيحي القيام بثلاثة أمور أولها: طلب رحمة الله لكلّ إنسان. وثانيها: أن يرجو الخلاص لكلّ إنسان. وثالثها: الدخول في شركةٍ خصوصيةٍ مع آلام كلّ إنسان. فالمسيحي بالنسبة للقديس إسحق هو الذي يقدر أن يكون في شركةٍ مع أحزان الآخرين وأفراحهم (نسكيات 58 – 60)، يقول قديسنا مخاطباً المسيحي: (كن من الذين يُضطهدون ولا تكن من المضطِهدين. كن من

المصلوبين وليس من الذين يصلبون الناس. كن من الذين يُهانون لا من الذين يهينون. كن مسالماً وليس غيوراً. ابحث عن الخير وليس عن العدالة، لأنّ العدالة غريبة عن مسالك المسيحيّ ولا نجد لها أيّ أثرٍ في تعليم المسيح. افرح للذي هو في الفرح، ولكن ابكِ كذلك مع من يبكي فهذه هي قمّة الطهارة. كن مريضاً مع المرضى وتعذب مع الخطأة. كن فرحاً للذين يتوبون، وكن صديقاً لكلّ إنسان. ادخل في شركةٍ مع آلام كلّ إنسان، ولا تلم أحداً من ذوي السلوك السيئ. غطِّ بردائك الذي يقع واستره. وإذا كنت غير قادرٍ على أخذ خطاياه أو أن تقاضى عوضاً عنه فعلى الأقلّ اقبل ألاّ تذلّه).

منطق قديسنا يستلزم السؤال التالي: إذا رأينا أحداً يخطئ فكيف يمكن أن نبقى سالمين غير مضطربين؟ وهل من الممكن أن يكون هناك تأديبٌ أخويّ؟ بحسب القديس إسحق فإنّ التأديب الإنجيليّ ممكن ولكن بالشروط الآتية:

1- قبل أن نؤدِّب الآخر يجب أن نقبله ونظهر المحبة له، فنحن لا نملك الحقّ في أن ندينه. وكما يقول القديس فإنّه يجب ألاّ نؤدب إلاّ الذي نحبه، ويجب أن نظهر هذه المحبة في التأديب لتكون أهمّ من كلامنا. ويبين قديسنا أنّ أقوال الشيوخ كثيرة في هذا الموضوع. فإذا أخذنا مثال يوحنا الفارسي نموذجاً لذلك، فإنّنا نجد أنه (في يومٍ من الأيام هاجم لصوصٌ قلاية الشيخ، وأراد تلاميذ الشيخ منه أن يوبِّخَ اللصوص على فعلتهم، ولكنّ يوحنا لم يفعل ذلك، بل أخذ ماءً وغسل

أرجل اللصوص علامةً على أنّهم ضيوفه). وهو الفعل ذاته الذي عمله الله مع يهوذا، وهكذا ظهر تصرف يوحنّا على خلفيةٍ إنجيلية. تخبرنا قصة يوحنا أنّ اللصوص تابوا دون أن يسمعوا كلمة توبيخ، أو أن توجّه إليهم إهانة.

2- يجب أن نتأكد من دوافعنا التي تحدّد إدانة الآخر وتأديبه بأنّها دوافع محبة، وليست نابعة من رغبةٍ في الانتقام منه. وذلك لأن قديسنا يعرف الإنسان وقلبه، ويعرف الإنسان الذي يؤدّب الآخر بدافعٍ خالٍ من المحبة، وممتلئ بالانتقام. ولهذا يقول القديس على الذي يريد أن يؤدِّب الآخر أن يكون دافعه المحبة وليس الانتقام.

3- من شروط صحة التأديب عند القديس إسحق أنّ على المؤدِّب أن يتألّم مع الذي يوقع التأديب عليه. وهذا الشرط يدلّ على أنّ التأديب ليس أمراً يقوم به الإنسان خارجياً، بل هو مشاركةٌ بين اثنين، ويجب أن يشعر المؤدِّب أنّه يتأدب كذلك. يقول القديس إسحق: (إذا كنت مشفقاً على شخصٍ ما، وتريد أن تهديه إلى الحقيقة، فعليك أن تتألّم ألماً كثيراً بدموعٍ ومحبة. وتتصرّف تجاهه بأن تقول له كلمةً أو كلمتين دون أن تحترق غضباً منه، ودون أن تقوم بأيّ عملٍ عدائيّ تناقض فيه المحبة. فلا تغضب أبداً لأنّ علامة المحبة هي تواضعٌ كبيرٌ يأتي من المعرفة، فتتشكّل خبرةٌ كبيرة). ولهذا فقديسنا يرى أنّه ممكن تأديب أيّ آخرٍ انطلاقاً من هذه الشروط، ومن لا يقدر على الالتزام بها فيجب ألا يؤدِّب، يقول: (انتبه ألاّ تسيطر عليك أهواء الذين يريدون أن يؤدِّبوا

الآخرين، والذين يسعون لكي يكونوا ديّانين وحكاماً للآخرين. فهذا هوىً قاسٍ جداً. في الحقيقة أقول لك إنّه من الأفضل لك أن تقع في الزنى من أن تقع في هذا المرض). وهنا يكلّم قديسنا الرهبان ويؤكد على أنّ الآباء قد ركّزوا مستنكرين الإدانة أكثر مما فعلوا بموضوع الزنى، وذلك لأنّه هو الشر بامتياز حين نحاول أن نكون ديّانين للآخرين. ونرى في رؤية القديس هذه تمييزاً ولكن إلى درجةٍ معينة. ونرى الفكرة ذاتها عند آباء البرية، فنجد أنّ أدبهم حين يتحدث عن الشرّ فإنه لا يقصد الزنى، بل الحُكم على الآخرين.

نحن لا نستطيع أن ندين أبداً، ولكننا نستطيع أن نؤدِّب ببعض الشروط، حتى نتمكن أن نتبادل الشعور مع الآخر الذي نؤدّبه. في مواضع كثيرة يُطلب من المسيحي التمييز بين الخطيئة والخاطئ. على المسيحيّ أن يكره الخطيئة ويحب الخاطئ، وليس هناك أيّ سببٍ مسيحيّ يجعلنا نكره الخطأة. والذي يكره الخاطئ هو شخصٌ تسيطر عليه الأهواء. يقول القدّيس إسحق: (هو شخصٌ لا يرى خطاياه بل يرى خطايا الآخرين فقط). وصلاة القديس أفرام السرياني تدلّ على ذلك حين يجعل الربّ سيدَ حياته وليس الهوى: (أيها الرب وسيّد حياتي...).

هذه المشاركة والتعاضد مع الخطأة هي علامةٌ على طهارة المسيحيين. وبالنسبة لقديسنا فإن طهارة القلب تظهر إذا كان الراهب أو المسيحي يشارك الآخرين مشاعرهم، وكان رحوماً بهم. ولهذا

فالقلب الطاهر بهذا المنطق ليس هو القلب الخالي من الهوى، بل هو القلب الذي يشعر مع الآخرين.

يعرض قديسنا هذا كله في النص التالي فيقول: (ما هي الطهارة؟ هي قلبٌ رحيمٌ على كلّ الخليقة. وما هو القلب الرحوم؟ هو قلبٌ يحترق من أجل جميع الناس، وكلّ الحيوانات ولأجل الشياطين كذلك. وبتذكرنا لهذه الخلائق والنظر إليها، يذوب القلب وتنهمر الدموع من العيون بسبب هذه المحبة الكبرى نحوهم. فيتعرف إليها، ويبكي من أجلها في كلّ وقتٍ. حتى للكائنات التي لا تتمتّع بالعقل (الحيوانات)، ولأعداء الحقيقة، ولأجل الذين يضطهدون الخليقة. فالقلب الرحوم يصلي أيضاً من أجل الزواحف، وذلك بسبب دفق الرحمة الكبير في قلبه، لأنه على صورة الله). والنص التالي (نسكيات81) نصٌّ مشهورٌ في أدبيات قديسنا وهو يفسّر فكره عن الرحمة. يقول القديس إسحق: (إن الإنسان يجب ألا يميز بين الآخرين حين يعمل الرحمة، بل يجب أن يمنحها للجميع. وفي محبتنا للإنسان لا يمكن أن نميز بين المسيحي وغير المسيحي. يجب أن نصلي من أجل أعداء الحقيقة (الهراطقة)، فكلّ الناس لهم الحق بمحبتنا). يعلّل القديس ذلك ذاكراً السبب بأنّ الله يفعل هذا بنفسه، لذا على التلميذ أن يفعل هذا أيضاً كمعلمه. وذلك حين نتذكر أن المحبة لا تَرِدُ عليّ من الخارج، بل هي في داخلي أنا، وليست انعكاساً للآخر. يورد قديسنا نصّاً دقيقاً في هذا الموضوع فيقول: (يجب ألاّ تحبّ الآخر وتكرهه بسبب تصرفاته، أي انطلاقاً مما يظهر عليه خارجاً،

مسيحي، هرطوقي، وثني، امرأة، رجل، ولكن يجب أن تحبّه لشخصه، بغضّ النظر عن المظهر الذي يبدو فيه للآخرين). وهنا يستخدم قديسنا تعبيراً خريستولوجياً مهماً وهو (أقنوم υπόσταση) لتعليل هذا الطلب، ويبيّن أنّ الله قد فعل ذلك لأنه يحبّ الشخص بإنسانيته، بأقنومه، بغض النظر عن صفاته الخارجية وأعماله. يقول قديسنا في عدة نصوصٍ يوضح فيها هذا الأمر: (الخاطئ يجب ألا نكرهه، بل أن نشجعه لكي يعيش). (يجب أن نتألم داخلياً للخاطئ وليس أن نكرهه). (يجب التمييز بين الخطيئة والخاطئ). (لا تكره الخاطئ فجميعنا خطأة، بل ابكِ من أجله. لماذا تكرهه؟ اكره خطاياه وصلِّ من أجله، وكن مماثلاً للمسيح الذي لم يغضب من الخطأة بل كان يصلي من أجلهم، ألم ترَ كيف بكى في أورشليم!). (الشيطان يتلاعب بنا مراتٍ كثيرة، لماذا نكره الآخر حين يتلاعب به الشيطان. فالشيطان فيه كما هو فينا فلماذا نكرهه إذن؟ هل لأنّه ليس باراً مثلك؟ أنت لا يمكن أن تكون باراً إن لم تكن تملك المحبة). (الذي لا يرحم لا يمكن أن يكون باراً). (كن هذا الشخص الذي يعلن صلاح الله لأنه هو نفسه يهب الخاطئ كما يهب البار).

وفي النهاية يعلن القديس (إن رجاء الخطأة هو في يد الله. والله وحده يمكن أن يعلن إدانة الأشخاص، وليس لأحدٍ من الناس أن يقول إنّ هذا أو ذاك ذاهبٌ إلى الدينونة).

يعلن القديس إسحق أنّ الإنسان – بهذه المقدرة التي لديه، وهي

مقدرة الحب والشعور بالآخر - هو إعلانٌ للإنجيل. وهذا يعني أنّــه في كلِّ مرّةٍ يحبّ فيها الإنسان، فهو بذلك، يعلن عن الله. الإنسان الــذي يحب هو أيقونةٌ لله. إذاً المحبة هي مطرحٌ لاهوتي (الذي يحب يشبه الله، والذي يحب يلبس المسيح).

سابعاً: المفهوم الإسخاتولوجي عند القديس إسحق

هنا نصل إلى إحدى النقاط الأكثر حساسية ودقة في فكر القــديس إسحق، لأنها مسألةٌ نُوقِشت في تاريخ الكنيسة كثيراً، وهي قضيةٌ تتخطى تفكيرنا. فهي تضم حقائق يمكن التفكير بها، ولكن ليس لــدينا شــيئاً ملموساً حولها. من هنا يبدو أنّ القديس إسحق في هذه الفكرة لا يملك الكلمة النهائية والأخيرة، ولا يستطيع الجزم في هذه المواضيع. فمن خلال دراسة فكره يتضح لنا أنه لم يكن مهتماً في أن يصنع مؤلّفاً لاهوتياً حول موضوع الإسخاتولوجيا (الأخروية). ولكن كلّ ما فعله هو أنه ذهب إلى النتائج النهائية حول خطابَيْ **المحبة والرحمة**. ويظهر أنّه يعرف جيداً أنّ ما يطرحه لا يُصنّف على مستوى الحقائق المؤكّدة، بــل إنّــه ينــدرج في مستوى الرجاء والحدس، ومعنى هذا أنّه يحاول أن ينقل مــا يتصــوره ويرجوه. يقول في بحثه في هذه الموضوعات إنّه يحاول النظر إلى الأمور من خلال عيني الله، وليس من خلال عينيه هو. إنّه يبيّن أنّنا جميعاً نتطلّع إلى الله من خلال عيوننا، وهكذا نفهمه من خلال نفوسنا. ويؤكد قديسنا أنّ هذا أمرٌ خاطئ، وهو يحاول أن يتجنبه بأن ينظر إلى الله بعيني الله نفسه.

يقول القديس إسحق مصوراً تجربته في النظر من خلال عيني الله: (بفضل الصلوات أُعطيَ لي من قبل الروح القدس أن أرى كما من خلال الضباب. لقد أُعطي لي أن أتأمل في الدينونة والآخرة وفي النهاية الإلهية). مضامين هذه التصوّرات صعبة الفهم حتى بالنسبة للإنسان الروحي.

بعد هذه المقدمة التي شرحنا فيها ملخص الملاحظات حول فكر القديس في موضوعي المحبة والرحمة، لنحاول الآن الغوص أكثر في فكره:

إن دراسة فكر القديس إسحق حول موضوعيه السابقين يكشف لنا عن عنصرين يجب إضاءتهما وشرحهما. **أولهما** أنّ الأساس الذي يقوم عليه فكر القديس هو أنّ الله محبة. والمحبة لا تتغير عند قديسنا. يقول: (الله غير متغير) والتأكيد على عدم تغير الله هو أصلٌ عام، وهو معروفٌ حتى في الفلسفة الوثنية. ولكن القديس إسحق يُعْمِل هذا الأصل العام، فيستنتج أنه إذا كان الله لا يتغير وهو محبة، فالنتيجة التالية هي أنّ المحبة لا تتغير. ولهذا فالله لديه محبةٌ واحدةٌ ورحمةٌ واحدة. وهذا ما سمح لقديسنا أن يستنتج أنّ الله محبةٌ كاملةٌ ولا تتغير مع مرور الزمن. يقول: (إذا كان الله رحوماً في الأرض، فنحن نؤمن أنّ الله لن يتغير أبداً. انتبهوا حاشا لله! أن نجدّف حول هذا الأمر، أو نشكّ به. أي أنّه لا يمكن أن نفهم أن الله يكون في أوقاتٍ رحيماً، ويتخلى عن أن يكون رحيماً في أوقاتٍ أخرى. لا يمكن أن يُفهم أن الله يملك شيئاً في وقتٍ

ما، وبعد ذلك لا يعود يملك هذا الشيء، أو يمكن أن يوجد شيءٌ يضاف إلى ما كان عنده. والنتيجة لذلك أن الله لا يمكن أن يكره أحداً). ويقول القديس بانياً على هذا الأصل الفكريّ الذي رسّخه في القول السابق ما يلي: (إذا قال أحدهم إن الله تحمّل الخطأة على الأرض هنا، وقبلهم وهم خطأة بهدف أن يعذبهم في الآخرة بلا رحمة، فمثل هذا الشخص يكون مجدِّفاً على الله. ولهذا فإنّ من التجديف كذلك القول: إنَّ الله يكنّ الحقد ولو لطبيعة الشيطان نفسه). ولهذا فقديسنا يرى أن الله قاسٍ إذا أبقانا على الأرض من دون قصاص، لكي يؤدّبنا في الحياة الآخرة.

يعرض القديس استنتاجاته من مقدماته الفكرية حيث يرى أنّه من المستحيل على الخالق الرحوم أن يكون قد خلق الخلائق العاقلة، لكي يرسلها إلى مكان العذاب الأبدي. ومادام الله محبةٌ في الأصل، فإنه لا يتغير بتغير الناس.

ثاني العنصرين اللذين يجب إضاءتهما يُستخلص من سؤالٍ يطرحه القديس: هل يمكن وجود شرٌّ أقوى من إرادة الله؟ الكتاب المقدس يقول كما نعرف أن الله لا يريد موت الخاطئ. ويستخلص القديس من حالة موت الخاطئ في الدنيا أنه لا يجوز أن نستنبط بسبب ذلك أنّ هناك شراً أقوى من إرادة الله. وذلك لأنّ محبة الله تشمل الخطأة حتى الشيطان. والله قد أحبّ الخليقة كلّها، وسيستمرّ في هذه المحبة دون تغييرٍ حتى نهاية الأزمنة. وهنا يمكن أن نصوغ سؤالاً بناءً على ما خَلُص إليه قديسنا. ما

هو مصير الخطأة والشياطين؟ الجواب اللازم لهذا السؤال حسب ما تقدم، هو أن الخطأة والشياطين مخلوقون، ومحبة الله شاملةٌ لكلّ خلقه وهي لا تتغير.

يمكن لنا أن نستنتج من كلّ هذه الأساسيّات في فكر قديسنا، أنّ الخليقة كلّها ستخلص، وستعود إلى حالتها الأولى (αποκατάσταση). وهذه الفكرة تتحدّد في أنّ كلّ شيءٍ يعود إلى الحالة الأولى، وهي فكرةٌ أُدينت في المجمع الخامس من خلال فكر أوريجنس وثيودورس المبسويستي وإفاغريوس البنطيّ. ولكنّ آباءً ثلاثةً آخرين قالوا بالفكرة ذاتها ولم يدانوا، وهم غريغوريوس النيصصي، وغريغوريوس اللاهوتي، ومكسيموس المعترف. عند الثلاثة الآخرين نجد تشابهاً في الطرح مع فكر أوريجنس، وهي من المرات القليلة التي تتفق فيها مدرستا أنطاكية والإسكندرية.

في العودة إلى فكر القديس إسحق نتلمس شَبهاً بفكر الآباء الثلاثة، مع وجوب الإشارة إلى أنّه في فكر قديسنا ميزة وخاصية. وإذا ما أردنا أن نكشف هذا الشبه بفكر الآباء الثلاثة لابدّ لنا من أن نبدأ بطرح هذا السؤال: هل لدى القديس إسحق مفهوم العودة إلى الحالة الأولى؟

سنجد بدايةً أنّ القديس لا يستخدم هذا المصطلح. فقديسنا منذ البداية يقرّ بوجود الدينونة، لوجودها في الكتاب المقدس، والذي يوضحه في فكره هو سبب الدينونة. ويقدم لنا في شرح السبب، عمقاً وغنى في فهم الأمر فيقول: (الدينونة ليست فعلاً انتقاميّاً من الله، ولكنّها

عمليّة شفاءٍ للإنسان). وهكذا فهم قديسنا أنّ الدينونة ليست ضدّ الإنسان ولكنّها لأجله. وكلٌّ واحدٍ من الناس بحاجةٍ لهذه الدينونة لكي يشفى. وفي الدينونة ستكون النتيجة هي المقياس الذي سيدان به الناس وليس العدالة. وهكذا يؤكد القديس إسحق أهمية الدينونة من حيث أنها فعل نعمة، ولو أنها قامت على الألم.

ثم يتحدث كذلك عن وجود جهنم ويقرُّ بها، ولكنه يبين أنّ جهنم ليست للقصاص ولكنها للتطهير. وهي ليست للانتقام من الإنسان، بل هي لمساعدته. كثيرةٌ هي الأقوال التي وضعها القديس في هذا المعنى، كقوله: (إذا كانت جهنم للتطهير فهي ليست أبدية. وإذا كان الهدف منها فائدة الإنسان وتطهيره فلا حاجة لأن تكون أبدية. والإله الذي يتخيل أنه سيمُضي حياته مع أولاده، وجزءٌ منهم يتعذب هو إلهٌ شرير. كيف يمكن أن يكون فرِحاً، والذين يحبهم يتعذبون عذاباً أبدياً. إن هذه الرؤية هي طريقةٌ بشريةٌ للنظر إلى الله).

بعد حديثه عن جهنم يتحدث القديس عن الألم. وهو يقول إنه ألمٌ لا يمكن تخيله، ولكنّه ينبه إلى أنّ من يكونون في جهنم لا يحتملون ما يلاقونه لأنّها آلام الحب. وآلام الحب في فكر قديسنا قاسيةٌ ومرّة، وهي تنبع من الشعور بنقصان المحبة، والذي ينتج عن هذا الشعور هو أقصى الخوف عند الإنسان. يقول قديسنا: (نتألم كثيراً عندما نشعر أننا لا نُحِب، وليس لأننا نتألم بسبب القصاص) ويقول أيضاً: (الألم الذي يصرخ في قلبنا لأننا لم نُحِب كفايةً، هو ألمٌ أقوى بكثيرٍ من أيّ ألم).

هكذا نجد أن القديس يُعلن وجود الدينونة وجهنم والآلام، ولكنه يتساءل لماذا هذا كلّه؟

نستخلص جوابه بأنّ الدينونة هي من أجل الإنسان وليست ضدّه، وأنّ جهنم هي من أجل تطهير الإنسان. وأما العذابات فهي الشعور القاسي عند الإنسان بأنّه لم يستطع أن يُحِب. وحين نطرح عليه السؤال المتردد عند الآباء الثلاثة، وهو هل أنّ الكلّ سيخلصون؟ نلاحظ وبخاصةٍ في المجموعة الثالثة، أنّ القديس إسحق في هذا الجزء يكون أكثر حذراً، ويبتدئ حذره في إجابته بأن الخليقة محاطةٌ كلُّها برحمة الله ونعمته. الله يحاول دائماً وفي كلِّ يومٍ أن يخلِّص شخصاً ما، لكن بدون كسر حريته الشخصية. فالله يحاول أن يوجد مخططاً ليخلص الإنسان دون سلبه لحريته، ودون أن يرغمه على ذلك. وهذا المخطط يمكن أن يعمل في الإنسان عبر توبته. فعندما يرى الله أن الإنسان قد تاب، فمعنى هذا أن البرنامج يمكن أن يعمل من خلال التوبة ليخلِّص اللهُ الإنسانَ.

وكما هو الأمر في الواقع، ففي بعض المرات يتكوّن عند الإنسان مجرّد شعور بالتوبة، وحينها يتدخل الله من خلال هذا الشعور، علّه يستطيع أن يخلّص الإنسان من خلاله. وفي مراتٍ أخرى من الممكن أنّ تكون صلوات الآخرين السبيل الذي يستعمله الله لخلاص الإنسان. ويوسِّع القديس هذه المعاني من خلال ذكره لفوائد الصلاة في تحقيق الخلاص حتى للمائتين. ولهذا فعندما نذكر الأموات في القداس الإلهي، يجب أن يكون ذكراً فعَّالاً ليساهم في خلاصهم. ويعيد القديس هذا

كله إلى أن محبة الله قادرةٌ على أن تجد السُبل والوسائل لكي تخلّص كلَّ البشر.

ويبرز أمامنا من خلال حديث القديس عن خلاص البشرية كلّها أمران مهمان. **أولهما**: أن خلاص البشرية كلّها ليس عودةً إلى الحالة الأولى، أو رجوعاً لما كان عليه الإنسان. ولكن ما يتشكل في هذا السياق هو تجلٍ للتاريخ بحسب رغبة الله وإرادته. ولهذا لا يَرِدُ في خطاب قديسنا مصطلح (αποκατάσταση)، ولكنّه يستخدم مصطلحي التجلّي والتألّه. وهكذا يبدو الإنسان - بكلٌ ضعفاته وشعوره بما هو عليه في فكر قديسنا - مدعوّاً إلى الكمال، ويحلم هو به. يقول القديس: (حتى الجسد سيُمجد، وسيصير أبهى وأجمل مما كان عليه. وكذلك المشاعر الإنسانية الجيدة ستبقى ولن تدمر). وبهذا المعنى لا يوجد فناءٌ للخليقة.

ثانيهما: أنه يجب أن ننتبه إلى أن القديس إسحق لا يقول لنا: إنَّ هذا الذي حدثتكم به هو الحقيقة، بل يقوله من منطلق الرجاء والتمني. يقول القديس: (إنّ الذي أتكلم به هو ناتجٌ من خبرتي الشخصية مع الله الذي لم يجازني، ولم يقاصصني. وأنا أحاول أن أرقُبَ ما سيصنع الله مستقبلاً. ولهذا لم تكن خبرتي مع الله كمقاصصٍ لي، ولهذا فأنا لا أستطيع أن أتكلم عن إلهٍ كهذا). ومن هنا فإن خبرة القديس مع الله قد أظهرت دور الصلاة والرجاء بالنسبة له. ولهذا يرى أن المسيحي هو الإنسان الذي يرجو خلاص الجميع، ويصلّي من أجل خلاص العالم.

يقول: (المسيحي هو من يرجو ويصلي من أجل أن يخلص كلّ العالم).

لقد عانى القديس إسحق السرياني كثيراً من جرّاء هذه التعاليم، ووعى مخاطر فكره على جهادات النفس. وقد ظهر ذلك مراتٍ عديدة في كتاباته حين يقول: (انتبهوا! أنا لا أريد أن أدافع عن الخطيئة لدفعكم إليها، بل ما أريده هو أن أُعظمَ رحمة الله التي لا تحد).

يشكل القديس هنا تصنيفاً للناس في علاقاتهم الروحية بالله، ويتساءل كيف يمكن أن يصنَّف الناس حسبها. فيرى أن العبد هو من يفعل شيئاً ما خوفاً من المقاصصة والعقاب. وأما الابن فهو يفعل شيئاً ما لأنه يحب الله ولا يريد جرح محبة الله. يقول القديس إسحق: (إذا كان العذاب مؤقتاً، فلنخطئ لأننا لا نستطيع الهرب من الخطأ)، ويجيب مصنفاً هذه الفكرة بأنها من طريقة تفكير العبد، وليست نابعة من تفكير الأبناء. ويتابع قائلاً بأنّه إذا كان سلوكك يقوم على خوفك من القصاص النهائي وتسلك مستجيباً للخارج، فأنت تعيش كعبدٍ، ويجب عليك أن ترتقي بحياتك الروحية لتصل إلى مرحلةٍ أكثر تقدمّاً.

ويستنتج من ذلك أنّنا يجب أن نفعل ما نفعله محبةً لله، وليس بسبب الخوف من قسوته. وهكذا فالقديس إسحق لا يمحو أسس الحياة الأخلاقية، ولكنه يوجِد لها قاعدةً أعمق وأمتن. وهذه القاعدة هي الرغبة في عدم جرح الحب الإلهي، وهي الرغبة التي تمنع النفس من السقوط في الخطيئة. هكذا تظهر فضيلة التقدم الروحي الذي دعا له القديس، وهو ما يستقيم معه مفهوم الخلاص للجميع. وخلاص الجميع

لا يدعو الجميع أن يسلكوا سلوكاً غير أخلاقي، ولكنه يعمّق المسّرى الأخلاقيّ لديهم.

وبهذا المنطق يعرض القديس فكره كاشفاً أنّ التوبة الحقيقية عند ذلك تنبع من القلب، وذلك لأننا فهمنا محبة الآب لنا فعملنا حسبها، وليس لأننا نخاف من الدينونة. وهكذا يؤكد قديسنا أنّ المسيحيّ الذي صار ناضجاً لا يحتاج فعله إلى التهديد. فيقول في صلاةٍ له موجِّهاً نداءه نحو الله: (أنا أقترب منك بسبب صلاحك وعطاياك، وليس بسبب خوفي منك). وهكذا لا تبدو نظرة قديسنا إلى الأمور الأخروية **عقائدية**، بل هي نظرةٌ صلاتيةٌ روحيةٌ رجائية، حينها تتعزز في فكر القديس الأخلاق والجهادات وتبقى قائمةً وفاعلة.

الخلاصة:

القديس إسحق السرياني أبٌ كبيرٌ في الكنيسة، وسيبقى أحد آبائها الكبار. وهذا لا يعني أنّ المطلوب منّا أن نكون "إسحاقيين"، وذلك لأنّ أسوأ ما نقدّمه لأبٍ من آباء الكنيسة هو أن نتعصّب لفكره. ولهذا فنظرتنا للقديس إسحق، كما هي لجميع الآباء القديسين، هي أنّهم رجال الله الذين حاولوا عيش خبرةٍ روحيةٍ مع الله. ولهذا فإنّ كتاباتهم التي وصّفت خبرتهم لم تكن لمحاولة تقديم خلاصات عقائدية، أو وصفات روحيّة لحلّ مشاكلنا. إنهم يطلبون منّا الدخول في حوارٍ معهم، على اعتبار أنّهم أحياء من خلال كتاباتهم، وأنّ بإمكانهم أن يساعدونا

بخبراتهم التي اكتنـــزوها من الطريق التي ساروا فيها. ولو أخذنا القديس إسحق مثلاً تطبيقياً لوجدنا أنّه أكثَرَ من قراءة الكتاب المقـــدس الـــذي أفاده في طريقه. ولهذا فهو يدعونا لاستخدام ذكائنا عندما نقرأ الكتاب المقدس، أو عندما نقرأ كتابات الآباء، وبذلك نستطيع أن نبني فكرنـــا المستقل.

في قراءتنا للقديس إسحق أو لأيّ أبٍ آخر، سنجد نقاطاً مشتركة، وأخرى مختلفة، والكثير منها يكون متكاملاً. ولهذا فإنّ طريقنا المحدّد هو ما يجب أن نجده وسط ذلك كلّه. وسأُقدم على ذلك مثلاً لأمـــرٍ قـــد يصادفكم. تمرّون على قولٍ لأحدهم يصوغه على الشكل التالي: (آبـــاء الكنيسة يقولون...). ما يجب أن تنتبـــهوا إليـــه أنّ آبـــاء الكنيســـة متعدّدون، وليسوا يسيرون على نمطٍ واحد. بل إنّ الدقّـــة تقتضـــي أن تنتبهوا إلى أنّ القديس يشهد تطوّراً خلال مراحل حياته. وفكره يمكـــن أن ينيركم وهو يعبّر عن خبرة القديس، ولكنّه في مراتٍ كثيرةٍ يحتمل أن يحمل هذا الفكر خطأً تمّ إصلاحه في تطوّر فكر القديس. ولهذا فعلاقتنا بهم هو أن نتطلّع إليهم بتعدّديتهم، مما يجعل اســـتفادتنا منـــهم أشمـــل. وهـــم – من خـــلال علاقتنا بهم – سيكونون مرافقين لنا في مسيرتنا وسفرنا الحياتي، لأنّ هذه العلاقة تسمح لهم بمساعدتنا.

أتمنّى أن أكون قد حقّقت خلال هذه المحاضرات عرضاً بسيطاً أمـــام أعينكم للقديس إسحق، وأمنيتي أن يكون هذا الذي قدّمته قد أوجد الرغبة

في قراءة هذا الكتاب[37]، الذي لم يكن هدفي فيه أن ألخّص فكر قديسنا، بل أن أقدّمه لكم لكي تقوموا أنتم بتذوّقه من خلال قراءتكم الشخصيّة. ولهذا فأهم ما أطمح إليه هو أن تقرأُوه منفردين وتتعمقوا فيه.

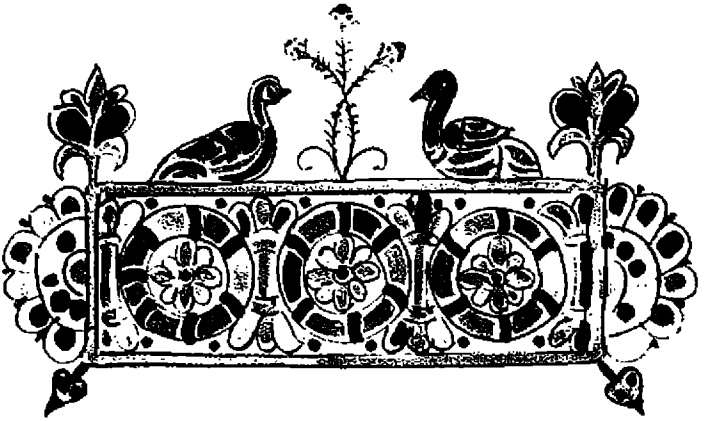

37- S. Chialà, Dall'ascesi eremitica alla misericordia infinita. Ricerche su Isacco di Ninive e la sua fortuna, Olschki, Firenze 2002.

بين الوحدة والشركة

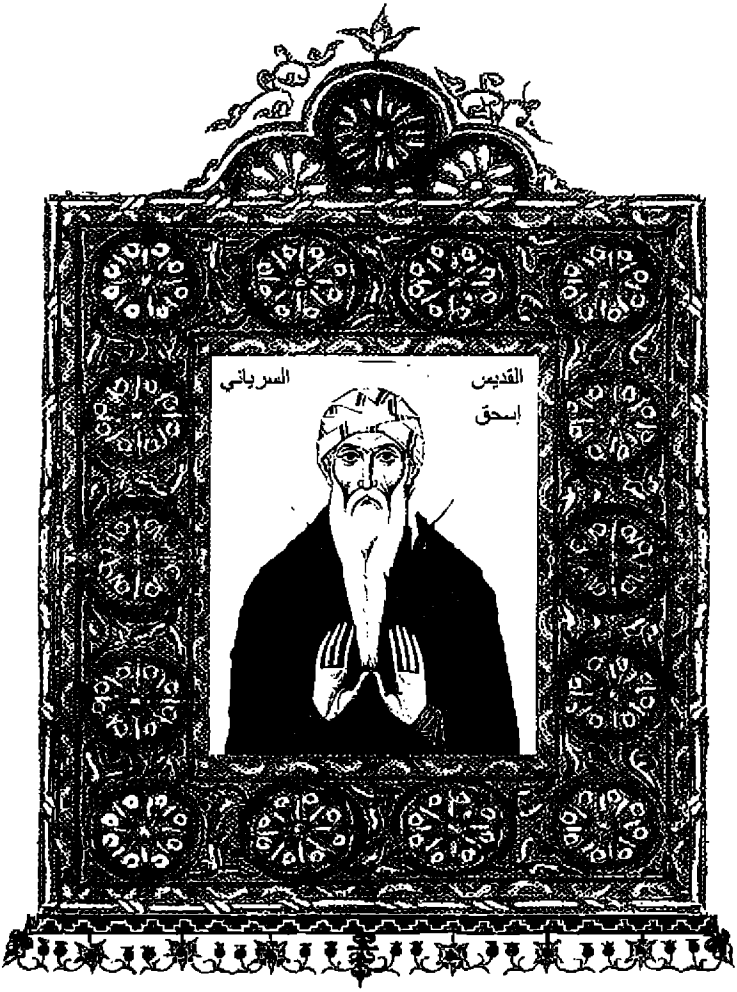

إسحق النينوي وتعليمه، بين الوحدة والشركة†

عاش القديس إسحق السرياني، المعروف أيضاً بإسحق النينـــويّ، خلال النصف الثاني من القرن السابع للميلاد في منطقةٍ تقع اليوم بـــين قطر، إيران والعراق[1]. سيم راهباً متوحّداً ومن ثمّ أسقفاً بين عامي (676 - 680م) في الكنيسة السريانيّة المشرقيّة التي، لأسباب سياسيّة أكثر منـــها لاهوتيّة[2]، بقيت خارج الشركة مع الكنائس المسيحيّة الأخرى وذلـــك منذ منتصف القرن الخامس للميلاد[3]. أي منذ مولد القديس إسحق، لم تعد كنيسته على شركةٍ قانونيّة مع الكنائس المسيحيّة المتواجدة آنذاك في

† محاضرة للراهب سابينو خلال مؤتمر عُقد في دير (بوذه) في إيطاليا بعنوان (حياة التوحد والشـــركة في الكنيســـة الأرثوذكسية) أيلول 2010. وكانت هذه المحاضرة في ذكرى غياب الراهب أندريه لوف. (الناشر)

1- لعرضٍ شاملٍ حول القديس إسحق النينوي، وحول بيئته وفكره وإشعاعه، مراجعة كتابي:

Dall'ascesi eremitica alla misericordia infinita. Ricerche su Isacco di Ninive e la sua fortuna, Olschki, Florence 2002

أمّا حول فكره، فبالإمكان مراجعة: Ilarion Alfeev, *L'univers spirituel d'Isaac le Syrien.*

الذي ترجمه من الروسيّة إلى الفرنسيّة:

A. Louf, Abbaye de Bellefontaine, Bellefontaine 2001 [Spiritualité Orientale 76]

2- لقد عولجت هذه المسألة موخّرًا في دراساتٍ عديدةٍ اعتمدت على وثائق تاريخيّة موثوقة. يرجى الرجوع بشكلٍ أخصّ إلى:

S. Brock, *The Christology of the Church of the East in the Synods of the Fifth to Early Seventh Centuries: Preliminary Considerations and Materials*, dans *Aksum - Thyateira. A* Festschrift *for Archbishop Methodios of Thyateira and Great Britain*, Dragas, Londres 1985, pp. 125-142 (réimpr. dans *Studies in Syriac Christianity*, Variorum Reprints, 1992); Id., "L'Église de l'Orient dans l'Empire sassanide jusqu'au VI^{e} siècle et son absence aux conciles de l'Empire romain", dans *Istina* 40 (1995), pp. 25-43; B. Soro, "La théologie de l'Église d'Orient", in *Istina* 40 (1995), pp. 121-139.

3- كنيسة المشرق الآشوريّة منقسمة حاليًا إلى مرجعيّتين كنسيّتين واحدة في بغداد والثانية في شيكاغو (الولايات المتحدة الأميركيّة) بالإضافة إلى الكنيسة الكلدانيّة الكاثوليكيّة المتحدة بروما.

حدود الإمبراطوريّة الرومانيّة. يأتينا، إذاً، هذا "الأب" من تقليدٍ كنسيّ خاص لم يكن يحظى دائماً على رضى الكنائس الأخرى. على الرغم من ذلك، قُبلت تعاليمه على الدوام وقُدِّرت لأنّها ثمرة قداسةٍ آتيةٍ من عالمٍ آخر أقرّ بها الجميع. لذلك ما زال القديس إسحق يشكّل تحدّياً لنا جميعاً، تحدّياً يأتينا من الروح القدس نفسه الذي عمل من خلال القديس إسحق. نظراً لانتمائه الكنسيّ ولقداسته، ألا يجدر بنا أن نتساءل عن محدوديّتنا اللاّهوتيّة وأن نعيد النظر أيضاً بمفهومنا الجامد لحدود كنائسنا القانونيّة؟

كان إسحق صوتاً وحيداً نال تقدير التقاليد المسيحيّة كلّها ممّا جعله ظاهرةً فريدةً. إنّه من الآباء الذين قرئت كتاباتهم وقُدّرت أكثر من أيّ أبٍ كنسيّ في الشرق والغرب كما وأنّ كتاباته انتشرت بشكلٍ واسعٍ ومسكونيّ بين المسيحيّين كلّهم دون استثناء: الكنائس الشرقيّة القديمة غير الخلقيدونيّة (السريان الغربيّون، الأقباط والأحباش)[4]، الكنائس الآتية من التقليد البيزنطيّ حيث تُرجمت كتاباته للتو إلى اليونانيّة والعربيّة ثمّ إلى الكرجيّة والسلافونيّة والرومانيّة، الكنائس ذات التقليد اللاّتينيّ حيث تُرجم القديس إسحق النينوي إلى اللاّتينيّة من اليونانيّة وذلك ابتداءً من القرن الثاني أو الثالث عشر، ثمّ بعد عشرات السنين إلى الإيطاليّة

4- يبدو أن الاستثناء الوحيد هو في الكنيسة الأرمنيّة حيث يظهر أنها لم تحتفظ بترجمات لكتابات القديس إسحق في لغتها. إلاّ أنّه علينا أن نتأكّد أوّلاً إذا لم تنتشر كتاباته تحت أسماء مستعارة كالقدّيس أفرام.

والفرنسيّة والإسبانيّة والكاتالانيّة والبرتغاليّة[5]. صار القديس إسحق إحدى دعائم الحياة الروحيّة المسيحيّة، لا سيّما الرهبانيّة منها وقد ساهمت تعاليمه بتغذية مراحل التجدّد أو النهضة الرهبانيّة في كلّ مكان. ففي العالم الإغريقيّ يكفي أن نستذكر أهميّته حين تثبّتت الحركة الهدوئيّة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. وكذلك حين انتعشت مجدّداً الحركة الرهبانيّة في جبل آثوس، في القرن العشرين، إنطلاقاً من الراهب يوسف الهدوئيّ (1898-1959م) الذي جعل من القديس إسحق كتاب تعليمه الأساسيّ كما ذكر أحد تلاميذه[6]. أمّا عند الأقباط، فيمكننا أن نفكّر في المساهمة المهمّة التي قدّمها القديس إسحق في النهضة الروحيّة في وادي النطرون، أو ما كان يُعرف قديماً بالإسقيط، في النصف الثاني من القرن الماضي. ولقد ثمّن العالم اللاّتينيّ أيضاً تعاليمه كما يتبيّن لنا من المخطوطات العديدة والنسخات المطبوعة من كتاباته، لاسيّما الإيطاليّة منها، وذلك ما بين القرنين الرابع عشر والثامن عشر. ولقد لاقت كتاباته رواجاً كبيراً في الكثير من الأوساط حتّى أنّ بعض التقاليد الكنسيّة جعلت منه، بوعي أو بغير وعي، أباً ينتمي إلى عالمها. فاعتبره اليونانيّون، مثلاً، بيزنطيّاً أتى من منطقةٍ غير مُحدّدةٍ عند تخوم الإمبراطوريّة. وقد أبرزه الأقباط كراهبٍ عاش في مصر، في صحراء

5- حول مدى انتشار تعاليمه التي سنفصّلها لاحقًا، أنظر:
Dall'ascesi eremitica alla misericordia infinita, pp. 283-361; S. Brock, "From Qatar to Tokyo, by way of Mar Saba: The translations of Isaac of Beth Qatraye (Isaac the Syrian)", dans Aram 11-12 (1999-2000), pp. 475-484.

6- يوسف الفاتوبيذي (+2009م): Joseph de Vatopaidi, *L'Ancien Joseph l'Hésychaste*, Cerf, Paris 2002, p.134.

الإسقيط. أمّا اللاّتين فاعتبروه ناسكاً "مشرقيّاً" عاش بالقرب من "سبولِتو" في وسط إيطاليا. ولقد كانت هذه القناعة راسخة بعمقٍ إلى حدّ أنّه عندما اكتشف الراهب العلاّمة أمبروسيوس ترافرساري (1386-1439م) في روما نسخةً يونانيّة للقديس إسحق من بين المخطوطات البابويّة، كتب إلى أخيه رسالةً عبّر فيها عن دهشته لأنّه لم يكن يتخيّل أنّ كتابات القديس إسحق يمكن لها أن تُترجم إلى اليونانيّة. بالنسبة إليه، لم يكن باستطاعة القديس إسحق إلاّ أن يكتب باللاّتينيّة[7].

ولكن ما هي أفكاره التي جذبت هذا القدر من الناس وأذهلتهم طيلة هذه القرون؟ في المجموعات الثلاث التي وصلت إلينا[8]، يعالج

7- أنظر:

C. Somigli – T. Bargellini, *Ambrogio Traversari, monaco camaldolese. La figura e la dottrina monastica*, EDB, Bologna 1986, p. 223.

8- بحسب المصادر، يبدو أنّ القديس إسحق كان يكتب إلى تلاميذه أو يملي عليهم "أجزاءً" أو "أقساماً" ممّا صار يُعرف بمجموعات الخطب التي أعادوا بدورهم نقلها. وبحسب ما توصّلت إليه الأبحاث المعاصرة، وصلت إلينا ثلاث مجموعات: تتألّف الأولى منها من 82 خطاباً، وهي الأكثر شهرةً. ولقد ترجمت منذ البداية إلى معظم اللغات التي كان يتكلّم بها المسيحيّون. لقد نشر P. Bedjan النصّ السريانيّ عام 1909 في باريس ولايبزيغ تحت عنوان:

Mar Isaacus Ninivita, *De perfectione religiosa*

ولقد ترجم كاملاً إلى اللغة الإنكليزيّة:

Mystic Treatises by Isaac of Nineveh, A.J. Wensinck, Koninklijke Akademie van Wetenschappen, Amsterdam 1923; *The Ascetical Homilies of Saint Isaac the Syrian*, Holy Transfiguration Monastery, Boston 1984.

أمّا ترجمات J. Touraille و P. Deseille الفرنسيّة فقد نُقلت عن النسخة اليونانيّة. وفي اللغة الإيطاليّة لا توجد لدينا سوى ترجمة جزئيّة: وهي عبارة عن المجموعة الثالثة، وهي الآن قيد الترجمة إلى العربية. (الناشر)

Isacco di Ninive, *Discorsi ascetici* / I. *L'ebbrezza della fede*, par G. Maria – P. Bettiolo, Città Nuova, Roma 1984 [Collana di Testi Patristici 44]

تتألّف المجموعة الثانية من 41 خطاباً، يحتوي الثالث منها على أربعة "مئويّات المعرفة". إنّ الترجمة الإنكليزيّة:

Isaac of Nineveh (Isaac the Syrian), *'The Second Part', Chapters IV-XLI*, S. Brock, Peeters, Leuven 1995 [CSCO 554-555].

تحتوي على النصّ السريانيّ للخطابات 4-41. أمّا الترجمة الفرنسيّة لـ André Louf فهي كاملة. وهناك ترجمات

القديس إسحق معظم جوانب الحياة الروحيّة. ممّا لا شكّ فيه أنّ شموليّة الموضوعات التي تطرّق إليها هي التي أدّت به إلى هذه الشهرة. وبالرغم من نقصٍ ظاهرٍ في تقسيم الموضوعات إلاّ أن شموليّتها تكشف عن تناسقٍ تفسيريّ عبّر عنه الأب المعاصر باسيليوس من دير الإيفيرون الآثوسيّ، وهو أحد المعجبين الأشدّاء بالقديس إسحق حين كتب:

"إذا ما أردنا التشديد على قولٍ من أقواله، علينا أن نشدّد عليها كلّها... وإذا أردنا، بعد قراءةٍ أولى، أن نبرز فكرةً ما، نكتشف، من خلال قراءةٍ ثانية، أنّ ما وضعناه جانباً كان الأهمّ. إنّه يفقدنا الصواب. معه، نجد أنفسنا في مناخٍ آخر، في منطقٍ مختلفٍ وفي عالمٍ آخرٍ حيث كلُّ شيءٍ متقارب. إنّه دقيقٌ بدقّة الرياضيّات، وعذبٌ بعذوبة الموسيقى، ومتكاملٌ كعملٍ هندسيّ، وعميقٌ كالفلسفة، ومليءٌ بالحسّ النبويّ وإنسانيّته متألّهة. إنّ خطابه كلّه يدلّ على النضج. يطفح منه عطر التوبة. من يقرأه يحبّه ولا يقدر أن يقرأ شيئاً آخر"[9].

ولكن عندما ننظر عن كثبٍ إلى فكره نجد أنّ هناك عنصرين جذبا، أكثر من غيرهما، انتباه المفسّرين وأظهراه كمعلّمٍ وهما حياة التوحّد

يونانيّة ورومانيّة وإيطاليّة حديثة. وتتألّف المجموعة الثالثة من 17 خطاباً، ثلاثة منها موجودة في المجموعتين السابقتين. إنّ النصّ السريانيّ لهذه المجموعة هو في طور الإعداد للنشر. هناك ترجمة إيطاليّة قام بها الراهب سابينو من دير Bose وأخرى فرنسيّة قام بها الراهب André Louf من دير Bellefontaine.

9- الأرشمندريت باسيليوس وكتابه (عوالم القديس إسحق السرياني) الذي تُرجم من قبلنا حيث تجدونه في الفصل الثاني من هذا الكتاب. (الناشر)

Archimandrite Vasileios, *Abba Isaac the Syrian, An Approach to his World*, Alexander, Montreal, 1997 (Mount Athos Series 5).

(hesychia) ومحبّة المخلوقات كلّها والشعور معها (compassion). يشكّل هذان العنصران قطبَيْ تأمّلاتنا في هذه المداخلة: التوحّد والشراكة. يُعتبر القديس إسحق مرجعاً لا نقاش فيه في هذين الموضوعَين ليس فقط بحدّ ذاتهما ولكن بسبب ترتيبهما وعلاقتهما الوطيدة والمترابطة. إنّ التوحّد، عنده، هو بمثابة تمرين على الشركة والشراكة الكونيّة تأتي كنتيجةٍ للتوحّد الأصيل.

إنّ التوحّد والشراكة، بالنسبة للقديس إسحق، يتلازمان معاً بالضرورة ولا يقصي أحدهما الآخر لأنّ كلاًّ منهما يشهد لأصالة الآخر. إنّ باستطاعة التوحّد، لا بل يجب عليه، أن يترافق مع المحبّة (compassion) الكاملة والعميقة والظاهرة. إنّ محبّةً كهذه هي العلّة النهائيّة لوجود التوحّد. أمّا الحفاظ على التوحّد فيقتضي تنمية روح التعاضد مع الكون وتعميقه ولا يعني أبداً التخلّي عنه. من هذا المنطلق فقط نستطيع أن نفهم دعوة القديس إسحق التالية: (كن صديقاً للجميع ومتوحّداً في فكرك اتّحد مع آلام كلّ واحدٍ ولكن ابقَ بعيداً جسديّاً عن كلّ واحد)[10].

سوف نقوم الآن باستعراض سريع لكتابات القديس إسحق النينويّ محاولين أن نبرز أهمية العلاقة الوثيقة بين التوحّد والشراكة وارتباطهما المتبادل أكثر ممّا سنتكلّم على كلّ موضوع منهما في حدّ ذاته. ولكن قبل الولوج في كتابات القديس إسحق يجدر بنا أن نلقي نظرةً على

10- المجموعة الأولى، الخطاب 50.

حياته وعلى نوع الرهبانيّة التي انتمى إليها لأنّه يبدو لي أنّنا نجد فيها مثالاً حيّاً لما يتأمّل به في فكره ويعرضه علينا في كتاباته.

كيف عاش القديس إسحق حياته الرهبانيّة

لقد اتّخذت الرهبنة في التقليد السريانيّ أشكالاً متنوّعةً ابتدأت مع "أبناء العهد"، في ما يُعرف بالحقبة ما قبل الرهبانيّة (حيث كان غير المتزوّجين يجتمعون في جماعات صغيرة في المدن مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالكنائس المحلّيّة)، ووصلت إلى الأشكال النسكيّة القصوى كمثل العامودييّن والمتوحّدين الذين ازدهرت أنماطهم بالأخص في شمال سوريا الحاليّة. من جهةٍ أخرى، شهدت القرون الأولى أشكالاً من الحياة الرهبانيّة التي نسمّيها في تصنيفاتنا التقليديّة بـ "الجماعيّة" (cénobitique) والـ "نسكيّة" (érémitique) أو النصف نسكيّة. وفي زمن القديس إسحق عرفت الرهبنة السريانيّة ذات التقليد الشرقيّ حركة إصلاحٍ ونهضةٍ حقيقيّةٍ بفضل الراهب والمؤسّس إبراهيم القشقريّ (+586م) الذي طبع الرهبنة السريانيّة الشرقيّة بطابعٍ خاصٍّ جدّاً لاسيّما من خلال المبادئ والقواعد التي وضعها. ويشكّل القديس إسحق، ومع عددٍ لا بأس به من الوجوه الرهبانيّة الكبيرة في العصر الذهبيّ للحركة النسكيّة السريانيّة الشرقيّة، أحد أبناء هذا "التجديد" للرهبنة.

لقد واجه إبراهيم القشقريّ انحرافات نسكيّةً محدّدةً كانت موجودةً في الرهبنة المعاصرة له وقد أدانتها أيضاً مجامع الكنيسة السريانيّة الشرقيّة.

وكان النموذج الرهبانيّ الذي اقترحه والذي حاول أن يطبّقه في ديره على جبل "عزلة" يهدف إلى تصحيح هذه الانحرافات. لن نتوقّف كثيراً هنا على تفاصيل هذه الإصلاحات ولكنّنا، للتبسيط الشديد، يمكننا القول إنّ إبراهيم عرض "شكلاً رهبانيّاً" قادراً على أن يعيش حياة التوحّد والسكون بشكلٍ أعمق وأكثر أصالة من نموذج رهبانيّ صخب، كان يتدخّل في أمور الدنيا ممّا كان يمنعه عمليّاً من أن يختبر بُعد التوحّد في الحياة الرهبانيّة. كما أنّه، في المقابل، أوصى بالمحافظة على المكانة المركزيّة للحياة الجماعيّة أي بتكريم بُعد الشركة في الحياة الرهبانيّة والإبقاء على حياة الشركة مع الكنيسة المحليّة وأسرارها وهي مسألةٌ دارت حولها نقاشاتٌ في بعض التيّارات الرهبانيّة في تلك الحقبة.

ولقد نتج عن ذلك نموذج رهبانيّ يعيش فيه الرهبان حياةً مشتركةً أو جماعيّةً (cénobitique) ولكنّه، حسب مقاييسنا التقليديّة، هو أقرب إلى ما يمكن تسميته بـ: "نصف التوحّد" (semi-anachorétique). فبعد أن يمضي هؤلاء الرهبان السنوات الثلاث الأولى في الـ "سينوبيوم"، أي في القسم المركزيّ من أبنية الدير، كانوا ينسحبون ليعيشوا في مناسك تقع بالقرب من المركز وكانوا يعودون إلى الدير لاجتماع السبت مساءً وغداء يوم الأحد ولمناسبة بعض الاحتفالات التي كانت تقع خلال الأسبوع. نرى إذاً أنّ طابع التوحّد كان هو الغالب ولذلك، بحسب تصنيفاتنا، يمكننا القول: إنّه نموذجٌ "رهبانيّ نصف متوحّد" أو ما يُعرف بالـ "لافرا". ولكن من الواضح أنّ تصنيفاتنا التي

تحاول تقسيم إنجازات الحياة الرهبانيّة المتعدّدة، القديمة منها والحديثة، إلى أنواعٍ مختلفةٍ (جماعيّة، متوحّدين، نسّاك... إلخ) قد أثبتت محدوديّتها. لا شكّ في أنّ هذا التصنيف قديم ولكنّه، عمليّاً، غير ملائمٍ كما هي الحال في "الدير الكبير" الذي أسّسه إبراهيم القشقريّ.

لقد اعتبر رهبان إبراهيم أنفسهم على أنّهم ينتمون إلى الرهبنة "الجماعيّة" على كافّة الأصعدة. إلاّ أنّه، وفي وقتٍ لاحق، أوجد هذا التقليد لنفسه مرجعاً "باخوميّاً" (نسبةً إلى القدّيس باخوميوس) عندما نُسب أصول تأسيس الرهبنة السريانيّة الشرقيّة إلى تلميذٍ لباخوميوس هو مار أوجين الذي يُعتقد أنّه أتى من مصر ليستقرّ على سفوح جبل "عزلة". إذاً لدينا هنا نموذج رهبان ديريّين يحيون في التوحّد، ممّا لا يتناسب وتصنيفاتنا. وهذا ينطبق على نماذج متعدّدةٍ في سياقات أخرى في الشرق والغرب، على حدٍّ سواء، لا سيّما إذا ما نظرنا بتمعّنٍ أدقّ إلى المضمون عوض التوقّف عند الشكل.

هناك بعض الإشارات التي تدلّ على فهم هؤلاء الرهبان لذاتهم الذين اعتبروا أنفسهم "ديريّين متوحّدين"، أي رهباناً يعيشون في الدير ويقضون جزءاً من وقتهم في التوحّد. سأكتفي هنا بذكر مثل واحد: عند وفاة إبراهيم، خلفه الراهب "داديشوع" على رأس الرهبنة. وفي فترةٍ وجيزةٍ بعد انتخابه كتب سلسلةً جديدةً من القواعد التي أضيفت على قواعد المؤسّس. تتألّف مقدّمتها من اعتذارٍ طويلٍ للمؤلّف الذي يبرّر هذه القوانين الجديدة مكرّراً أنّه لا يعني بها تصحيح تعاليم إبراهيم

ولا الإيحاء بأنّها كانت غير كافيةٍ ولكنّه، بحسب قوله، اضطرّ أن يتدخّل لأنّ (متطلّبات الجماعة مختلفةٌ عن حاجات من يعيش في التوحّد). إنّ النمط الرهبانيّ للدير الكبير لم يتغيّر حيث أنّه، في هذه الحقبة، كان لا يزال يعمل على الإيقاع الأسبوعيّ الذي ذكرناه. ولكنّ داديشوع اعتبر أنّ هذا الشكل بالذات هو شكلٌ جماعيّ.

ينتمي القديس إسحق إلى هذا التقليد بالذات ولا يمكن فهم رسالته بدقّةٍ دون أخذ هذه التعقيدات بعين الاعتبار. هل كان القديس إسحق ناسكاً، نصف متوحّد أم ديريّاً؟ إنّه ببساطةٍ "إحيدايا"، وهي كلمةٌ ملتبسةٌ لأنّها تستعمل للدلالة على "الراهب" (وهي توازي الـ "موناخوس" في اليونانيّة) كما على "المتوحّد". إنّ الكلمة بحدّ ذاتها تعني بالتأكيد "المتوحّد" ولكنّها ليست متناقضة مع "ديريّ" كما يحلو لنا أن نردّده بطريقةٍ غير دقيقةٍ. وللإيجاز يمكننا القول إنّ طريقة العيش التي صمّمها إبراهيم وعاش حسبها القديس إسحق هي خبرةٌ رهبانيّةٌ "جماعيّة" تترك فسحةً للتوحّد وتعتبر أنّ الوحدة هي بمثابة عنصرٍ ضروريٍّ وجوهريٍّ للحياة في الشركة. وبالتالي فإنّ الشركة والتوحّد ليسا شكلين متمايزين، أو طريقين متوازيين يستثني أحدهما الآخر (بمعنى أنّه يجب الاختيار بين هذا أو ذاك)، بل إنّهما عنصران جوهريّان للحياة الرهبانيّة حيث يمكن أن تختلف المعايرة بينهما حسب الأمكنة والأزمنة. إنّ الخبرات المحسوسة المتعدّدة هي التي سوف تميّز بين الشركة والتوحّد حيث أنّها ستوجد تعابير مبدِعة نجد صعوبةً في تصنيفها بشكلٍ دقيقٍ

ونهائيّ. فضلاً عن ذلك، إذا ما درسنا بانتباهٍ سير الرهبان كلٌّ على حِدى، نستنتج مدى الصعوبة التي نجدها في تصنيفهم لأنّهم غالباً ما ينتقلون من الدير إلى حياة التوحّد ومن ثمّ يعودون إلى الدير. والبعض، عندما تسنح الفرصة، يقوم بنشاطٍ من نوعٍ تبشيريّ.

ليس هناك من حياةٍ رهبانيّةٍ تكون فقط "جماعيّة" من دون خبرةٍ حقيقيّةٍ للتوحّد الذي يجب أن يقترن بمكانٍ حسّيّ. كما أنّه ليس هناك من حياة توحّدٍ بمعزلٍ عن علاقاتٍ أصيلةٍ تذهب أبعد من الارتباط القانونيّ والشكليّ الرسميّ للجماعة. بمعنىً آخر، إنّ الخبرة الحسّيّة التي عاشها القديس إسحق تبيّن لنا كيف أنّ التوحّدَ هو عنصرٌ عضويٌّ في حياة الجماعة والشركةَ هي مسلّمةٌ جوهريّةٌ في حياة التوحّد. هذا ما سيتّضح لنا من خلال كتاباته.

تعليم القديس إسحق في التوحّد والشركة

حسب ما سبق وقلنا عن شكل الحياة الرهبانيّة التي اتّبعها القديس إسحق، يبدو واضحاً أنّ التوحّد لعب دوراً أساسيّاً فيها إذ أنّ هؤلاء الرهبان كانوا يمضون معظم وقتهم في قلاّياتهم. إنّنا نجد في كتاباته كلّها مقاطع يمتدح فيها التوحّد ويفسّر كيف علينا أن "نسكنه" ويتكلّم فيها بتفصيل على محاسنه الكثيرة. ويعير كتّاب سريان شرقيّون آخرون من نفس الحقبة اهتماماً خاصّاً لهذه المسألة كمثل سمعان الطيبوثيّ الذي ترك لنا في خطابه حول "تكريس القلاّية" دليلاً لحياة التوحّد. في ما يلي

سوف أكتفي بالإشارة إلى بعض النقاط لاسيّما منها التي يظهر فيهما التوحّد مرتبطًا بموضوع الشركة.

في أهمّيّة التمييز لتفادي التقهقر

يوصي القديس إسحق بفضيلة التمييز عندما يتعلّق الأمر بحياة التوحّد والسكون كما بالنسبة لكلّ الممارسات النسكيّة. فهو يردّد مرّات عديدة في كتاباته أنّ ممارسة النسك في حدّ ذاتها لا تحمل ثمراً بل التمييز الذي يرافقها، أو بعبارةٍ أخرى، إنّه الوعي لهذه الخبرة المعاشة ووضوح الهدف الذي يجب الوصول إليه. دون ذلك، باطلٌ هو التوحّد، لا بل مضرّ. يقول في ذلك: (إذا كنتَ ترغب، يا أخي، بالوصول إلى الحياة غير الفاسدة خلال أيّامكَ المعدودة، انتبه على أن يكون قرار دخولك في حياة السكينة قد اتُّخِذ بتمييزٍ حتّى تجد فيها الإفادة التي يبتغيها الحكماء. افحص تعبك ولا تركض وراء اسم: أدخل، تعمّق، كن شجاعاً، تعلّم، حصّل، تقدّم في طرق ممارسة السكينة وفي مجالاتها الرائعة والمتحرّرة كلّها حتّى تفقه، مع القديسين كلّهم، ما هو العلوّ والعمق والطول والعرض لطريقة العيش هذه التي لا نهاية لها. لأنّه بالحقيقة ليس من حدودٍ لهذا الكنز الذي يحاول التجّار شراءه...

لكنّ الذي لا يضع هذا الهدف لتعبه عند دخوله في حياة السكينة ويعمل بفوضى هو كمن يضرب في الهواء، ولن يصل أبداً في حياته إلى

أن يتحرّر من الحزن. وقد يُغْلَبُ لأنّه لم يثابر ويجاهد تحت وطأة الحمل وقد يضطرّ إلى ترك الحياة النسكيّة كلّيّاً. أمّا إذا بقي فيها فسيكون في قلاّيته كمن في سجنٍ يتعذّب لأنّه لم يعد يعرف كيف ينتظر التعزية التي يولّدها تعب السكينة.

إنّ أيّة ممارسةٍ نسكيّة يجب أن تترافق مع القدرة على التمييز. فليست الممارسة الشكليّة بحدّ ذاتها، على الرغم من ضرورة الشكل، هي من يحمل الثمر المنتظر، بل الوعي لما تهدف إليه هذه الممارسة. يمكننا أن نعرّف هذا الوعي بأنّه كمثل البعد الداخليّ لأيّ تدريبٍ جسديّ. إنّ فهم السبب ورؤية الهدف بوضوحٍ هما اللذان يجعلان الثمر ينضج. وينطبق هذا أيضاً على التوحّد الذي قد يتحوّل إلى قلقٍ وحزنٍ إذا اعتبرنا أنّه ممارسة شكليّة خارجيّة فقط، وتغافلنا عمّا يهدف إليه. وقد يصبح هذا التوحّد غير محمول إلى درجةٍ يضطرّ الراهب إلى التخلّي عنه.

هناك خطرٌ آخر مرتبطٌ أيضاً بنقص التمييز يهدّد الناسك وهو الاستخفاف بطريقة العيش وإفراغها من مضمونها. فبالنسبة للقديس إسحق ليس هناك أيّة ضمانةٍ لأيّ وجهٍ من أوجه الحياة الرهبانيّة – كما هي الحال أيضاً بالنسبة للحياة الروحيّة. فبإمكاننا أن نهلك في التوحّد كما في عيشنا في وسط الجماعة. لذلك يحثّ القديس إسحق الرهبان على اليقظة وعلى الحفاظ على التوازن محذّراً من مخاطر توحّدٍ بائسٍ كما من حياةٍ شركةٍ "منحرفة". ففي الحالة الأولى، يذكّرنا قديسنا إسحق أنّ القلاّية يمكن أن تفقد معناها، وهو قد لاحظ ذلك مراراً. إنّه

يتكلّم هنا عمن حافظوا في البداية على قلاّياتهم ولكنّهم حوّلوها لاحقاً إلى مكان لقاءات وتجارة، ربّما في نيّةٍ حسنةٍ من أجل عمل الخير والإحسان واستقبال الذين يأتون طالبين النصح والرشد. ويقول في هذا: (لقد تحوّلت قلاّياتهم إلى أمكنة لقاءات ومواعيد لأهل القرية. إنّهم اختاروا حياة الصخب وسلوكاً قادهم إلى المجهول عوض المضيّ في الجهادات السابقة).

ولكن يعلّم القديس إسحق أيضاً أنّ الحياة في الدير مع الجماعة يمكن أن تنحرف عن هدفها وأنّ هناك وقتاً ما يجب على الراهب فيه أن يضع حدّاً لتردّده وأن يلجأ إلى القلاّية. في هذه المسألة بالذات، تبدو نظرة قديسنا إلى الحياة في الدير أقلّ إيجابيّة ممّا هي عليه نظرة كتّاب آخرين حيث أنّهم لا يذكرون إلاّ قليلاً الانحرافات التي تحصل في الأديرة. يقول القديس إسحق في هذا الصدد: (من كانت لديه القامة ومن كان يمتلك شغفاً كبيراً بالله لا يناسبه أن يبقى طويلاً بين الجماعة بعد خروجه من العالم. فما أن يتدرّب على طريقة العيش في الأخويّة ويتعلّم الرتب الرهبانيّة والهدف من ارتداء الثوب والطرق التي تؤدي إلى التواضع، عليه أن يقرّر أن يبقى وحده في قلاّيته حتّى لا يعتاد على العيش بين كثيرين، وحتّى لا تتحوّل بساطته الأولى إلى خبثٍ في عيشه بين إخوةٍ غير منضبطين موجودين فيما بيننا. لقد رأيتُ كيف كان الكثيرون ممّن خرجوا من العالم ووصلوا إلى بيت

الإخوة يتحلّون بالشفافيّة والطهر وكيف، بعد فترةٍ من الزمن، وبسبب حياةٍ مشتركةٍ طويلة، تحوّلوا إلى خبثاء ولم يقدروا أن يعودوا إلى براءتهم الأولى).

لا شكّ أنّ القديس إسحق، في هذا المقطع، يتكلّم عن حالة معيّنة حيث يؤخّر الراهب انتقاله إلى القلاّية بسبب تعلّقه الزائد بالحياة الجماعيّة بعد أن يكون قد أنهى فترة التدريب في الدير. لكن، وبغضّ النظر عن هذه الحالة، نرى بوضوح كيف أنّ مرحلة حياة التوحّد تظهر وكأنّها جزءٌ جوهريّ من الخبرة الرهبانيّة وكيف أنّه، بالمقابل، تظهر أيضاً حدود الحياة في الجماعة التي، حسب القديس النينويّ، يمكن أن تكون "مبالغة". فالحياة الرهبانيّة التي لا تترك مجالاً لمتطلّبات التوحّد يمكن أن ينتهي بها الأمر إلى التقهقر وفقدان المعنى كما أنّ الحياة الجماعيّة التي لا تُدخِل خبرة التوحّد كبعدٍ "عضويّ" و"طبيعيّ" تكون في خطر الانطواء على الذات وبالتالي تفقد معناها.

في التوحّد كأداةٍ لتعلّم العلاقة

يشير القديس إسحق في النصّ الذي ذكرناه إلى ثلاثة مقاييس يمكن للراهب على أساسها أن يُعتبر ناضجاً حتّى يعيش في القلاّية. يبدو لي أنّ المقياس الأوّل جوهريٌّ للدرب التي يسلكها الراهب. يقول القديس إسحق: (ما أن يتدرّب الراهب على طريقة العيش في الأخويّة). إذًا، يجب على الراهب أن يتعلّم أوّلاً مع الآخرين كي يستطيع الانسحاب

والتوحّد. إنّ هذا التأكيد يمكن أن يحمل معنىً آخر وهو أنّ الراهب لا يستطيع الانسحاب والتوحّد إلاّ بعد أن يكون قد "استوعب" داخليّاً قدرته العلائقيّة. أو بمعنىً آخر، على الراهب أن يكون قادراً على البقاء في شركة مع الآخرين حتّى في غياب وجودهم الجسديّ.

يبقى التوحّد إذاً بالنسبة للقديس النينويّ أوّلاً وأخيراً خبرةً في العلاقات وتدريباً عليها وهو يوضح جيّداً أنّ حياة المتوحّد ليست طريقاً للكمال الذاتيّ الفرديّ والأنانيّ عندما يقول: (نحن المتوحّدين لا ننغلق في الداخل وراء بابٍ لنمارس الفضيلة ولكن، على العكس من ذلك، لكي نموت حتّى عن الفضيلة. لأنّ الفضيلة يمارسها فقط الأحياء). إنّ ممارسة التوحّد لا تهدف إلى التربية الذاتيّة ولا إلى الاعتناء بصورتنا ولا بإنساننا الداخليّ بحدّ ذاته، بمعناه "الخاصّ"، أو الذاتيّ كمن يعتني بحديقته الروحيّة الخاصّة! إنّها تدريبٌ على الخروج من الذات بهدف التحرّر من محبّتنا لذاتنا وأنانيّتنا ومن أجل إعادة ترميم علاقاتنا العديدة وشفائها بعد أن دمّرتها حياتنا المضطربة حتّى لو بدا لنا أنّنا بصدد الحفاظ عليها وتنميتها.

إنّ العلاقة الأولى التي تسعى حياة التوحّد إلى تنميتها وشفائها هي العلاقة مع الله ومع الذات. يقول القديس إسحق: (تشبه روح المتوحّد نبع ماء، بحسب التشبيه الذي يعطيه أيضاً الآباء القدماء. في كلّ مرّةٍ يُوقف فيها المتوحّد حواسّ السمع والبصر في داخله يشعر بوضوحٍ بالله وبذاته وينهل مياهاً نقيّةً وعذبةً ليست سوى أفكار الثبات الزكيّة).

تكمن هذه العلاقة إذاً في التأمّل بصنيعة الله وبجمال خليقته وفحصها. إنّها إعادة اكتشافٍ للقيمة الحقيقيّة لكلّ شيءٍ في نظر الله: (عندما تنزل عليكَ قوّة السكون بعد مكوثك طويلاً في قلايتكَ وبواسطة التمارين الأليمة وبفضل ضبط أحاسيسك عند كلّ لقاء، عندئذٍ تجد هذا الفرح الذي يغمر روحكَ من حينٍ إلى آخر ودون سببٍ فتنفتح عيناكَ لتنظر قوّة صنيعة الله وجمال خليقته بالقدر الذي تسمح به طهارتُكَ).

يقول القديس إسحق في مكانٍ آخر: (إنّ التوحّد يجعلنا نشترك في الفكر الإلهيّ)، أي أنّه يجعلنا قادرين على أن نعقل كما يعقل الله وأن نقيّم كما يقيّم وأن تكون لنا الأفكار نفسها والعيون ذاتها التي لله فنرى الآخرين والخليقة بكاملها كما هو يراها. هنا يكمن بالحقيقة كمال الحياة المسيحيّة. وليس للراهب سوى هدفٌ واحدٌ من خلال ممارساته النسكيّة بما فيها توحّده ألا وهو أن تكون لديه الأحاسيس نفسها التي ليسوع المسيح، كما قال القدّيس بولس: "تخلّقوا بخُلق المسيح" (راجع في2:5).

إنّ التوحّد يقيم مسافةً في العلاقة ولكنّه يضعها حتّى تكون العلاقة أعمق وأصحّ. عندنا شعورٌ في بعض الأحيان أنّ القديس إسحق يرى أنّ هذا الموقف ضروريّ في التوحّد حتّى يستطيع كلُّ إنسانٍ ولاسيّما كلّ راهبٍ أن يميّز وأن يحتفظ بهامشٍ نقديّ تجاه كلّ ما يحيط به. ويبيّن لنا القديس إسحق في الوقت ذاته أنّ البعد الجسديّ للتوحّد يجب أن يتدرّج

شيئاً فشيئاً إلى "بعدٍ داخليّ". وهكذا يقول: (حيثما تكون، كن متوحّداً في فكرك ووحيداً وغريباً في قلبك ولا تختلط مع أحد).

إنّ التوحّد هنا هو القدرة على الابتعاد حيث يتسنّى للراهب أن ينصرف إلى فحصٍ شخصيّ وحرّ للذات بهدف إقامة علاقةٍ لا تكون فقط ثمرة الغريزة أو الانجذاب أو الإغراء بل لتكون مطابقة لإرادة الخالق. إنّها تدريبٌ على الحريّة، حريّة الذات وحريّة الآخرين، التي وحدها تؤول إلى المحبّة الإنجيليّة الحقّة.

التوحّد يهدف إلى المحبّة

إنّ هدف التوحّد بامتياز – وهنا نصل إلى قلب رسالة القديس إسحق التي بسببها أحبّه الناس وقرأوه منذ البداية – هو النموّ في محبّة (compassion) الخليقة كلّها. إنّ رغبتنا في رؤية الله وذاتنا والخلائق كلّها والآخر بعيونٍ جديدةٍ ليست هي إلاّ هدف دخولنا في حركة محبّة (compassion) تشمل الخليقة كلّها.

يؤكّد القديس إسحق النينويّ في بداية تعاليمه أنّ المحبّة الحقّة لا تتناقض أبداً مع التوحّد وهو بذلك يقصد الذين يبتعدون عن محبّة القريب بحجّة حياة التوحّد. في سياق خطابٍ له دافع فيه عن شرعيّة حياة التوحّد تجاه من زعم أنّها "مضادّةٌ لروح الإنجيل" بيّن القديس إسحق أنّها لا تتناقض مع وصايا السيّد وأكّد من جديد أنّ المحبّة تبقى على الرغم من كلّ شيء المقياس الأخير حتّى بالنسبة للمتوحّدين: (لا

يتوانىّ أحدٌ منّا في إظهار هذه المحبّة الموجودة فينا بالفعل والعلن عندما يأتي الوقت وتدعو الحاجة).

إنّ هذا التأكيد الأخير يُعبّر بوضوحٍ عن الفرق الذي يقيمه القديس إسحق بين المحبّة عند المتوحّد وبين تلك التي هي عند من يعيش بين الناس. إنّها تكمن في "ما هو ظاهر". إنّ المتوحّد مدعوٌّ هو أيضاً إلى أن يحيا الشركة والمحبّة ولكن ببعدٍ مختلفٍ نستطيع وصفه بالبعد "الداخلي". غير أنّ هذه المشاعر التي تنمو في حميميّة القلب يجب أن تظهر للعلن عند الحاجة وإلاّ أصبح المتوحّد مرائياً.

غالباً ما يربط القديس إسحق ممارسة المحبّة (compassion) بتطهير القلب الذي يؤدّي بنا إلى رؤية "الجمال في كلّ الناس". إنّ التوحّد الحقيقيّ يعطي القدرة لمن يمارسه على عدم التمييز بين الصالحين والأشرار وبين من هم مستحقّون وغير مستحقّين: (لا تفرّق بين غنيّ وفقير ولا تحاول أن تعرف من هو مستحقّ ومن هو غير مستحقّ. فيما يختصّ بكَ اعتبر أنّ الناس كلّهم أهلٌ للخير فبهذا تحثّهم إلى الحقيقة...).

اعتبرْ إذًا أنّ الناس كلّهم يستحقون الخير والإكرام أكانوا يهوداً أم وثنيّين أم قتلة لاسيّما عندما يتعلّق الأمر بأخيكَ المشارك معك في الطبيعة نفسها والذي ابتعد عن الحقيقة بسبب الجهل.

يعتبر القديس إسحق أنّ المحبّة (compassion) تجاه "من ابتعد عن الحقيقة"، أي من كان يُعتبر "هرطوقيّاً" هي الثمرة الحقيقيّة للتوحّد. ونجد هذا في مقطعٍ هو من أشهر ما كتبه القديس إسحق: (ما هو

القلب الرحيم؟ إنّه نارٌ في القلب تجاه الخليقة كلّها: البشر والطيور والحيوانات والشياطين وكلّ ما هو موجود. عندما يفكّر فيهم ويراهم تنهمر الدموع من عينيه نظراً لقوّة الرحمة التي تغمر قلبه وبسبب محبّته (compassion) الكبيرة، يصبح القلب صغيراً ولا يعود يحتمل أن يرى الأذى ويسمع صرخة آلام أيّ مخلوقٍ حتّى ولو كان الألم بسيطاً. لذلك يقدّم دائماً الصلوات بدموعٍ من أجل الخليقة كلّها حتّى من أجل الكائنات غير العاقلة ومن أجل أعداء الحقيقة ومن أجل الذين يكرهونها كلّهم حتّى يحميهم الله ويقوّيهم. وحتّى الزواحف بسبب رحمته العظيمة التي تنبع من قلبه بغير حدودٍ على صورة الله).

إنّ ثمرة التوحّد هي هذه النظرة العريضة التي تشمل كلّ جزءٍ من أجزاء الخليقة وتعرف كيف تحمله في قلبها لتقدّمه للسيّد. فالمتوحّد هو هذا الشفيع الذي يتضرّع من أجل الكلّ ولا يعتبر أن هناك من بين الخلائق من هو غير مستحق، وهو لا يستثني أحداً حتّى الزواحف وأعداء الحقيقة. إنّه يضمّهم كلّهم ويقدّمهم لله. ليس له أن يميّز فمسؤوليّته الوحيدة هي النموّ في المحبّة (compassion) وفي الرجاء. إنّ الحكم والخلاص أو الدينونة تعود إلى الله لأنّه هو الديّان الوحيد أمّا مهمّة المتوحّد فهي أن "يحمل" و"يتشفّع". يقول القديس إسحق لمن نصّب نفسه ديّاناً: (تذكّر هذا في ما يختصّ بالذي يحمل الكلّ: إنّ أفعال البشر كلّهم هي أمام عيني الله وتشعّ أمامه أسطع من الشمس وإذا أراد فهو قادرٌ أن يدمّر كلّ إنسانٍ بنفخة من فمه. أمّا أنت، بالمقابل، فلم

يعيّنك أحدٌ لتطلقَ أحكام الثأر ضدّ الأفعال وضدّ من قام بهـــا بـــل إنّ مهمّتك هي أن تدعو إلى الرحمة على العالم وتسهر على خلاص الكـــلّ وتتّحد بآلام الناس جميعها، الخطأة منهم كما الصالحين).

إنّ التوحّد الحقّ هو الذي لا ينمّي المرارة أو الدينونة بـــل القـــدرة على المحبّة (compassion) تجاه الأشياء والخليقة كلّها. بالنسبة للقديس إسحق لا شيء ولا حتّى أسوأ الخطايا باستطاعته أن يبرّر شعور الكراهية والرفض تجاه أيّ كان.

بالنسبة للقديس إسحق إنّ ما نشعر بـــه في داخلنـــا مـــن محبّـــة (compassion) لكلّ جزءٍ من أجزاء الخليقة وكذلك صلواتنا وشفاعتنا القلبيّة أمام الله تبقى غير كافيةٍ لأنّها معرّضة للزوال. يعتـــبر القـــديس إسحق أنّ هذه النظرة العريضة يجب أن تصـــبح مرئيّـــةً وظـــاهرةً وأنّ المتوحّد يجب أن يصير علامة تشجيع. هذه نقطةٌ رئيسةٌ عند القـــديس النينويّ الذي غالباً ما يدعو إلى انسحابٍ حقيقيّ وكاملٍ إلاّ أنّه يتكلّم أيضًا عن "ظهور المتوحّد" بمعنى أنّه يعيش على انفـــرادٍ ولكنّنـــا نـــراه وبالتالي عليه أن يهتمّ بما نرى منه وبالرسالة التي ينقلها إلى الذين يرونه. لذلك يقول القديس إسحق: (إنّ المتوحّد يجب أن يكون للنـــاظر إليـــه رؤيةً تشجّع على الحياة). إنّه غالباً ما كان يرى حوله رهباناً يحســـبون التوحّد نفورًا من المجتمع أو النسك انتقاصاً من الإنسانيّة. يجادل القديس إسحق بعض المتوحّدين الذين يعتبرون أنفسهم "منعزلين" ويقـــول: (إذا كان أحدٌ منعزلاً فهذا يعني أنّه يبقى في هدوءٍ فقط مع ذاته وفي عيـــون

الناس لأنّنا نعرف أنّه دون محبّة القريب لا يستطيع العقل أن يستنير حتّى ولو اعتاد أن يكون مع الله ويختبر محبّته).

بتصرّفه هذا، يُظهر "المنعزل" أنّ التوحّد الذي يتّبعه ليس هو بحسب الله بل هو "لذاته" ولكي يكون محطّ إعجاب الناس به. بالنسبة للقديس إسحق إنّ التوحّد الحقّ الذي يحتاج إليه الناس كلّهم - وليس فقط الراهب - هو الذي يقود إلى محبّةٍ أكبر وأعمق.

إنّ الهدف الأخير للتوحّد هو المحبّة الصادقة والحقيقيّة تجاه الكلّ دون تمييزٍ وبوضوح. إنّ ما يسعى إليه الراهب في هدوئه ليس هو الانعزال وإنّما تحويل المرارة التي تنتابه إلى حلاوة. يتبادر إلى ذهننا هنا قولٌ لكاتب آخر كبير في التقليد السريانيّ، هو القديس أفرام الذي عندما تكلّم على القديس يوحنّا المعمدان (وهو يُعتبر نموذجًا للرهبان) قال: (ذهب القديس يوحنّا إلى الصحراء، لا لكي يتوحّش ولكن لكي يلطّف في الصحراء وحشيّة الأرض المسكونة).

تستطيع الصحراء كما قلاّية المتوحّد، لا بل يجب عليهما، أن تفسحا المجال لخبرة شركةٍ حقيقيّةٍ ومحبّةٍ صادقةٍ حيث لا يُفصل الآخر، أيّاً كان، ولا يُقصى بل يُقبل ويُحمل ليقدَّم للسيّد. هنا يظهر الارتباطُ بين التوحّد والشركة الذي تكلّمنا عليه في البداية أي شرعيّته كلّها وتناغمه.

الفصل الثاني

تأملات في فكر
القديس إسحق السرياني

للأرشمندريت باسيليوس

رئيس دير الإيفيرون - الجبل المقدس آثوس

كلمة المحرر باللغة الإنكليزية

بصفتي محرراً لمطبعة ألكسندر، يغمرني فرحٌ عظيمٌ أن أُكمِل سلسلة "جبل آثوس" مع نشر خمسِ مقالاتٍ إضافيةٍ بقلم الأرشمندريت باسيليوس، رئيس دير الإيفيرون في الجبل المقدس آثوس، بعد سنةٍ تقريباً على الاستقبال الحار للمجلدات الأربعة الأولى من هذه السلسلة. سيتم نشر هذه النصوص الخمسة، المترجمة حديثاً، في مجلداتٍ منفصلة، واحدٌ منها سيحتوي على مادةٍ إضافيةٍ من قبل البروفيسور جاورجيوس مانتزاريدس.

وُلد الأب باسيليوس (غونديكاكيس) في جزيرة كريت عام 1936م، تلقى دراسة اللاهوت في أثينا، وفي ليون في فرنسا. وبعد زيارته لجبل آثوس، شعر أنه في "بيته" وقرر البقاء هناك.

بدايةً مكث في قلايةٍ بقرب الشيخ بايسيوس. في عام 1968م، طُلب منه أن يرأس دير ستافرونيكيتا. وفي السنوات الاثنتين والعشرين التي عاشها كرئيسٍ للدير (1968 – 1990م)، تمكّن الآلاف من الزوار والحجاج من اكتناز نسمةٍ مجددةٍ ومعطيةٍ للحياة، من خلال التركيز على الهدوئية واليقظة بشكلٍ خاص (hesychia and nepsis) اللتين تُميزان الروحانية الآثوسية، وأيضاً عن طريق تجربتهم الشخصية، البسيطة والمتواضعة جداً

أن "يذوقوا وينظروا ما أطيب الرب" (مز8:34).

في عام 1990م تبوأ الأب باسيليوس رئاسة دير الإيفيرون، وأعاد إحياء حياة الشركة فيه.

تعرَّف الجمهور الناطق باللغة الإنكليزية عليه لأول مرةٍ من خلال عمله المشهور جداً (ترنيمة الدخول) حيث وصفه فيه المطران كاليستوس (وير) بأنه رائد الإحياء والتجديد البارز للحياة الرهبانية، في الجبل المقدس، وكانت رسالته "كلمة حياةٍ ليس لآثوس فقط بل للعالم المسيحي ككل".

قام الأب باسيليوس بنشر هذه الرسالة على مدى التسعة والعشرين عاماً الأخيرة، والتي تخطت حدود جبل آثوس عبر المشاركة والتحدث في اجتماعاتٍ لاهوتيةٍ ومؤتمرات الشبيبة وتجمعات المؤمنين. سلسلةُ "المقالات" الحالية، والتي هي عظات تم تحريرها في الواقع للنشر، هي محاولةٌ لجلب الجمهور المتحدث باللغة الإنكليزية بقدرٍ أكبر إلى "رؤيةٍ جديدةٍ للاهوت والكنيسة والعالم" يقدمها الجبل المقدس من خلال الصوت الصادق والتقليدي الأصيل للأب باسيليوس.

نُشر الكتاب الخامس من السلسلة وعنوانه "مقاربات في عوالم القديس إسحق السرياني" باليونانية من قبل "دوموس" في عام 1981م، وفي طبعاتٍ لاحقةٍ في 1985 و 1988م.

الترجمة بتصرفٍ من النص اليوناني قامت به الدكتورة اليزابيث ثيوكريتوف.

وسوف تستمر سلسلة "جبل آثـــوس"، إن شـــاء الله، بنصـــوصٍ ودراساتٍ آثوسيةٍ أخرى لتنشر في عام 1998م.

د. يوحنا حاجي نيكولاوس
رقاد السيدة، 1997م

عوالم

القديس إسحق السرياني

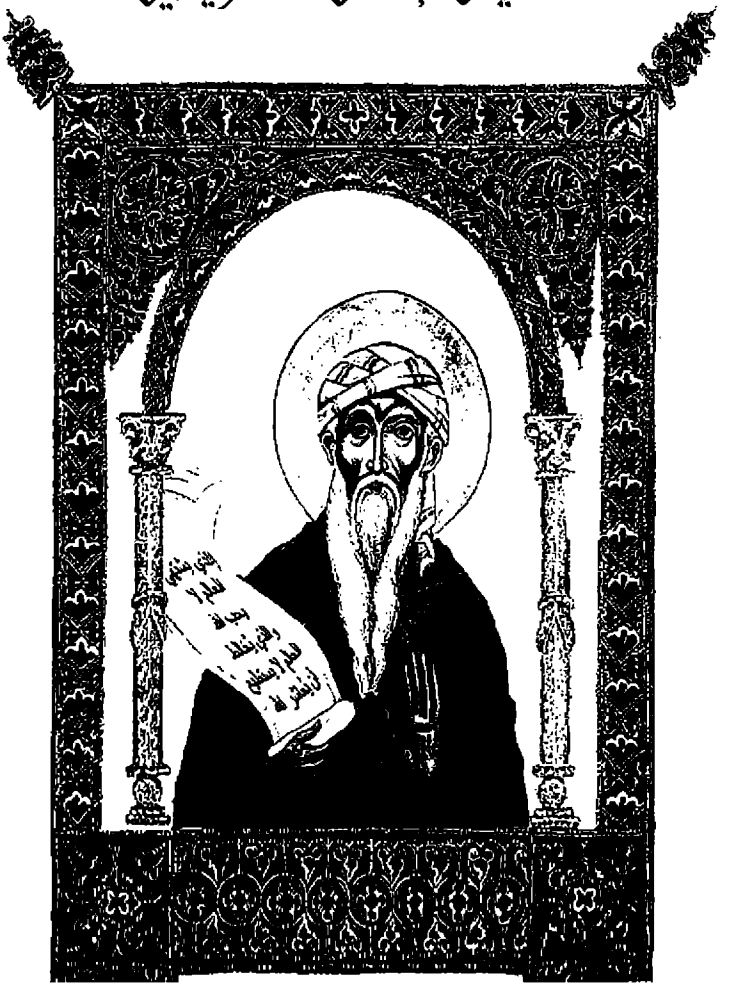

عوالم القديس إسحق السرياني

يبحر القديس إسحق السرياني في مجالٍ صعب الوصف إن لم يكن مستحيلاً. إنه سر الدهر الآتي، كما يعيشه اليوم كلُّ قديسٍ، متجللٌ تماماً؛ لا يرى فقط قوة الأشياء غير المخلوقة وجمال الأشياء غير المنظورة، بل - كما يقول هو نفسه - لديه القوة، كالله، على خلق عوالم جديدة.

بالرغم من أن هذا أمرٌ واسعٌ جداً، إلا أن ذاك الاتساع ليس مُشوِّشاً؛ بل على العكس فعالمه يُلطّف ويهدِّئ من روعك، لأنه نال رحمة الله، وحنوه الذي لا يُدرك، الذي يحبُّ كلَّ الخليقة.

بالرغم من كونه فوق كلِّ المخلوقات ووراء كلِّ فعل. إلا أنه في الوقت نفسه لا يستطيع تحمل رؤية معاناةٍ للحياة حتى في أدنى المخلوقات. لهذا السبب فإنه بتشبهه بالله يصلي بدموعٍ لكلِّ الخليقة، وحتى الزواحف.

لذلك لا يمكن ترتيب النص وتنظيمه، إذ يتجرأ بالتحدث عن العالم الروحي للقديس إسحق. ولا يمكن تقسيمه إلى أجزاء، ولا يمكن حصر تعاليمه في هذه الدراسة.

يتكلم هذا النص بطريقةٍ عامةٍ متفرقة، تاركاً مكاناً لأولئك المقتربين من هذه المعجزة لتسجيل ذهولهم. ولن يكون النص قادراً على

نقل فكر القديس إسحق. وسيظهر حتماً كيف أن هذه النعمة غير المخلوقة والضياء اللامع معكوسان على المظهر الخارجي لأسلوب الكاتب، المتسم بالاضطراب. لذلك يطرح النص الحقيقة، ويشوهها بشكلٍ لا يمكن تجنبه، وهذا يساعد على فهم القديس إسحق وحجبه في الوقت نفسه.

لن يبقى لنا – وهذه رغبةٌ وأمنيةٌ – إلا أن ينكر كلّ واحدٍ منا نفسه، متقدماً بهدوءٍ نحو لقائه الشخصي بالقديس. ليتلقى كلُّ واحدٍ منا، الشيء الذي يبحث عنه سرياً وبصمت، ذلك الشيء الذي لا يجده في أيّ مكانٍ آخر مماثلاً لما يتسم به قديسنا من النضوج والكمال والكونية.

✠

كان بإمكان القديس إسحق العيش دون أن يكتب أيَّ شيءٍ قطُّ، من غير أن يفقد أيّاً من نعمه وغناه. ولكنه لكي لا يحرمنا نحن القراء من أن نستوعب إشعاعه الصامت، فإنه بدافع المحبة يبدأ بالكتابة:

(أحبائي، أصبحت أحمقَ، ولا أستطيع تَحمُّل إخفاء السرِّ الغامضِ في صمتٍ، لكني أصبحت أحمقَ لأربح إخوتي)[1].

إن الحقيقة كاملةً تكمن في ما تؤمن به الكنيسة وتعيشهُ، بشكلٍ

1– [62، ص. 297 (163)] الأرقام تشير إلى العظة الدينية والصفحة في العظات الدينية النسكية للقديس إسحق السرياني، مترجم من قبل دير التجلي المقدس في بوسطن، ماساتشوستس، 1984م. الرقم الثالث ضمن أقواس دائرية يشير إلى صفحة النسخة اليونانية الحديثة (سيتسيريز، لايبزيغ 1895م، وطبعات معادة). في بضعة حالات، تم تعديل الترجمة لتعكس النص اليوناني المقتبس من قبل الأب باسيليوس.

معقدٍ من الناحية الفكرية، وواضحٍ وجليٍ من الناحية العقائدية. هذا كله يُعلنه كلٌّ من القديس غريغوريوس النيصصي، والكتابات الأريوباغيـة[2] والقديس مكسيموس المعترف. حيث (الحقيقة) تولد بالخبرة والتطبيق، وليس من خلال الأمور النظرية. فرحُ قديسنا ومنهجه الأخلاقي ينبـع من هذا الغذاء الروحي ومن طريقة عيشه له.

لقد اختبر القديس إسحق نعمة التجسد في كلّ جسده، رُفـع إلى فردوس التألُّه بكلّ كيانه. في حياته تتجلى نعمة الكنيسـة بكاملـها، وتعيش نفسه المقدسة كاملةً في كتاباته.

إنه شخصٌ صادقٌ، فقد شكّلته خبراتٌ جِسامٌ. إذ تلقى ضـربات التجارب من اليمين ومن اليسار لسنينَ طويلة. واختبرَ نعمـة "المعونـة الإلهية"؛ (تعرضتُ للتجارب فترةً طويلةً من الزمن من الـيمين ومـن اليسار ومن كلّ اتجاه، ... وتلقيتُ ضربات العدو الـتي لا تعـد ولا تُحصى، كنت مستحقاً لمعونة الله الكبيرة والخفية، حيث اكتسبت خبرةً من سنين طويلة، وبنعمة الله تعلمت أشياءً كثيرة عن طريق التجربة)[3].

جُرِّب وخَلُص بكليته، لذلك كان قادراً على نقل الخلاص إلينـا. اجتاز أزمة الظلمة القصوى: (هذه الساعة مليئة باليأس والخوف، لكن الرجاء في الله ...)[4] انسحق قديسنا كلياً من روحه، التي امتلأت بكليتها

2- نسبةً إلى القديس ذيونيسيوس الأريوباغي، ودعي كذلك نسبةً إلى تلةٍ في غرب الأكروبوليس الأثيني تُعقد فيها محكمة قضائية.

3- [40، ص.197 (109)].

4- [50، ص.241 (232)].

من الشك والخوف. (لقد اختبرنا كل هذه الأشياء مراتٍ كثيرة)[5].

دخل بكليته إلى فردوس خيرات الدهر الآتي، حيث (تهبط على الجسد بهجةٌ وسرورٌ معينان). و(تنبثُّ حلاوةٌ ما من القلب بشكلٍ مستمر، وتجذب الفكر كله وراءها)[6].

بلغ قديسنا حدود "العمالقة" الحقيقيين، كما كان ينعت القديسين[7]. أولئك الذين (لا يمارسون كلّ فضيلةٍ على حدة، بل كلّ الفضائل في وقتٍ واحد، بشكلٍ تامٍ وشامل)[8]، لذا استطاع أن يكتب هذا الكتاب (العظات الدينية والنسكية المذكورة آنفاً).

كان كتابه ملتقى خبراتٍ؛ حيث مرَّ عليه تيارُ الحياة، مُختبِراً مدى تحمُّله، ومُسكِّناً كلّ حركات أعضائه وقلبه: (غالباً ما خانتني أصابعي عندما كنت أكتب هذه الأشياء على الورق. ولم يكن بمقدور أصابعي أن تحتمل الحلاوة والعذوبة التي نزلت على قلبي وسكّنت حواسي)[9]. هكذا يتدفق تعليمه كالذهب المصهور، منسكباً في هذه اللحظة بالذات من أتون كيانه.

وقد قال قديسنا عن كتاباته، كما يروي أحد الشيوخ: (إنها... خواطرٌ حقيقيةٌ تتحرك بداخلي بالفطرة. أكتبها عندما تأتي عليَّ، لأتأمل

5- [50، ص.242 (233)].
6- [68، ص.333 (39)].
7- [71، ص.347 (309)].
8- [71، ص. 347 (309)].
9- [62، ص.297-8 (163)].

بها في فترات ظلمتي، فتنقذني من الضلال)[10].

هكذا كتب القديس إسحق، فقد دُوِّنت كلماته وقت حلول النعمة. لذا وأنت تدرسها الآن تملأك بالنعمة والنور والحماس المقدس الذي تنبع منه. إنَّ تدوين كلماته ودراستها هما بمثابة مشاركةٍ في الحياة الإلهية والأبدية "لمغفرة الخطايا، وشركة الروح القدس، وللدالة لدى الله".

وبينما تدرس كتاباته المقدسة، تعيش حقيقةً معه، وهو يعيش معك. ويتفاعل كيانك معه كنسياً، وليتورجياً. حيث تتلقى منه وتعطي لا إرادياً، وتشعر بالامتنان في الوقت نفسه. (لقد دونتُ هذه الأشياء، كتذكيرٍ ومصدر ربحٍ لنفسي، ولكلٍّ من يلتقي بهذا الكتاب... لتكون بمثابة مساعدةٍ لي بصلوات أولئك المنتفعين منها. لأنه لم يكن من السهل عليّ أن أدون هذه الخبرات)[11].

هو يَعلم أنه بالطريقة التي عاشها والطريقة التي كتب فيها، جعلنا أتباعاً لمنهجه الأخلاقي بحرية ذواتنا. فقد صيَّرنا ضيوفاً مدعوين إلى حفل فرحه الأبدي، حيث كلنا نسكن معاً هناك.

المؤرخون يبتغون، اكتشاف من هم الذين أثروا فيه، والذين أثَّرَ بهم (وهذه الدراسة مُشرعةٌ). إننا بدخولنا إلى ذلك العالم الذي ولجه، نجده يأخذ من الجميع، وما زال يعطي الجميع. فهو يعيش في عالم الملكوت،

10- [57، ص.281 (160)].

11- [14، ص. 83 (56)].

ويؤثر في كلِّ فردٍ من خلال ما ناله من وقارٍ وجلالٍ كبيرين في كيانه الشخصي.

✠

لا يقوم القديس إسحق بالتعبير عن أفكارٍ أو تقديم عظاتٍ أخلاقية، بل يصف حالاتٍ وتغييراتٍ وجودية (جاعلاً التغيير بقوة روحِكَ القدوس) يخاطب الآب.

إنه يتكلم بإيجازٍ ودقةٍ عن التغييرات الخلاصية التي ينالها من يتدرب على الإمساك، منشغلاً في الجهاد، ومتلقياً نعمة الروح القدس. وبطريقةٍ ملموسةٍ يقدم معرفته عن أمور ما وراء الطبيعة وإدراك الحس. متمشياً في أماكن إلهيةٍ سماوية، ويصف الفرح الذي لا يمكن التعبير عنه، الذي يملأ جسد الإنسان بالتزامن مع انسكاب النعمة.

لذلك فهو يكتب بشكلٍ عشوائي عن كلِّ الفضائل والحالات، مختلطةً مع بعضها البعض. ورغم ذلك يكون كلُّ شيءٍ في انسجامٍ وتوازنٍ، فكتاباته لم تأتِ بتخطيطٍ مسبق، أو بابتكارٍ من الدماغ، بل تنبع من جذع شجرةٍ أبديةٍ، مثل أغصانٍ حية.

هو يكشف عن الواحد، في حديثه عن الكل. ويجعلك مشاركاً في سر الكل، في تحدثه عن أيّ تفصيل. فهذا "الكل" شفافٌ وخفيف. وكلُّ جزءٍ معينٍ يحتفظ بقيمة هذا "الكل"، بشكلٍ سليم.

عندما يُقدم عظةً أو تحذيراً عن أمرٍ ما، فهو يكشف عن حالةٍ حصل عليها واختبرها. وهنا تكمن قيمته (لا تنقل إلى الآخر الأمور التي

لم تختبرها عملياً، خشيةَ أن تعرض نفسك للخجل، وتنكشف كذبتك مقارنةً مع حياتك الشخصية)[12].

من خلال الأمور التي يتحدث عنها، يكشف فيزيولوجية وجود الإنسان الروحي والمادي؛ أي الطريقة التي يغدو فيها الكيان البشري موحداً، روحاً وجسداً، مُقدساً أو فاسداً.

ليس من كلمةٍ أو عبارةٍ واحدةٍ غيرِ ضرورية عنده. وليس من خطأٍ واحدٍ في صياغة أسلوبه. يصدر كلُّ شيءٍ من داخله بشكلٍ طبيعي، وفي نضوجٍ ملحوظ. يَنشأُ لحنٌ يطغى عليه الانسجام، متعذرٌ سماعه من كتاباته الوفيرة والناضجة. وبحبه لإخوته يُظهر للجميع أعمال الناموس الروحي، التي تسند وتقود كلَّ شيءٍ بسلام، دونما جدل.

إنه لا ينقل إلينا أيّ شيءٍ لم يختبره، أو لم يسبب له ألماً؛ كالأم التي عندما تحين ساعة ولادتها، تلد ثمرة رحمها بألمٍ متممةً عملية الولادة. الطريقة التي بها يُعبِّر عن نفسه الثنائية القطب على نحوٍ مميزٍ، تظهر واضحةً حين يُقدم جانبي الحقيقة كليهما. فيتكلم بالإيجابيات والسلبيات ويعرف الجانبين الأول والآخر معاً: (الذي يذمُّ ويحطُّ من قدره سيجعله الرب حكيماً، ولكن الذي يعتبر نفسه حكيماً يسقط من الحكمة الإلهية)[13].

(الحكمة الروحية تُنشئُ الصمت داخل الروح، ولكن الحكمة

12- [4، ص. 33 (95)].
13- [15، ص. 86 (178)].

الدنيوية تعطي نبعاً من التشتت. عندما تكتشفُ الحكمة الروحية، تمتلئ بالكثير من التواضع واللطف... وعندما تتملكُ الحكمة الدنيوية، تنال فكراً متكبراً، وأفكاراً شريرة بشكلٍ لا يُوصف؛ ذهناً مضطرباً، ووقاحةً في الأحاسيس...)[14].

القديس إسحق يعلَم كلّ شيء، ويخبرك بكلّ شيء، ولكن ليس بأعلى صوته، بل بصمتِ كلماته وفضيلته التي لا شك فيها: (ادحض أولئك الذين ينازعونك، بقوة فضائلكَ وليس بقوة إقناعِ كلماتكَ)[15].

إنه واثقٌ بما يؤمن ويكتبه: (لأني أقول لكم الحق في كلماتي هذه، وفي كلّ ما أقوله)[16]. (وإن علّمكم أحدهم خلاف ذلك، فلا تصدقوه)[17].

يصفُ لك بتأكيدٍ ورصانةٍ ما يحدث في رحلة كلٍّ منا نحو التألّه، وما هي عواقبها المادية والروحية في كلّ حالة: (طالما أن الإنسان لا زال مُهمِلاً، فهو يخشى ساعة الموت؛ وعندما يقترب من الله، يخشى الوقوف أمام الدينونة؛ لكنه عندما يتقدم بكلّ قلبه، فكلُّ المخاوف تُبتَلع بالمحبة)[18].

إذا قررت أن تُبرزَ أهمية إحدى عباراته أو جمله، فعليك أن تفعل ذلك بها كلها. فكلها تحمل نفس الوزن والنضوج والنعمة. فإما عليك

14- [48، ص. 234 (289)].
15- [4، ص. 32 (94)].
16- [14، ص.82 (54)].
17- [4، ص.34 (96)].
18- [62، ص.297 (162-3)].

أن تُبرِزَ الكتاب كله، أو أن تتركه دون وضع علامات. هذا يعني أن ما من شيءٍ يمكن أو يجب أن يُعطى انتباهاً أكثر من أي شيءٍ آخر. وعندما تريد إبراز شيءٍ ما في كتاباته، وتقوم بدراسته للمرة الأولى، فإنك في قراءتك الثانية تشعر بأن المقاطع التي أهملتها أكثر أهمية من الأخرى.

تكون معه في ضياعٍ تام، حيث تجد نفسك في مناخٍ مختلفٍ، ومنطقٍ آخر، وعالمٍ آخر، حيث كلُّ الأشياء تتحد مع بعضها بتآلفٍ وانسجام. لها دقةٌ رياضية، ونغمٌ موسيقي، واكتمالٌ هندسي، وعمقٌ فلسفي، ورؤيةٌ نبوية، وإنسانيةٌ إلهية. فكلُّ كيان كلماته له نفس درجة النضوج، التي تنشُر عطر وخز الضمير نفسه.

عندما تقرأُه وتألفه، تعجز عن قراءة أيّ شيءٍ آخر. وفي الوقت نفسه يساعدك على فهم أهمية كلّ شيء وتقديرها. فهنا النور والدفء يأتيان من الروح الذي يقدس ويُوحد كلَّ الأشياء. ويعرض كيف تعملُ الأشياءُ كلُّها بطريقةٍ إلهيةٍ بشريةٍ في وقتٍ واحد؛ الأشياء الحاضرة والآتية، ما يخصه، وما يعود للآخرين.

تفقد الشهيَّة لأي غذاءٍ آخر؛ عندما تذوق بفمك الحلاوة اللذيذة لهذه الثمرة اليانعة، للمن السماوي المجبول من جوهر الأرض، والمخمَّر بخميرة الملكوت الآتي. تتناولها على الأرض وترقص في السماء، تريح روحك وتُقدس جسدك. تشلُّكَ وتحييك، لابساً درعاً جديداً، وقوةً لا تُقهر.

✠

صادف أن قديسنا كان متعلّماً وقارئاً جيداً (فقد بصره من كثرة القراءة). لكنه رغم هذا لا يقدم لنا معلوماتٍ عسيرةٍ لا يمكن هضمها، أو يقدم لنا حكمةً دنيوية. فقيمته تكمن في مكانٍ آخر: فهو قديسٌ، وأخٌ لحَمَلَةِ الله سواء كانوا مُتعلمين أم أميّين، إنه وجدَ سر الحياة ونقله إلينا.

الأخت التي من دير تابونيسي، المُولعة بالمسيح والمشار إليها في تاريخ اللوسياك Lausiac History (الفصل 34)[19]، اكتشفت "شيئاً ما". والقديس إسحق وجد "شيئاً ما" أيضاً. بأن الإنسان لا يحتاج لأي انتباهٍ أو فهمٍ أو احترام، بل للعشق الإلهي الفريد (eros)، الذي أعطاها نوراً وحياةً ودفئاً داخلياً. وهكذا القديس إسحق أيضاً، فقد أنار كلَّ شيءٍ بالنعمة الفريدة التي وجدها والتي تنفذ إلى كلِّ شيء.

عندما تجد شيئاً ما كنت تبحث عنه، فإنك تجد كلَّ شيء. وعندما تفقد هذا الشيء، فإنك لا تكون دونه. لأنه في كلِّ مكان، ينفذ إلى كلِّ شيء، حتى إنك تفرح به بشكلٍ أفضل عندما تفقده. ففي نقصانه تختبر حالةً لا تجاريها حالةٌ من نعمته، تُقدِّر قيمته، وتفهمه من زاويةٍ مختلفة.

إنَّ ما هو مزيَّفٌ، حتى لو امتلكته، فهو يوهمك ويعذبك، ويتركك في فراغٍ بالرغم من امتلاكِهِ. أما الشيء الحقيقي فله معانٍ كثيرة، تتجلى بتطبيقاتٍ وتشعباتٍ لا نهاية لها. فعندما تمتلكه تمتلك كلَّ شيء، وتحب

19- كتاب تاريخ كتبه بلاديوس الذي وُلد حوالي 363م، غالاتيا، الأناضول، وتوفي قبل 431م في اسبونا، راهب وأسقف ومؤرخ. يحتوي هذا العمل اليوناني على أقوال وقصص العديد من آباء الصحراء قابلهم بلاديوس خلال رحلته في الصحارى المصرية في أواخر عام 380م. سُمي هذا العمل على اسم لوسوس أمين خزانة الإمبراطور الروماني.

كلَّ شخص، وتعيش بفرحٍ في كلِّ شيء. وعندما تفقده يظهر أمامك وبداخلك، غير فانٍ. تنكره، ولا ينكرك، تُبعده، ويأتي إليك. تجبره على الرحيل، فيذهب وتعاني وحدك.

من اختبر هذا الشيء الحقيقي - الذي اختبره القديس إسحق - ومن ثمّ فقده بسبب إهماله، (هو وحده يعلم البؤس الذي تُرك فيه)[20]. إذاً مضمون رسالة القديس إسحق هو الشيء الحقيقي الوحيد، غير المقيد بالفَساد، والذي "يهب حيث يشاء" (يو3:8)، ويصبح مألوفاً للغرباء، ويَعثرُ على أولئك البعيدين جداً، (ولا يستطيع أحدٌ الاختباء من دفئه) فكلُّ الأشياء تخصه. يدخل مباشرةً إلى سجون الأنظمة، يُزيل القناع المزيف للأيديولوجيات، يجد الإنسان بكامله حيث هو في الواقع، فيقول له - بغض النظر عن إيمانه أو عدمه، بغض النظر عن انتمائه إلى هذا المعسكر أو ذاك، إلى هذه الأيديولوجية أو أي نظريةٍ عالميةٍ أخرى - يقول له: إن وجهات نظرنا ومعتقداتنا لا يمكن لها أن تُغيِّر وتُبدِّل (ما هو داخل طبيعتنا)[21]. وهذا هو ما يخاطبنا به القديس إسحق.

في زمانه استساغه الشرق والغرب معاً، فأقامَ مدرسةً كاملةً وتقليداً لمنطقته، وللمسيحيين الناطقين باللغة السريانية (بالرغم من كل ردود الفعل السلبية، التي أثارتها قداسته). أثّر على التقوى الإسلامية من خلال ترجمةٍ عربيةٍ. ودخل أفريقيا من خلال الترجمة الأثيوبية. وتُرجمت كتاباته

20- [19]، ص.99 (51).
21- [4]، ص.35 (97).

إلى اليونانية، ونُصِّب كعميدٍ للهدوئية.

كما وقد أثر على القديس سمعان اللاهوتي الجديد، ونيكيتاس ستيثاتوس، والقديس غريغوريوس بالاماس. يُطلق عليه القديس نيقوديموس الآثوسي "**فيلسوفي الروحي**". وقد عَبَرَ إلى العالم السلافي، من خلال النص اليوناني، وقرأه روس القرن الماضي بنهمٍ كبير.

يوصي الشيخ ايرونيموس من أيينا (+1966م) كلَّ شخصٍ لا يملك مالاً، بأن يخرج إلى الشوارع، ويتسول ليجمع مالاً ليقتني نسخةً من كتب القديس إسحق. ذاك الذي تتفجر المياه من نهره نقيةً وصافيةً، كما من نبعٍ عميقٍ في الصحراء.

أمضى القديس إسحق حياته في سوريا في القرن السابع. حضوره يملأ التاريخ، وقد دخل إلى الأبدية. لقد عاش في أعماق الصحراء. فهو ناسكٌ، يختلف نظام نسكه عن باقي الرهبان، الذين يعيشون في الشركة. ومع ذلك وضع أساساً لأنثربولوجيا أرثوذكسية صحيحة.

يرتوي منه العطاش، ويأكل الجياع كفايتهم، ويهدئ كلَّ طالبٍ وسائلٍ. لا يشغل نفسه بأمورٍ بسيطة، ومعينة. يتحدث عما هو عامٌ وأبدي، وعما لا يمكن تفاديه. كلُّ هذا يتشابك مع الأشياء الصغيرة العابرة التي تؤلف بنيان حياتنا.

✠

أنت لا تُخلصُ الإنسانَ بالنصح والعظات من الخارج. ولا تُقدمُ له الحرية بأن تقول له "افعل ما تشاء". بل بصمتٍ، مثل شمس حبٍّ

لطيف، ونسمةٍ عليلة من الشجاعة، يجب أن يكون حبك قادراً على إعطاء هذا الإنسان الصحة، مثيراً في داخله شهيته الشخصية للحياة.

هذا ما يحدث مع القديس إسحق. فهو بكليته ملتهبٌ، حيث يمرر سر لهيبه كنارٍ مُبردةٍ، والذي هو سر الكنيسة الغامض. كما ويطلق مسيرة حبٍ من كيانه، ليزود الآخر بمساحةٍ من الحرية؛ معطياً إياه إمكانية تحقيق ذاته، معانقاً الآخر بتركه حراً بأكمله.

يَعرِفُكَ ويَفهمُكَ. يترك لك حرية الحركة، لتتعرف على كيانك وصبرك، وعلى طبيعة الأشياء وجمالها.

الحرية ليست مسألةٌ مسموحةٌ في هذه الحياة وهذه البيئة فقط. بل هي افتراضٌ مسبقٌ لا يمكن الاستغناء عنه (يُوجب علينا ملاحظة ليتورجيتنا بحريةٍ كاملة، بعيداً عن كل فكرةٍ صبيانيةٍ مقلقة)[22].

يتكلم قديسنا بهدوءٍ وببساطةٍ وبوضوحٍ مع بعض التلميحات. ليستطيع كلُّ شخصٍ أن يأخذ خيطاً، جديلةً صوفيةً لحياكة ثوبه الخاص ليلائم جسد كيانه؛ ولتدفئة عظامه، ولبزوغ أمله.

هو لا يخلق أتباعاً، بل يمنح الناس قوةً في الروح القدس، ويتكلم عن خبرته، وعن نبع الحلاوة السماوية التي تخرج من داخله، ويُرجعنا إلى خبراته الخاصة.

هو يُخبرنا بتلك التجارب التي تواجه أولئك الذين يجاهدون في مراحل الحياة الروحية المتنوعة. ويخلُص إلى أنه (يمكن لذهنك من خلال

22- [75، ص.366 (120)].

أنواع التجارب التي تحلُّ بك، أن يكتسب حكمةً تفيده في التجارب الأخرى)[23]، (تفحّصْ نفسك في أيٍّ من هذه الأهواء تعيش، عندئذٍ ستعرف ما هي أمور العالم التي لا تزال تحيا فيك، والأمور التي متّ عنها)[24].

يتركنا لنفهم من تلقاء نفوسنا أين نقف، ولنشخّص مرضنا: (مغبوطٌ هو الإنسان الذي يعرف ضعفه، وهذه المعرفة هي أساس كلّ فضيلةٍ وجذرها وبدايتها)[25]. يساعدنا على اللجوء إلى الله القوي للنلوذ به: (كلُّ من يُخضع نفسه لله، سوف تخضع له كلُّ الأشياء)[26].

يقودنا بيده نحو المعرفة الحقيقية للإنسان، التي هي نبع كلِّ معرفة: (عندما يعرف الإنسان نفسه، تُمنح له معرفة كلِّ الأشياء)[27]. (من يرغَبُ في معرفة هذه الأشياء، عليه أن يشقَّ طريقه كالتالي: أن يسبق **ممارسة** هذه الأشياء، **دراستُهُ** لها)[28]، (لأن **الشهادة** التي تَوصَّل إليها من تجربته الشخصية تكفي لإقناعِهِ، بعيداً عن كلماتٍ كثيرة لا خبرة فيها)[29].

(ذهننا... قادرٌ من تلقاء ذاته بالتحرك نحو الخير دون توجيهات)[30]

23- [42، ص.211 (194)].
24- [2، ص.15 (132)].
25- [8، ص.67 (82)].
26- [36، ص.162 (58)].
27- [36، ص.162 (58)].
28- [18،ص.97 (43)].
29- [68، ص.334 (41)].
30- [28، ص.138 (323)].

ويحثُّ قائلاً: (اجتهد للدخول إلى الكنز الذي بداخلك، وسوف ترى كنز السماء: لأنهما الشيء نفسه) (اقتنِ السلام بداخلك، فيكون لك سلام السماء والأرض)[31].

(وعندما يصل المرء في الحقيقة إلى هذه الأشياء يتعلم بنفسه، ولن يحتاج إلى أحدٍ لتعليمه)[32].

إلى هناك يقودنا المعلم الحقيقي إلى "ملكوت الحرية"، إلى المرحلة التي لا نحتاج فيها إلى مُعلم، حيث نجد شخصياً توازننا الخاص، نجد النبع الذي يتدفق أو القادر على التدفق في داخلنا، فنشرب من نبعنا، ويصبح كياننا الكامل نبعاً جارياً.

تتجلى المعرفة والتأمل الروحيان (بداخلنا بشكلٍ غير مادي - أي في الروح - بنعمة الله، وفجأةً وبشكلٍ غير متوقعٍ تظهر النعمة من الداخل. "لأن ملكوت السموات في داخلكم"(لو17:21))[33].

فتروّي عطشك وعطش الآخرين، وتتعلم أن تكون نشيطاً وراسخاً. تجد راحةً في الكد والتعب، ومع مرور الوقت تجدداً في الشيخوخة. هناك في الموت النهائي، حيث يصمت كلُّ شيء، تجد الحياة الأبدية (معتبراً الموت المخيف، فرحاً).

هكذا تُعلِّم وتبقى صامتاً، تُطعِم وتُطعَم، تحيا وتموت باستمرار.

31- [2، ص.11 (127)].
32- [18، ص.97 (43)].
33- [53، ص.264 (262)].

الكل في حركةٍ واحدة، وهذه الحركة ترفع الإنسان الحقيقي وتُظهره كإنسانٍ متألّهٍ بالنعمة، وكنورٍ حقيقي.

✠

مع القديس إسحق تستقر وتهدأ. فكلُّ شيءٍ يقوم به يفعله بتأكدٍ تام. إنه محبٌّ وعنيد، يضع بلسماً على جرحك، ويغرز المبضع في العمق إن دعت الحاجة. هو مناسبٌ لكلّ عمرٍ وثقافة، ويفضح كلّ نوع من ضيق الفكر.

يستطيع كلُّ إنسانٍ أن يجد العناصر التي تلائمُه، فيجدُ الشبان والشجعان كلمات الحرية؛ والهادئون وكبار السن كلمات الفضيلة. ولكن عليك أن تكون حذراً بعض الشيء، فإذا دنوت من القديس بأمانةٍ، تشعر أنك مجبرٌ على الاعتراف بأنه لا يقول تماماً ما أقوله أنا، بل هو يحكم عليّ.

عندما تشعر بالسعادة في شيءٍ من كتاباته، لا تتسرع بالفرح بسذاجةٍ كبيرة؛ فأمامكَ طريقٌ طويلٌ تسير فيه قبل جعله خاصتك. وإن خلق شيءٌ ما انطباعاً سيئاً فيك، أو بدا ربما كقولٍ قاسٍ، لا تستعجل في الحكم عليه أو رفضه، لأنه في وقتٍ لاحق، يغرس فيك تعزيةً عظيمةً جداً.

إنه صادقٌ: يحب الجميع ولا يحابي أحداً. يقبل كلَّ شيء، ولكن لا يسمح بمرور أي شيءٍ مخادعٍ أو مريب. لا يستطيع أحدٌ أن يُقدم عملته المزيفة إليه. فهو يميز ويغربل كلَّ شيء (لا تغضب مني لأني أقول لك

الحقيقة، بأنك لم تسعَ قط للتواضع بكلّ روحك)[34].

إنه زوبعةٌ عنيفةٌ مُتمردة، وهو في الوقت نفسه نسمةٌ عليلةٌ يتجلى فيها حضور الله. يستحيل على أيٍّ هرطقةٍ الدخول إلى لاهوته، أو أن يستمر أيّ خطأ في وجوده. فهو يُفجر ويُعري الجروح المتقيحة لفضيلتنا المزيفة ومراءاتنا.

يكشف قديسنا عدميّةَ حريتنا وذكائنا الفارغَين. لا يستطيع أحدٌ الوقوف في حضوره بتقوى خارجية مزيفة وكأنه قديس (لا نستطيع أن نقول عن إنسانٍ ما أنه بلغ التواضع، لكونه يحمل بطبيعته صفاتٍ كاللطف أو الهدوء أو التعقل أو الوداعة...)[35] (لذلك لا تسمح لأي إنسان أن يجرأ على التفكير بنفسه أنه بلغ مرحلة التواضع بمجرد أن قدم ندماً في ذهنه)[36].

لا يمكن لأي إنسانٍ وقحٍ أن يدنو منه دون أن تتكسر أجنحة وقاحته (لا تخطئ، أيها الأحمق! اتعب من أجل الله وابذل العرق متأملاً في سر تدبيره)[37].

فيه تجد تسلسلاً في الفضائل (من يقول بوقاحةٍ أنه من الممكن أن يكتسب فضيلةً أكثر كمالاً، قبل أن ينجز الفضائل الأولى، فإنه بلا شكٍ وضع أول لبنةٍ لتدمير حياته الروحية)[38]، لأن (الكلام النابع من البِّر هو

34- [42، ص.212 (195)].
35- [77، ص. 383 (79)].
36- [77، ص. 384 (81)].
37- [7، ص.5-64 (88)].
38- [3، ص.22 (183)].

كنزٌ من الرجاء، وأما الحكمة التي لا تستند على البِّر فهي مستودع عار)[39].

غالباً عندما تقرأ كتاباً ما، فإنك تتصفحه بسرعةٍ وتنهيه بدون صعوبة، ثم تضعه جانباً وتنساه. وفي أوقاتٍ أخرى، ومع كتابٍ مختلف، فإنك لا تحرز تقدماً سهلاً، فهو يجعل رأسك يترنح في ألغازه، ويجعلك متشابكاً في تراكيبه وبنيانه.

عندما تختار كتب القديس إسحق، فإنك لا تحرز تقدماً سهلاً كما في الحالة الأولى، لذلك تتوقف. ولكن هذا التوقف ليس لنفس السبب كما في النوع الثاني المذكور من الكتب. فهنا لا تتوقف لأنك تعاني من صداع في الرأس، أو بسبب إرهاقك من المنطق الجاف للكتاب، بل تتوقف لأنك دافقٌ بالحياة (أحياناً تصبح بعض الآيات جميلةً وعذبةً في فم الإنسان، وأحياناً أخرى فإن آيةً واحدةً يُرتلها مراتٍ لا تحصى، دون أن تسمح له بالمتابعة إلى سواها، إذ لم يشبع منها شبعاً تاماً)[40]. فتتوقف محلقاً تماماً كما في الكتاب الأول في حالةٍ لا تنتهي، لتجد حياةً لا تفنى، تفتح لك أبوابها، ونبعاً لا يجف. عندئذٍ لا يتوقف اهتمامك وفرحك بهذه الآية.

تجلسُ بقرب صنابير مياه هذا النبع الدائمة التدفق. ويبدو الأمر كما لو أنك مسافرٌ في كلِّ أرجاء العالم، إلى كلِّ البلدان، إلى كلِّ العصور،

39- [1، ص.8 (7)].
40- [23، ص.115-6 (134)]

إلى كلّ أفكار وقلوب ومعاناة البشر. كلُّ الأشياء تشكل جسماً واحداً، وتتواجد في شيءٍ واحد. حيث يفرح كلُّ شيءٍ ويشارك في حب الله للبشر.

هنا تتحد القراءات الأكثر سهولةً وصعوبة. ويسطع نورٌ مبهجٌ ينير ويعانق سر الحياة بأكملها. أنت لا تستطيع أن تتلفظ بكلمةٍ، خائفٌ أنتَ وفاقدٌ لصوابك. يتوقف فيّك عن كلّ تعليقٍ، إذ تُصابُ بدوارٍ وتثمل. فتقف مشلولاً أمام ذاك الذي يرتفع بالإنسانية في حبه لها، ويحملك بعيداً، إلى عالمٍ آخر، مكانٍ آخر، ورقصةٍ أخرى، بعنفٍ وهدوءٍ (أحياناً تتعرض أرواحنا للاختناق وكأنها في عرضِ البحر)[41]. القديس إسحق هو إنسانٌ فريدٌ من نوعه.

هذه ليست فلسفة، هي ما وراء الفلسفة، "لأنه إذا كان العالم في حكمة الله لم يعرف الله بالحكمة، استحسن الله أن يخلص المؤمنين بجهالة الكرازة" (1كور1:21)، الحكمة الحقيقية هي التي تُخلص البشر (لا أحد يقدر على الحصول على ملكوت السماء بتعاليم بشرية)[42]. هو لا يصنف الفكر إلى فئات، ولا يُعبر عن مبادئ أو قيمٍ ببرود. ما لدينا هنا هو أحداثٌ، ثوراتٌ. "فجأة"، و"دون علمه"، يمتلئ بشيءٍ ما يجعله يتجاوز نفسَه، وهذا هو ما ينقله إلينا بطريقةٍ مليئةٍ بالقداسة.

من تواجُدِه في كلّ مكان، من "النُّبل الكامل لسلوكه"، ومن

41- [50، ص.241 (232)].
42- [72، ص.353 (70)].

الطريقة التي يتكلم بها ويتحرك ويُعبّر عن نفسه، يتابع الروح مستمراً (دون سببٍ خارجي)[43] ودون جهد، وبشكلٍ طبيعيٍ غير مفتعل، يتجلى الذي لا يُدرك، ويتم الوصول إلى الذي لا يمكن الدنو منه. هناك يصل إلى أعماقنا بشكلٍ مطلقٍ ومرغوبٍ فيه، ذاك الذي يفوق كلّ معرفةٍ، والذي لم يخطر على قلب بشر. (راجع 1كو9:2)

يقول أشياء كثيرة، وأشياء أكثر تتحدث عن نفسها باستمرار، وما تقوله كلماته يقوله صمته أيضاً. وعندما يتكلم يُشعرنا بالراحة؛ يُنعشنا. وعندما يصمت يُنيرنا ويُعلّمنا. تساهُله قاسٍ وصرامَتُه مُحِبّة. هذه هي النعمة الإلهية الإنسانية التي سكنت بداخله. لهذا لا تعرف إن كان شاعراً أو بالأحرى كان نبياً. لا تعلم إن كان يعيش هنا أم يسكن في العالم الآخر.

لقد اجتاز فجوات عظيمة، وترك أثراً في زمننا الجديد. تنشّق هواء حرية الروح العليل، ورأى أن هناك إمكانية ليحيا الإنسان، وعاد مخبراً إيانا عن بشارة المسيح والسلام.

عندئذٍ تقول: ماذا أفعل؟ عمَّ أبحث في هذه الحياة؟ ما هي قيمة نجاحي؟ ماذا أربح عندما أتوصل إلى ما يريدني الآخرون أن أصل إليه؟ تفهمْ نصيحته: (ازدرِ نفسك، وسترى مجد الله في ذاتك)[44]، هل يمكن لفشلك المؤقت أن يمثل بدايةً، ونقطة انطلاقٍ للرجاء ولإمكانية حياةٍ

43- [53، ص.264 (263)].
44- [5، ص.50 (29)].

حقيقية؟ هو يتحداك، ويدعوك إلى حياةٍ ساميةٍ بمنطقٍ مختلف.

عندما تقع تحت سحره، وتولّف حياتك على موجته، يحصل شيءٌ رائعٌ. تقرأ صفحةً واحدة، عبارةً أو سطراً واحداً، ولا تستطيع المضي قدماً. يحرقك، ويعزيك، يحلُّك تماماً من قيودك. يفتح عوالم جديدةً لكَ، بهواءٍ ونورٍ مختلفين؛ وبلغةٍ ومثالياتٍ مختلفةٍ.

هذه الأشياء الجديدة غريبة وغير معروفة لك ولا تتوافق مع ما اختبرته حتى الآن. ومع ذلك تجد بأنها متوافقة وملائمة لطبيعتك ولكيانك العميق، الذي كان محتقراً ومنسياً؛ فتبكي وتنتحب. تقف في حالة خوفٍ وفرح؛ تقف لأنك لا تستطيع فعل أي شيءٍ سوى البقاء هنا، وسط الموسيقى التي سحرتك. وتبتهج نفسك بهذه الحالة "لا تستطيع" لأنها تفتح أمامك احتمالات الخلاص؛ لتتلقاها كهبةٍ مجانية، وتقول: (من الأفضل لي ألا أخطو خطوةً في المراءاة، فالموت في سبيل الله هو أفضل من حياةٍ مليئةٍ بالعار وبليدة)[45] (يا رب، اجعلني مستحقاً أن أبغض حياتي، في سبيل الحياة معك!)[46].

كتب راهبٌ: (قرأت القديس إسحق، فبقيت ساكناً. تنفست، اجتذبني الفردوس. اختبرت قراناً بين كياني والعالم الثاني، ماذا يوجد هناك وما هو الذي فينا؟ فاغتبط جسدي بكامله بمعموديتي، في ما هو غير مخلوق وغير مُدنى منه.

45- [6، ص.61 (230)].

46- [62، ص.300 (166)].

انفتحت بوابةٌ، ودخلتُ إلى مكانٍ مختلف، أتت روحٌ أخرى ووجدتني، كانت خفيفةً جداً، وصبورة، روح القيامة. هذا ما كان تهتم به حياتي، ولا شيء آخر في هذه اللحظة.

اغتنيت بأحاسيس أخرى، وطئت أرضاً مختلفة، حملتني قدمان مختلفتان، رأيت بعيونٍ جديدةٍ كلَّ ما كان معروفاً مسبقاً ومألوفاً لي. لقد سمعته بأذنين جديدتين، فكلُّ شيءٍ أخذ معنى.

فجأةً تتواجد كلُّ الأشياء المتماثلة بطريقةٍ مختلفة، ويصدر نورٌ مختلفٌ من داخلها فتشرق الحياة. عندها تنكشف قيمة كلّ شخصٍ وجماله، كشيءٍ مختلف. إنها علاقةٌ مختلفةٌ بين الأشياء وبين الناس. كنتَ تتعثر في السابق، بينما الآن تتحركُ بحريةٍ. كنتَ تتلعثم بالكلام في البداية، بينما الآن تتكلم بوضوحٍ تام.

إنك تحب كلّ الناس، وتبقى حراً، تاركاً إياهم أنقياء وكاملين. يراودك إحساسٌ من المسامحة والغفران، ينتشر في كلّ مكان، فتكون ممتناً لله، وتسامح الجميع، ولا تزعج أحداً. لا أحد يلمسك، وأنت لا تبحث عن تبريرٍ بشري. يأتي السرور من كلّ جانب؛ فمن الظلمة يشرق النور، ومن الفقر تأتي الثروة. ومن الضجة يأتي السكون. ومن اليأس، يأتي الهدوء ويتجدد الرجاء. اتحدتُ بجسدي المائت في عدم الفساد، من خلال ولوجي أكثر في أعماق القديس إسحق، جاعلاً إياه صنواً لي.

اختفيتُ من على وجه الأرض. التقدم والولوج في العالم الثاني لا ينتهي؛ فالحياة لنا، والموت لنا. نحيا لنموت؛ نعيش بهدف الامتداد في

العالم الثاني، لنتمكن من الدخول في زواجٍ مع الموت، مع الاحتضار، مع فقدان وضياع كلّ شيء. وهكذا نكسب كلّ شيء، نجده ونفرح به. نتواجد مع هذه الأشياء ومن أجلها، كوننا غائبين، فانين وغير موجودين.

جهادنا وصراعنا يتمثل في الوصول إلى نقطة نضوج "اللاوجود" - فنكون مستحقين لهذا الشرف المتوج - إلى حرية السفر في العالم الثاني، كوننا حاضرين في كلّ مكانٍ بسكونٍ وغيابٍ تامّين.

نحن مقيدون داخل سجن الزمن الحاضر، داخل جدران المظاهر - (ليس كلّ شيءٍ ظاهر، بالضرورة هو جيد) القديس إغناطيوس الإنطاكي - في عقم كلّ ما هو نسبي، في صمت الحركة الميكانيكية للحياة.

كلٌّ هذا مثل موسيقى تتفجر بينما نسافر سائحين. فالحركة هي صلاةٌ[47]. الرحلة هي رؤيةٌ، الامتداد هو سرورٌ. فعند ذهابنا وراء كلّ شيءٍ، يكون هذا تعبير الكلمة المتجسد "Logos"، الفصح، المسيح).

✠

إنها رحلةٌ لا تتوقف؛ تسلقٌ وصعودٌ نحو السماء، فتصل الأشياء كلّها إلى نقطة السمو، فتتجاوزها ونستغني عنها، عندئذٍ تنتهي. فندخل في صمتٍ ورقادٍ مطلقين، وبهذا يتحرر المرء من الأهواء، ومن الجهل،

47- [37، ص.182- 3 (347)].

ومن الرذيلة، فيغدو غير مقيدٍ (بالوسائل الأخرى التي تعري الإنسان)[48] فالحياة الحاضرة لا تشبعه، لذلك لا يُقيد ذاته بها.

الإنسان ليس مقيداً بأخلاقياتٍ وآمالٍ أرضية (فالرجاء في هذه الحياة الحاضرة، يُضعف التفكير)[49] فهشاشة صَدَفة الأمل الدنيوي القاسية يكشفها اليأس، الذي يهشم سجن العقم حيث "لا سلاحٌ أقوى من اليأس".

هذا الإنسان لا يجعل الأعمال الصالحة والفضيلة هدفه في الحياة، بل يكتسبها بنعمة الله، ويخطو قدماً إلى ما وراءها: (فأسلوب حياة الإيمان هو أسمى من الفضيلة، حيث لا يتمثل بأعمالٍ، بل براحةٍ وعزاءٍ تامّين)[50]

يتحرك بهدوءٍ إلى ما وراء حدود الحركة، والكلام، والحس، والمعرفة، وأيّ نشاطٍ مهما كان (ليصبح إنساناً حراً وحاكماً لذاته، وكابنٍ من أبناء الله متحكماً بكلّ الأشياء بحريةٍ تامة)[51].

يصل هذا الإنسان في النهاية، لينبذ حتى حريته الشخصية (بعدئذٍ تُحرم طبيعته من إرادها الحرة ... منقادةً بقوةٍ أخرى إلى حيث لا تعرف... في تلك اللحظة تكون مقيدةً في الأسر)[52] عندها يجد نفسه في "**الجهل**" الذي هو فوق كل معرفةٍ و"**الأسر**" الذي هو فوق كلّ حرية.

هكذا فقد حطّمَ هذا الإنسان كلّ حاجز، ونال ما لا يُنال (تفكيره

48- [52، ص.259 (257)].
49- [6، ص.61 (231)].
50- [52، ص.257 (255)].
51- [52. ص.254 (251)].
52- [23، ص.119 (137)].

مأسورٌ بالله، ومأخوذٌ في دهشٍ مرهوب، ناسياً طلباته وتوسلاته الخاصة)[53]. من الآن فصاعداً (العقل لم يعد يمتلك الصلاة أو الحركة أو البكاء أو السيطرة أو الإرادة الحرة، أو التضرع أو الرغبة أو الشوق الحار لأشياء يأملها لا في هذه الحياة ولا في الدهر الآتي)[54]، مودعاً ذاته بين يدي الله.

لكن الوصول إلى هناك يتطلب جهاداً حقيقياً. والقديس إسحق لا يكلمك عن هذا فقط، ففي كتاباته تراه يتجاوز حقيقةً قيود الفساد، مميِّزاً التغيرات الإلهية في شخصه، وحقيقة كونه في تلك المملكة الكامنة وراء هذا العالم، حيث يتم تجاوز كلّ شيء. والآن هو يُظهر "بينما أصبح مسكنه في المجد الذي يعطي الفرح" من خلال كيانه كيف تعمل النواميس الروحية، وكيف يتقدم المرء نحو السمو والرفعة في كلّ المجالات والمواضيع والمستويات.

لكلّ شيءٍ إيقاعه وزمنه الخاصين. عليك الانتظار وترك هذا الشيء يتحرك من تلقاء ذاته، فعلى سبيل المثال، كلّ مرضٍ يجب أن يأخذ حده قبل مغادرته للمريض. وكذلك أيضاً يجب أن يخضع أيّ نوعٍ من الفاكهة إلى شروطٍ مناخيةٍ ملائمةٍ لكي ينضج. فلا يمكننا أن نطلب أشياء في غير أوقاتها المناسبة.

(فعندما لا يكون الوقت مناسباً، دعونا لا نتوق – بحسب تفكيرنا

53- [23، ص.121 (140)].
54- [23، ص.116 (135)].

الشخصي - سعياً وراء الأشياء الصعبة المنال، خشية أن يجعل منا خصمنا الماكر أضحوكةً)[55] (كلُّ من يشرع بأشياء فوق طاقته، وقبل أوانها، فإنه يؤذي نفسه بشكلٍ مضاعف)[56].

يجب علينا ألا نطلب أشياء لتزدهر في مكانٍ معين، بينما هو ليس مكانها. (ليُقدّرَ كلُّ عملٍ في مكانه الخاص، لئلا نغدو مشوشين أو مضطربين في نظامنا)[57].

بالتالي فإن كل هذا ضروري - المكان، الزمان، الإجراء الخاص - لصدور شيءٍ صادقٍ وحقيقي عما نقوم به. (هناك نظامٌ وترتيبٌ لكلِّ عملٍ، ولكلِّ نظامٍ له وقتٌ محددٌ وثابت)[58]. وفيما بعد تستكلم هذه النتيجة وتتجلى مريحةً الإنسان في كلِّ زمانٍ ومكان.

التعب الجسدي يسبق الراحة الروحية (تماماً كما في البدء، فإن تشكيل الجسد سبق نفخة الروح، لذلك فإن أعمال الجسد تسبق تعب الروح)[59] (كلُّ فضيلةٍ تُؤدى بلا تعبٍ جسدي، يُنظر إليها على أنها ثمرةٌ غير ناضجة، ماتت قبل أن تولد)[60].

بدايةً يأتي التعب والتغصب، وفيما بعد نصل إلى مرحلةٍ تكون الأشياء فيها غير مفروضةٍ وبلا جهدٍ. في البداية يأتي الجهاد وبعدها ننال

55- [ملحق ب، ص.447 (394)].
56- [21، ص.107 (297)].
57- [21، ص.110 (301)].
58- [21، ص.107 (297)].
59- [48، ص.234 (290)].
60- [6، ص.60 (229)].

الراحة والمتعة والوفرة.

(الجهاد النسكي، هو أم التقديس... لا يخدعن المرء ذاته ويتخيل الأمور السماوية؛ لأن الروح الملوثة لا تصعد إلى ذلك الملكوت النقي، ولا تنضم روحٌ كهذه إلى أرواح القديسين)[61].

سنبدأ إذاً بأعمال الجسد. المادة والتغصب والجهاد ستشكل لنا الخطوات الأولى التي تمكننا من الصعود في السلم الروحي. التي دونها لا نستطيع إحراز أيِّ تقدم: (عندما ترغب بالاقتراب من الله بقلبك، أظهر له أولاً شوقك وتوقك بأعمالك الجسدية)[62].

دون المرور بعار صليب أيِّ فضيلةٍ نحياها، ليس بالإمكان الوصول إلى الجزء الثاني من الصلب؛ مجد الصليب، أي تحرر المرء من الأهواء والصور الذهنية. (حتى يتلقى الإنسان الروحَ المعزي، فهو بحاجةٍ إلى قراءة الإنجيل المقدس)[63] لهذا السبب فهو ينصح: (قَيد فكرك بقراءة الإنجيل)[64] (واشغل نفسك بقراءة الكتب الروحية، التي ستوضح لك السبل الغامضة للرؤية الإلهية)[65] (لا يدرك المرء صفاء أفكاره ونقاءها دون قراءةٍ متواصلةٍ)[66] (يشكل التأمل الدائم في الإنجيل، نوراً للروح)[67].

لكن (عندما تتغلغل قوة الروح القدس، في قوة النفس... عندئذٍ

61- [36، ص.160 (56-7)].
62- [48، ص.233 (288)].
63- [6، ص.58 (227)].
64- [ملحق ب، ص.438، (383)].
65- [4، ص.36 (98)].
66- [5، ص.45 (23)].
67- [54، ص.266 (141)].

تتعلم روح الإنسان من الروح القدس بشكلٍ سري، ولا يحتاج الإنسان بعد إلى مساعدةٍ من أمورٍ حسية)[68]. و(يرتقـــي عقلـــه فـــوق صـــور الأشياء)[69].

يبدأ مثل هذا الإنسان من التعليم والوعظ الذي (هـــو أداة هـــذا العالم)[70]، إلى أن يبلغ (الصمت الذي هو ســـر الـــدهر الآتي)[71] (فهـــو يصمت نتيجة جهله لكلّ ما يوجد ويراه هناك. إنه الجهل الذي يفـــوق المعرفة سمواً)[72].

(المعرفة هي الخطوة التي يصعد فيها المرء إلى الإيمان؛ وعندما يبلـــغ المرء الإيمان، فلا يعود بحاجةٍ للمعرفة)[73] فيتجاوز العالم المحسوس كلـــه (ويتلقى الإدراك من الروح وليس من الأحاسيس)[74].

في هذه الحالة (تَبْطُل المعرفة، وتنتهي الأعمال، لتصل إلى النهايـــة، ويصبح توظيف الأحاسيس فائضاً)[75].

(النوح هو عمل الراهب)[76] (وعندما تُعطى حماسةٌ للروح، فإن ندم النوح يفرُّ بعيداً)[77] .

68- [6، ص.58 (227)].
69- [6، ص.59 (228)].
70- [65، ص.321 (365)]
71- [نفس المرجع].
72- [23، ص.122 (140)].
73- [52، ص.257 (254)].
74- [53، ص.264 (262)].
75- [53، ص.264 (263)].
76- [37، ص.178 (341)].
77- [6، ص.60 (229)].

الدموع هي علامةٌ جسدية، تدل على أن تفكيرك قد خرج من سجن هذا العالم[78] (إذا لاحظت أن عيناك امتلأتا بالدموع... عندئذٍ اعرف أنك اخترقت معسكر المعارضة "الشياطين")[79].

(عندما يسمو العقل فوق الأشياء المخلوقة، عندها يتخلى الجسد عن الدموع، وكلّ حركةٍ وإحساس)[80] ويجتاز العقل من الدينونة العادلة إلى الرحمة. وهذا هو تحقيق وتفوُّق الدينونة العادلة (الرحمة تعارض الدينونة العادلة)[81].

بعد حياةٍ طويلةٍ في السكون، (تجد فرحاً بلا سبب... وتنفتح عيناك لرؤية قوة الله الخلاقة وجمال الأشياء المخلوقة)[82] ولكن حتى هناك لا يطول بقاؤك. (جمال الأشياء سيوجد في الجديد الآتي، لكنه سيكون أقل جمالاً من جمال "الله". فكيف إذاً يمكن للفكر المتأمّل في جمال الله، أن يتخلى عنه؟)[83].

(النسك الشديد، يولّد حماسةً لا حد لها)[84] مولدةً صلاةً (نقيةً دون تجوالٍ في الأفكار، وصلاةً سهلةً دون جهدٍ)[85].

في البداية، هناك حاجةٌ إلى تعبٍ وألمٍ في الصلاة (اعتبر كلّ صلاةٍ

78- [14، ص.82 (54)].
79- [67، ص.329 (48)].
80- [4، ص.34 (96)].
81- [51، ص.244 (235)].
82- [65، ص.322 (366)].
83- [43، ص.214 (62)].
84- [18، ص.96 (41)].
85- [18، ص.97 (42)].

لا يتعب الجسد فيها، ولا يُنخس القلب، بأنها إخفاق)[86] فيما بعد، (لا يصلي الإنسان بتعبٍ وقلق... لأن قلبه يغمره فرحٌ ودهشٌ، وتتفجر منه بشكلٍ مستمرٍ تعابير الشكر والامتنان)[87].

في النهاية، يتم الاستغناء حتى عن الصلاة ذاتها. (لأن ما يتعلق بالصلاة توقف، بينما تستمر رؤيةٌ إلهيةٌ ما، ولا يعود يلجأ العقل إلى الصلاة)[88] (يرتقي الذهن فوق الصلاة، وتُهجر الصلاة باكتشاف شيءٍ أفضل)[89].

هناك زيارةٌ إلهيةٌ وفرحٌ سماويٌ يملأ كلَّ الجسد. الأمور الأرضية تُهجر، وينسى المرء الأشياء الموجودة في العالم، لأن حلاوةً تفوق الوصف تنحدرُ وتغمر كيانه. (نبعاً يتدفق في قلبه، يدفُق حلاوةً: تُضعِف أعضاءه... فيعجز عن السجود بسبب الفرح الذي يندفع عبر كلِّ جسده)[90].

في تلك الحالة ليس هناك تمييزٌ بين الجسد والروح (عندئذٍ تلك البهجة التي تندفع في كلِّ جسده، تطوف محلقةً داخل الإنسان، في تلك الساعة يرى بأن لا شيء آخر يحفظ ذلك سوى ملكوت السموات)[91].

القديس إسحق يختَبِر نعمة التجسد الإلهي، وإتحاد طبيعتي المسيح،

86- [21، ص.107 (297)].
87- [8، ص.68 (84)].
88- [23، ص.116 (135)].
89- [23، ص.121 (140)].
90- [4، ص.39 (102)].
91- [68، ص.333 (39)].

بلا تشوشٍ أو انقسام. فهو ضد النسطورية في كلٍّ من تعليمه وحياتـــه. وتضع نعمة التغلغل والفهم العميق خاتمها على كامل كيانه وشخصيته وتعطيها الحياة. عندئذٍ الليل والنهار يصبحان سيان[92]؛ الأفراح والأتراح واحدة. وتصبح التجارب والمحن أحلى من العسل له.

في هذه الحالة، يتم مواجهة الأهواء بطريقةٍ ديناميكية. حيث تسيطر عليها أشياء أخرى أعظم منها "الفرح الذي هو في الله هو أقوى مـــن الحياة الحاضرة". هناك حالة سُكرٍ إلهي، تجعل الجسد فاقد الإحســـاس بكلٍّ المحن (تَسكر الروح بفرح الأمل وبالســـرور الـــذي هـــو في الله، ويصبح الجسد عديم الحس بالتجارب، حتى لو كان ضعيفاً)[93] بـــذلك (يُمتنع الدخول إلى القلب "إلى مكان تمركز الأهواء" بسبب تخمة عقلنا الواعي، وليس نتيجة الجهاد)[94] (هذا ليس لأن هجمات الأهواء توقفت عن التواجد، بل لأن القلب الذي يتلقاها قد مات عنها، وأصبح يعيش في شيءٍ آخر)، (فالقلب مشبعٌ في التمتع بشيءٍ آخـــر) و (في مكـــان تمركز الهجمات قد سيطرت رغبةٌ أخرى، أقوى منها)[95].

الخوف والخجل يأتيان أولاً (مخافة الله هو بداية الفضيلة)[96] (عندما يأسر خوف الله فكر الإنسان، لا يعود يخجل بسرعةٍ من أشياءٍ تافهـــةٍ

92- [65، ص.322 (366)].
93- [68، ص.236 (291)].
94- [62، ص.299 (165)].
95- [62، ص.298 (164)].
96- [1، ص.3 (1)].

تتقاذفه)[97]. وعندما ترتفع درجة حرارة الحب، (يُشاهَدُ تغييراً غير مألوف[98].

حب الله متقدٌ بطبيعته، وعندما يصيب شخصاً ما بإفراط، فلا يستطيع أن يحتويه (المحبة لا تعرف الخجل، ولهذا السبب فهي لا تعرف أن تعطي شكلاً مناسباً من اللياقة)[99]، وتُحدث فيه تغييراً غير مألوف، وعلاماتٍ واضحة على جسده. فيصبح وجهه متورداً ومشرقاً بالفرح، ينصرف الخوف والخجل عنه، ويصبح كإنسانٍ في حالة نشوةٍ روحية. تهجره قوة فكره، ويصبح مثل رجلٍ فاقدٍ لصوابه. يعتبر الموت المريع فرحاً، وفكره يتأمل مُركزاً على الأشياء السماوية دائماً. رغم غيابه، فهو ينسجم مع الآخرين كما لو أنه حاضرٌ، دون أن يراه أحد.

معرفته ونظره الطبيعيان يزولان، ولا يعي حركته من خلال الإدراك الحسي. في أدائه أيَّ عمل، فهو ليس على علمٍ به أبداً، لأن ذهنه منتشٍ في حالة تأمل، وعقله في حديثٍ دائمٍ مع شخصٍ آخر. هذه هي حالة السُكر الروحي التي سَكر فيها الرسل والشهداء؛ وكونهم حكماء، اعتبرهم الآخرون حمقى. أناساً آخرين جالوا في البرية، كونهم ذوي ترتيبٍ حسنٍ وسط فوضى عارمة.

وليمنحنا الله أن نَبلُغ إلى مثل هذا التشويش.

✠

97- [1، ص.6 (5)].

98- يتحدث عن هذه الحالة في العظة الخامسة والثلاثين، بحسب ترقيم الترجمة الإنجليزية.

99- [51، ص.245 (236)].

لكي يُعَبِّر عن الذي لا يُوصف، فهو يتكلم حتماً بألفاظٍ متناقضة، ومصطلحاتٍ سلبية. مستخدماً مفرداتٍ ومفاهيم وقيماً إنسانية حُطِّمَت وتفككت.

ماذا يمكن أن يُقال عن الحالة التي يتوقف فيها الفكر والأحاسيس عن العمل؟ كيف له أن ينقل إلينا الشيء الذي لا يمكن فهمه، وغير المخلوق، باستخدام عناصر مخلوقة؟ (فليس هناك من اسمٍ كاملٍ أو حقيقيٍ أياً كان للأشياء المتعلقة بالدهر الآتي، بل "حالةٌ" بسيطةٌ من المعرفة فقط، تتجاوز كلَّ تسميةٍ، وكلَّ عنصرٍ بدائي، وكلَّ لونٍ وهيئةٍ أو أي شكلٍ مُركب)[100].

لهذا السبب فهو يتكلم فقط عن تشويش، عن حماقةٍ وسُكر؛ وعن فقدان الأحاسيس، الخوف، الخجل والإرادة الحرة؛ عن الفوضى، والخروج عن القياس، وعدم الوجود. السبب هو أنه يريد التعبير عن الرصانة والإدراك والحرية والوجود الحقيقيين أيّ "العالم الجديد والبسيط" الذي تلقاه.

أصبح شبه الله، فتفكيره من فكر الله. والآن تهرب كلُّ تلك الأشياء، التي كانت في وقتٍ سابقٍ أساسية كـ (الخوف، والخجل، الاعتدال، والنظام...) والتي يُصِرّ عليها القديس جداً، تاركةً إياه. تصبح عقبةً تعيق تقدمه العجيب نحو السماء، حيث يوجد هناك من يعمل ويتحرك ويُرشِد.

100- [(23)، ص.118 (136)].

لا يمكن لهذه الأشياء أن تتحمل نار الألوهية التي تختبر كلَّ شيءٍ وتجعله جديداً. وعندما يخسر كلَّ شيء، فذلك هو الوقت الذي يجد فيه كلَّ شيءٍ بطريقةٍ إلهيةٍ واحدة.

يُرفع إلى فوق، يختفي. وسيتم العثور عليه حقاً في مكانٍ مختلف، وبطريقةٍ مختلفة (سما فوق عبودية الأشياء الدنيوية إلى ملكوت خالقها)[101]. أُعطي بالنعمة (كلَّ القوة في السماء وعلى الأرض) حيث (يسيطر على طبائع الخليقة كلها، وكأنه إلهٌ... ويستطيع مراتٍ عديدةٍ أن يأتي بالكلِّ من اللاوجود)[102].

فقديسنا يعرض لنا ما يستطيع أن يبلغه الإنسان، وماذا يتولد في داخله، وكيف لكيانه أن يمتد (أية كنوزٍ خبأها روحه بداخلها)[103]. كيف له أن يضيع! أو حتى كيف يُعثر عليه حقيقةً!

يعلم أن واحداً من ألف يمكنه الوصول إلى تلك المرحلة، يمكنه كسر قيود الفساد، وتبين أنه مستحقٌ لذلك السر الغامض[104]. ولكن طالما أن شخصاً واحداً من نفس طبيعتنا بلغ تلك المرحلة، فإننا بشخصه وصلنا نحن أيضاً بنعمة الله. وأصبحنا مشاركين في فرح الدهر الآتي الذي لا يوصف، والذي حتى الآن يتفجر متدفقاً في أرواح وأجساد إخوتنا المؤلَهين، وهؤلاء الإخوة المؤلهين كُثر. وتعدادهم ليس محدداً

101- [52، ص.257 (254)].
102- [52، ص.254 (251)].
103- [3، ص.16 (314)].
104- [23، ص.117 (135)].

بقيمةٍ عددية، إنما بالحقيقة وبالقوة الواحدة التي تُلخص أشواق الجميع، وتشبع انتظار الخليقة المشتاقة لله.

✠

بينما وصل قديسنا إلى تلك المرحلة، وتجاوز قيود الفساد، فهو يعلم (أننا محصورون في حدود الجسد)[105] فإن عمل التوبة لم ينته. محتاطاً ضد (خيانة الشياطين وأولئك الذين يعظون أن الكمال الفائق يمكن بلوغه في هذا العالم المكبل بالأهواء والضال)[106] و(كمال الكامل هو بالحقيقة بلا اكتمال)[107]. لهذا السبب (يجب ألا يعمل المرء إلى حين رؤية الثمار، بل عليه أن يجاهد حتى لحظة رحيله. لأنه غالباً ما تُهلك عاصفة البَرَد فجأةً الثمار الناضجة)[108].

(إن يوم دفننا، هو سَبتُنا)[109] (السبت الحقيقي، هو القبر بحد ذاتـــه، وليس تشبيهاً أو مجازاً. حيث يُحفظ الإنسان بكليته، روحاً وجســـداً، السبت هناك في القبر)[110]. يجد المرء راحته من الأهواء يوم الســـبت في القبر فقط، فالنهاية هي القبر. وخلال حياته فهو يجد الراحة فقـــط في التواضع. وقديسنا يضع ثقته في هذا فقط وهو: (أن الإنسان الذي يحمل لؤلؤة العفة، ويرتحل في هذا العالم في طريق أعدائه، ليس لـــه أيَّ أمـــلٍ

105- [الملحق ب، ص.448 (395)].
106- [نفس المرجع].
107- [32، ص.153 (220)].
108- [62، ص.300 (165)].
109- [29، ص.143 (293)].
110- [29، ص.142 (292)].

بالنجاة من اللصوص... حتى بلوغه قداسة القبر، الذي هو أرض اليقين)[111].

(فإذا لاحظت في نفسك قبل دخولك مدينة التواضع، أنك وجدت راحةً من إزعاج الأهواء، فلا تصدق ذلك... لأنك لن تجد راحةً من تعبك، ومن خُطَطِ العدو الغادرة، حتى تصل إلى مسكن التواضع المقدس)[112].

التواضع أمانٌ ويقين. الإنسان المتواضع لديه روح محبة الجماعة ومهابة الراقدين والموتى، ولديه حرية وراحة من لم يوجد، فهو (مثل رجلٍ لم يأتِ إلى الوجود)[113]. لا يُزعج أحداً، ولا يُزعجه أحد. إنه غير مرئيٍ ومجهول، كما هي الروح التي لا تُرى ولا تُعرف[114]، هو روح وتعزية العالم.

الإنسان المتواضع لا يكرهه أحدٌ، فهو محبوبٌ من الجميع، ومهما تجنب المجد، فالمجد يلحق به. لا يجرح أحداً، ولا أحدَ يستطيع جرحه أو إلحاق الأذى به. (يحبُ الجميع، والكل يحبونه)[115] يدنو من الحيوانات الضارية فتروض أمامه، وتتقدم إليه كسيدها (تلعق يديه وقدميه، لأنها تشم منه عطر آدم قبل السقوط)[116]. (فحتى الشياطين... تصبح كغبارٍ

111- [74، ص.363 (280)].
112- [35، ص.159 (105)].
113- [71، ص.348 (311)].
114- [نفس المرجع]
115- [77، ص.382 (78)].
116- [77، ص.382 (78)].

حالما يأتون أمامه)[117].

الكل يبجلونه، لأنهم يرون فيه صورة ابن الله الذي، عندما صار بشراً، لبس التواضع. وهذه النعمة الإلهية تَلبُسُهُ (إنها لباس الألوهة الذي يتشح الله به)[118] وتحييه من الداخل، وتعطيه الحكمة (فيراه كلُّ البشر وكأنه ملاك نور... وكلُّ إنسانٍ ينتظر كلماته وكأنها كلمات الله)[119]. التواضع هو النهاية، والهدف الأخير.

كلُّ الجهادات والفضائل والنسك تهدف إلى التواضع (دون التواضع كلّ أعمالنا تذهب سدىً، وأيضاً كلّ فضيلةٍ وكلّ عملٍ صالح)[120].

لا يكافأُ القديسون على فضائلهم أو تعبهم سعياً وراء الفضيلة، ولكن بمقدار اقتنائهم للتواضع[121]. (إذا اقتنينا التواضع، نتقدم نحو الله، حتى دون أعمالٍ صالحة، ونصبح أبناء له)، (ولكن دونه، لا تفيدنا الأعمال، بل بالحري تجلب لنا شروراً كثيرة)[122]. هذا هو كمال الملكوت (إنجاز الوعد السابق وتمام الرجاء)[123].

(التواضع هو قوةٌ سريةٌ مؤكدةٌ، يتلقاها القديسون الكاملون عند إنهائهم رحلة اختبارهم على الأرض)[124]. (هذه الفضيلة تشمل الكلَّ في

117- [في نفس المرجع].
118- [77، ص.381 (76)].
119- [77، ص.382 (78)].
120- [69، ص.338 (203)].
121- [57، ص.282 (160)].
122- [69، ص.338 (203)].
123- صلاة غروب عيد العنصرة.
124- [77، ص.383 (79)].

ذاتها) إنها القوة التي نالها الرسل يوم العنصرة. وبهذا الشأن أمر الرب: (لا تغادروا **أورشليم** إلا حين تلبسونَ **قوةً** من العلاء) أورشليم هي **الفضيلة**؛ والقوة هي **التواضع**[125].

في الحقيقة، يمكن القول بأن القديس إسحق هو مُعلمٌ عظيمٌ لسر التواضع الخفي. كلُّ عظاته النسكية تتبنى التواضع كهدفٍ ومصدر. كلُّ الجهادات النسكية تَصبُّ في بحر التواضع الواسع. تتبع التواضع الراحة السماوية التي تستعيد الجمال الذي خُلِق الإنسان على صورته في البدء (فكلُّ من امتلك التواضع، أصبح محبوباً بطبيعته)[126].

يرى القديس إسحق بالتواضع تألّهاً، (يحسب الجميع، الإنسان المتواضع الذهن، كإله)؛ وعندما يوشك على التكلم عن التواضع، يتردد (ويمتلئ خوفاً) وكأنه يتكلم عن الله[127]. يصدر هذا التردد المقدس والحساسية الإلهية من كل صفحةٍ من صفحات كتابه، لأن القديس يفيض بهبة التواضع (وهذا ما أضفى عطراً زكياً على الجنس البشري)[128].

✠

القديس إسحق هو تعزيتنا كلنا. فمن يستطيع أن يعبِّر عن حاجة الناس، في بحثهم عن قليلٍ من الدفء الإنساني، بعيداً عن الغضب أكثر منه؟ من يستطيع استقبال الأطفال المعذبين عبر التاريخ، بقلبٍ أكثر

125- [77، ص.384 (80)].
126- [12، ص.80 (46)].
127- [77، ص.381 (76)].
128- [77، ص.383 (78)].

دفئاً، أو احتضانهم بأمانٍ؟

لغته كانت لغة الألم الوجودي، فأشبع أشواقه النهمة، ووجد سلاماً.

من يستطيع إيجاد شخصٍ أكثر منه جرأةً وثوريةً ومصلحاً اجتماعياً؟ من يستطيع القول إنه كان متطلباً لله في حياته، وثابتاً في سلوكه حتى النهاية، أكثر من هذا الشيخ في كهف نسكه؟

إنه محيطٌ عميقٌ لا تستطيع أيّة فوضى تعكير مياهه (فالمتواضع في عقله لا يقلق البتة، حتى ولو سقطت السماء وانشقت الأرض) فليس هناك أحدٌ أكثر منه جرأةً في سبره أعماق النفس البشرية.

إن كنت تبحث عن رفقةٍ بشرية، تجدها عنده. وإن كنت بحاجةٍ إلى الراحة، تنالها منه. أما إذا كانت مشاكل الإيمان والألم الوجودي تعذبك؛ أو كنت تبحث في أعماق نفسك عن معنى الحياة، وقد خيب الكثيرون من الناس آمالك وتركوك مهجوراً وحيداً، فتوجه إلى القديس إسحق، إنه لن يتركك وحيداً. اذهب إلى الكنيسة فسوف تجده هناك، وستجلس بجانبه. فهو يعرف مقدار ما تتحمله من تجارب، أفضل مما تعرفه نفسك. كلّ شيء اختبرتَه، اختبره هو قبلك. ارتبط حبه بعالم المعرفة (فالرحمة تغذي المعرفة في النفس)[129].

بتنا قادرين على أن نحيا محرزين تقدماً، فهناك من يفهمنا. ونبتغي السكون والراحة والعمل، فكلّ هذا نجد فيه. وكلّ هذا حيٌّ ونامٍ وفي تقدم.

129- [48، ص.234 (289)].

يتحمل هذه الاختبارات ويحيا فيها بأسلوبٍ تدلُّ نهايته على بدايةِ حياةٍ جديدةٍ مباركة، فتبدأ الأمور تعمل بطريقةٍ مختلفةٍ أكثر روحانيةٍ وقيمة (هذه حالة الخيرات الآتية في ملكوت الله، والتي تمنحها حريةَ الحياة الخالدة، في وجودٍ لا يفنى بعد القيامة)[130].

✠

ففي هذا الملكوت تصل حركة اللهب الهادئة إلى أعلى الدرجات، بينما تكون في صمتٍ مطلق. يتوقف الدخان وضجيج (عناصر الحياة الأرضية، وطرائقها، فتتلاشى الحنكة الدنيوية)[131] (حيث هنا ظلمة الأفكار وتشابكها مفعمةً بالأهواء)[132]. فيصبح كلُّ شيءٍ نوراً وإنارةً وروعةً خارجةً عن هذا العالم. نعاين توقفاً، وحركةً غريبةً: إنه السكون الدائم.

فكلُّ شيءٍ تَجلبب برداءٍ براقٍ، ساطعٍ (ببساطة النقاوة والطهارة الواحدة). فهو محبٌّ، ويرى الجميع أنقياء (فعندما يرى الإنسانُ كلَّ البشر صالحين، ولا يبدو له أحدٌ غير نقيٍ، عندها يبلغ قلب الإنسان النقاوة الحقيقية)[133]. نقاؤه ليس بأمرٍ محصورٍ فيه، إنما هو فرصةٌ لنا جميعاً لنَخلُص، فتظهر كلُّ الأشياء له بطريقةٍ أنيقة، ويكون في حالة سلام. لا يعكر صفوه شيء، فتذكُّرُ الموت يشعل قلبه فرحاً.

130- [43، ص.214 (61-2)].
131- [الملحق ب، ص.429 (369)].
132- [63، ص.302-3 (155)].
133- [37، ص.177 (341)].

الكل محبة؛ وذاك هو فردوس المخلّصين، وجحيم أولئك المعـــذبين. لن يكون القديس كاملاً ما لم يحب بهذه الطريقة. فعدم القدرة علـــى المحبة تعني الجحيم نفسه. فهو انتقل إلى حبٍ أعظم، فذاب قلبه احتراقاً، وحباً بالخليقة كلّها. معانقاً كلّ المخلوقات بعطفٍ وحنانٍ إلهيين (حـــتى أعداء الحق، والشيطان نفسه).

فقط (عندما نصل إلى هكذا محبة، نصل إلى الله. عندئـــذٍ تكـــون رحلتنا قد انتهت، واجتزنا إلى تلك الجزيرة المتمركزة وراء هذا العـــالم، حيث يوجد الآب والابن والروح القدس)[134].

تعرفون الله من خلال معرفته (أي القديس إسحق)، فليس هناك إلهٌ صالحٌ وشريرٌ في آنٍ واحد، ولا إلهٌ يحب أصدقاءه ويكره أعداءه. إنـــه المحبة الكاملة من البداية إلى النهاية. بغزارة مراحمه (يخلق الأشـــياء مـــن العدم إلى الوجود)[135].

وحتى الدينونة الأخيرة، تكون في نقاوة محبته للجميع (غضب الله لا يدوم طويلاً، فالله يؤدب بمحبةٍ ليس لأجل الانتقام - حاشى - إنما سعياً لكمال صورته في الإنسان)[136].

(أؤكد أيضاً أنّ أولئك المعاقبين في جهنم، يُجلَدون بسوط المحبة... إنه غير مناسبٍ أن نعتقد بأن الخطأة في جهنم محرومون من محبـــة الله. فالحب... يُعطى للجميع دون تمييز، لذلك قوة الحب تعمل بطريقتين...

134- [46، ص.225 (283)].
135- القداس الإلهي.
136- [48، ص.230 (285)].

ومن هنا أقول أنَّ عذاب جهنم، ندمٌ مرير)[137].

لقد وقع القديس في متاهةٍ تجاوزت ذاته. وقع في حبّ الله الذي قوته مثل قوة الموت، عاجزاً عن فعل أيِّ شيءٍ (فالذي وصل إلى محبة الله لا يعود يرغب في البقاء في هذه الحياة الفانية)[138].

لكن هل يرغب في مغادرتنا من يحبّنا؟ كلا. إنه يرينا فقط بأن المسافة لا يمكنها أن تفرقنا البتّة. ينطلق ليُعدّ لنا مكاناً. فهو حقاً معنا ويسكن فينا. وهنا يكون السؤال (هل الذي اتخذته صديقاً لك في هذه الحياة، سيستقبلك هناك يوم رحيلك؟). فنتجرأ بالرد: (نعتبرك صديقنا، يا أبانا، لأنك فهمتنا واعتنيت بنا).

أولئك الصامتون – مثل القديس إسحق – تكلموا. وأولئك الغائبون عنا حضروا بطريقةٍ مختلفةٍ لم نكن نعرفها. حيث أن "جهلهم" صاغ لنا سبلاً جديدةً من المعرفة، و"عدم وجودهم" أعطانا الوجود. (حتى أنّ توقهم للموت هو نفسه للحياة)[139]. هذا كله يعطينا شجاعةً لمواجهة الصعاب والتجارب، وتحملها والتغلب عليها.

الموت قد أُبطل، والهاوية قد سُدَّت، وانتصرت المحبة فيهم في شخص يسوع المسيح، الذي له القدرة والملك والمجد إلى دهر الداهرين. آمين.

137- [28، ص.141 (326-7)].

138- [62، ص.297 (163)].

139- [1، ص.8 (8)].

من
القديس إسحق السرياني
إلى دوستويفسكي

الصورة لـ: "فيودور دوستويفسكي"
عمل صانع الأيقونات كونستانينوس برورغوس (1984م)

من القديس إسحق السرياني إلى دوستويفسكي

"أفضل الأشياء وجوداً هو المعيار"، ويمثل الشخص المقدَّسُ هذا المعيار بين الناس. والقديس إسحق هو معيارٌ للإنسان، للحياة، للفن وللعمل.

كيفما نظرت إليه تجد ماهيَّة الأسلوبِ ذاته الذي يعيشُه، والطريقةُ التي يكتُبُ بها! يا لهُ من شعرٍ ويا لها من فلسفة، ويا لعلمِ النفس الذي يقدِّمه! انظر إلى الطريقة التي يتصرف بها، إلى الطريقةِ التي يحافظُ بها على الصَّمت، إلى الطريقة التي يتحرَّك بها، والتي يحافظ بها على الهدوء والسكينة!

هل بالإمكان محاكمةُ الناسِ بمعيار القديس إسحق؟ أليس هو رجلاً عظيماً، عظيماً بشكلٍ سامٍ وفريد؟ أمِنَ العدلِ مقارنةُ أي شخصٍ عادي مثلنا بشخصيةٍ من هذا المقام؟ لا أتردد بأن أُجيب: حاشى!

لو كان مجرد شخصٍ نَشِطٍ جدّاً في مجالٍ معين فقط، أو كان يتمتع ببعض المواهب الطبيعية الاستثنائيَّة التي أدهش بها كلَّ البشرية، عندئذٍ لن يكون من العدل اتخاذُه معياراً لمحاكمة الآخرين ومقارنتهم به. إلا أن ثمة أمراً مختلفاً يدورُ هنا: فهذا الأبُ هو عظيمٌ وإنسانيٌّ بشكلٍ سامٍ، إنه شيخٌ جليلٌ ودَمِثُ الأخلاق، في حضوره يشعر العظماء بقلة شأنهم، ويتشجع الأصاغرُ ممتلكين القدرة على العمل والجهاد.

إنه لا يُحابي أحداً، ولا يحتقر أيَّ إنسانٍ؛ هو على علمٍ بمعاناة الآخر، بميوله وأحزانه. هو في حدِّ ذاته كُلٌّ متكاملٌ، ثمرةٌ روحيةٌ ناضجةٌ، تُظهِرُ نضجَها من خلال لونها ونكهتها ونعومتها وحسن مذاقها.

إنه إنسانيٌّ ومتواضع؛ يتفهم الجميع، ويملك معرفةً عميقةً بوهن العالم المتألم وضعفاته. هو ليس بقاضٍ صارم، أو قاضٍ ظالمٍ عديم الرحمة. هو يعرف كلَّ نقاط ضعفنا وفقرنا، من خلال مشاركتنا الطبيعة ذاتها. وهو في الوقت نفسه يهب الفرح والتعزية للأجيال المقبلة. إنه لا يجادل أحداً، إنما يقدِّم فُرصاً وينتظر. يقول الحقيقة، ويتركها لتعمل في داخلنا.

وهذا ينطبق أيضاً على عمله الأدبي باعتراف الأدباء: إنه عارفٌ بهذا العمل، يَفهمه ويدركه ويقبله. هو نفسه كاتبٌ أيضاً، هو أديبٌ يصلُ إلى حدٍ لا يشبهه أحدٌ فيه على الإطلاق. لقد تخطى الأدب ووجد نفسه في عالمٍ آخر، حيث يتأثر الإنسان بالألم والحزن الموجودان في العمل الأدبي.

بعظمته يحترمُ صغارَ النَّاس والمتواضعين، كما يحترم الكُتَّاب ونضالهم واعترافاتهم أكثر من احترامهم هم لذواتهم. على أساس أنهم جميعاً يعيشون في بوتقة عالم الفساد والتنافس والغيرة بشكلٍ نسبي، ساعين بجهودهم للانغماس أكثر في كلِّ هذا.

فالرسالة هنا أن الإنسان يمكنه أن يصبح صغيراً وبسيطاً مثل

القديس إسحق، متمتعاً بالسكينة والهدوء وهو يعيش على هذه الأرض. وبإمكانه أيضاً البقاء حيًّا إلى الأبد في قلوب الناس، حتى بعد رحيله إلى المنازل السماوية.

عندما تسمع كاتباً يناضل ليجد توازناً (كما هو جورج يوانو، في مقالته "إلى ذاتي")[1]، ليعطي تقييماً عادلاً عن حياته وعمله. عندما تراه يطرح أسئلةً مهمةً بأمانةٍ، باحثاً عن كلِّ ما هو صادقٌ وموثقٌ في محتوى عمله وتعبيره، عندئذٍ لا يمكنك إلا أن تتأثر. كلُّ هذا النضال فيه رسالةٌ لك. وهذا يُمكن أن يُقال إلى أيِّ شخصٍ مناضلٍ بأمانةٍ، مهما كان مجال عمله الخاص. ويمكنك أن تقول شيئاً آخر كذلك - طالما أنك ترى أن الصدق هاجسه. ألا وهو كلمات الرب "يعوزك شيءٌ واحدٌ أيضاً" (لو18:22).

طالما أنك تعطي كلَّ شيء، وطالما أنك تترك وراءك كلَّ ما هو نسبيٌّ، وطالما أنك وصلت إلى الحدّ الذي لم تعد فيه تهتم بأن تبرز ذاتك. وفي ذلك تبدو مهتماً بالإنسان وبقارئك مفكراً به، فلماذا إذن لا تخطو خطوةً واحدةً أكثر؟ والتي يُريك إياها القديس إسحق.

القديس اسحق لا يقول لك من خلال حياته وكتاباته، (تخلَّ عن نضالك). هو لا يرفض جهودكَ، إنه يشعر بالفرح الذي تختبره عندما

1- في الكتاب "I proteuousa ton prosgygon" (عاصمة اللاجئين) لجورج ايوانو، نسخة كيدروس الخامس، تيسالونيكي، 1986م، الصفحات 208-278.

تكتب وتبدع بأمانةٍ، لا ينكر عليك ذلك. فهو لا يريد إيقافك عن التقدُّم، بل يريد تحريرك من دائرة الفساد، لتحطيم السدِّ الذي يعيق تقدمك دافعاً إياك إلى الخارج؛ إلى المياه التي لا يُسبَرُ غورها، التي تشكل سرَّ الحياة الغامض.

يستطيعُ رؤيتَك بينما أنت منغلقٌ على ذاتك، وتأسر إنسانك الداخلي المتعطش إلى الحرية. إنك تُعيق نموك الأدبي، وتُضيِّق آفاق حياتك، مجرداً نفسك من الفرص المفتوحة باتجاه توسعٍ جديدٍ نحو الموت والقيامة، اللَّذين يمدَّان الإنسان ويجعلان إبداعه الأدبي، والنعمة التي تأتي وإيَّاهُ، أبديين خالدَين.

وبينما تتبع القديس إسحق بأمانةٍ وإخلاص، فإنك تغوصُ في أعماق الإنسان، ليتغلغلَ كلُّ إنسانٍ فيك، لتسيروا معاً قُدُماً كإخوةٍ نحو الخليقة الجديدة، لتستنشقوا هواء الحرية غيرِ المقيَّدة، فتدخلوا معاً في نموٍ متزايدٍ لا نهاية له، وفي امتدادٍ لا يتوقف. ولكن وبالرغم من اتضاعكم، و"انكماشكم"، فإنكم تضحُّون بذواتكم لما هو أعظم.

في الأدب الملتزم، تجدون دون شكٍ طيبة قلبٍ إنسانيةٍ عذبة. فتشعرون براحةٍ، متوافقين معها. وتأخذون منها أساسات الحياة. هذه الراحة التي تشعرون بها، تدخل فيكم وتُكسِب ذواتكم الداخلية قوةً وحماساً جديدين لمواصلة النضال. ومع ذلك فإن التهديد الأخير (الموت) لا يزال قائماً. تُحرزون تقدماً إلى أن تصلوا إلى الموت، إلى القبر. عندئذٍ يُحضِرُ إليكم أصدقاؤكم الأدباء بكلِّ محبةٍ باقةً من الزهور، أو باقةً من

كلماتٍ جميلةٍ موزونة. ولكن ليس في وسعهم تخليصُكم من المـــوت، بإبطال "آخر عدو" (1كور15:26). وهم مدرِكون - بغض النظـــر عـــن رغبتهم المضادَّة - أنهم على هذا الطريق يسيرون إلى الموت.

مع ذلك يمكن للإنسان أن يُطعَّمَ في شجرةٍ أبدية (راجع رو11:24)، وأن يصبح "غصناً من كرمة الحياة" (راجع يو15:5). رابطـــاً جهاداتـــه النسكية بجهادات الآخرين. ويمكن أن يعتمد بكُليته مُقدِّماً ذاته ليموت، كما يسعى محبو الحق المخلصين. فيموت ويُدفن مع يسوع في موتـــه، قائماً معه إلى حياةٍ جديدة.

بهذه الطريقة يمكن للكُتَّاب الحقيقيين المضي بشـــكلٍ طبيعـــي إلى الإنسانية المتألهة، منطلقين من الروح الإنسانية الصافية التي حققوها عبر نضالهم وجهاداتهم المبذولة. فكلماتُ الكاتب وكيانه يُطعَّمـــان بحيـــاةٍ أبديةٍ. تغذيِّه الكلمة الواحدة "كلُّ شيء به كان، وبغيره لم يكن شـــيء مِمَّا كُوِّنَ" (قارن يو1:3).

عندها يجدون ما ينتظرونه، يلمسون ما كـــانوا يُلمِّحـــون عنـــه، مجسّدين ما يرغبون فيه. يتابعون الكفاح الأدبي، الذي لا يمكن نيلـــه، يُعطى لهم. حيث يُمنحون ذلك الذي "لم يخطـــر علـــى بـــال بشـــرٍ" (1كو2:9).

لا تتوقف الرحلة والتوسع والصعود إليه عند حدٍّ معـــين. فـــأنتم تتابعون التقدم إلى أن تُخلِّصوا نفوسكم من رغبـــة إبـــراز نفوســـكم. تتخلون عن حالة الدفاع المعتادين عليها، لأن كلَّ شيءٍ يمسي خيراً لكم

منذ الآن. لأنكم غدوتم مهتمين بشيءٍ آخر، متجنِّبين أمـــور الإنســـان الفانية، متجددين على الدوام، محرزين صمتاً وسكوناً. ولتتحدث عندئذٍ كلماتكم وحياتكم أحاديث مختلفة.

عند ارتفاع درجة الحرارة تلتصق المعادن معاً وتلتحم[2]. فإن كانت لديكم الرغبة في حياتكم، فبإمكانكم التواصل مع القديس إسحق. وهو سوف يُدخلكم إلى عالمٍ من أسرارٍ خفية، وسيلاقيكم حيث تتوقفـــون أنتم. سوف يأخذكم يداً بيد عندما تشعرون أنكم لا تستطيعون المضي أكثر من ذلك، سيساعدكم على إحراز تقدُّمٍ في طرقكم. وسيكشـــف لكم كما سترون وتختبرون بنفوسكم أن ملكوت الله الآتي يُمنح للبشر منذ هذا اليوم.

يبقى القديس إسحق معياراً ومقياساً لهذه الحياة وللحيـــاة الآتيـــة؛ لسلوككم وكتاباتكم، للعمل والتأمُّل، للتعامل مـــع كـــلِّ ســـعادةٍ أو كارثة، للاستتار والكشف، للصمت والتكلم.

عندما تعودون إلى القديس إسحق بعد تجربةٍ ما؛ بعد أن تكونوا قد واجهتم منطقاً مختلفاً، شخصيةً مختلفةً، طريقةً في الكتابة، أو في الضوابط الأخلاقية والكلام، فإن الانطباع هو ذاتُه دوماً، ففي كلِّ نقطـــةٍ، وفي كلِّ موضوعٍ أدبي كان أم أخلاقي فإن قديسنا ينال التقـــدير بامتيـــاز. فليس هناك معيارٌ آخرُ أكثرُ ثباتاً واستقراراً منه، معطياً إياكم مقياســـاً

2- ارتفاع درجة الحرارة يعني: صعودنا نحو الأعلى. التصاق المعادن معاً يعني: التصاق القديس إسحق مع ذواتنا.

صادقاً في الحكم على كلّ شيء؛ كالسلوك الإنساني وفلسفة الحياة واستعمال الوقت والتقدم من الزمنية إلى الأبدية ومن التشدد إلى الرفق وغيرها...

فيا لروعة كتاباته التي لا تحتوي أيّة عبارةٍ ضعيفة أو فضفاضة! فليس من كشفٍ واحدٍ له، أو طريقةٍ يعالج بها شيئاً ما، أو طبيعة نقدٍ، إلا ويتركك مذهولاً من جرائها! فهو نتاج ساعةٍ صالحةٍ ومباركةٍ انتظرناها. إنه ثمرةٌ ناضجةٌ تُغذي وتُشبع كلّ جوع، وفهمٌ يعانق كلّ العالم ويحتضنُه، وبكاءٌ يُليّن كلّ قلب. إنه علامةٌ يُلهم كلّ شخصيةٍ، وبَرَكةٌ تَطال كلّ مهنةٍ، وطريقٌ قد يختاره المرء ليسير فيه؛ فالموسيقي مثلاً يجد التناغم فيه، بينما الفيلسوف يجد الحكمة، ويجد المتخصص بعلم الإنسان والطبيب النفساني كمال علومهما، والثوريُّ القوة، والهادئ الإرشاد، والمسنُ التفهم والرفقة، والشاب الريح لتحريك أشرعته ليغامر في البحار المفتوحة والعاصفة وأيضاً إلى ما وراء البحار. ويجد الأبُ فيه المعلّمَ الذي يعلّمه كيفية التصرف تجاه أولاده، والزوجُ الإرشادَ في العيش مع زوجته، والأمُ حباً لا حدَّ له، ورقةً وحناناً. أما من هو على حافة الموت فيجد التعزية، وذاك الذي تملأ حياته الصعوبات يجد فيه مخرجاً، والمسجون مدى الحياة يجد حريةً مطلقةً للتحرك والعيش. أما المريض الذي لا شفاء له فيجد فيه زيارةً إلهية، ويُؤخذ بكامل جسده إلى مكانٍ وعالمٍ وطريقة حياة، حيث يتحول كلُّ شيءٍ إلى دموعٍ دافقةٍ من الامتنان.

هو في مكانٍ حيث لا يتواجد إنسانٌ آخر، ومع ذلك يلاقي كلَّ شخصٍ بتناغمٍ وانسجام. وينظر إليه كلُّ واحدٍ بشكلٍ مؤكد على أنه يخصه هو نفسه. وأنه الوحيد الذي يفهمهم، والذي يتحدَّث معهم برقةٍ وبراعة؛ يشفي أهواءهم، يشجعهم ويسبيهم بعاطفته الفياضة.

لنفترض مثلاً أن شخصاً ما - أو حتى أشخاصاً - سقطوا وماتوا، جُرِّحوا من شيءٍ قاله أناسٌ آخرون أو فعلوه ولو عن غير قصد. فإن هذا الأب يغفر وحده أموراً لا تُغفر بالنسبة لمعظم الناس. إنه يألفُ ما لا يمكن استيعابه. يخفف من ألم القتَلَة، معطياً الحياة لأولئك الذين قُتلوا. هو يمنح النور للعميان، ويهب الأرجل للعرج، ويجعل قساة القلوب المجرمين يتصرفون كأطفالٍ صغار، أبرياء لا رياء فيهم.

كيف يحدث هذا؟ إنها عطيةٌ أُغدقت عليه، لأنه تلقَّى بركة الله الكاملة في الثالوث مباشرةً. لأن زمن البشرى السارة حان عندما، بالتواضع، قدم كلُّ شيءٍ إلى الواحد الأحد إلى الأبد، وذاك الواحد منحه أبدية البركة في كلِّ كيانه إلى الأبد.

يبدو أنه عندما وُلد تم تعميده حقيقةً بموت يسوع المسيح، ومشى في نهج حياةٍ تجاوز الحياة والموت.

وعندما مات، فإن هذا الإنسان المتلئَ بالقداسة بشكلٍ فاق الإدراك، هو نفسه الذي عبر في الحياة في كمالها بطريقةٍ مختلفة. إنكم لا تعلمون إن كان حضوره أكثر حيويَّة عندما كان يعيش هذه الحياة المؤقتة، أو أن مساعدته ودعمَه للجميع هما أكثر فعالية

الآن، بعد أن غادر الزمن وخرج من الحياة في الجسد. الآن وقد رحل عنا جميعاً ترك لنا مفاهيم ومصطلحات يُمكن إدراكها.

لقد امتدت حياته بموته، وأنارت النعمة فكره، وامتلأ جسده بالحياة التي تتجاوز العالم، لقد اكتشف أساساً مختلفاً لدعمنا ومساندتنا، ومنطقاً مختلفاً للحديث؛ طريقةً مختلفةً في السلوك، وفي تأكيد المفاهيم. حباً مختلفاً للحق، وحقيقةً مختلفةً؛ نعم حقيقةً لا تُفهم وتفوق الوصف، وتتماهى مع الرحمة. هذه الحالة وهذا المنطق وهذه الأخلاق وهذه الحرية وهذه الرقة وهذه الشجاعة الباسلة، قد شكلت كلَّ كيانه وصاغته، مثلما صاغت طريقة حياته ووجوده.

إنه يجمع في شخصه الأمور السَّابقة والمستقبلة، في وحدةٍ غير منفصلةٍ وغير مختلطةٍ أيضاً، كما أن الشيء ذاته ينطبق على الشدة واللين، الكلام والصمت، السكون والحركة، الحياة والموت، الحق والحب، النور والظلمة، الصراع والسكون. هذا لأنه في كُليِّته، وبكامل وجوده بلغ حالةً تفوق الوجود، فتابع متقدماً إلى الحدِّ الذي يقف فيه كلُّ شيء؛ النشاطُ والصراعُ والصلاة والحرية. وكلُّ شيءٍ أحبه وهدف إليه وحققه تركه وراءه، وعبر إلى عالمٍ آخر، وطريقة حياةٍ جديدةٍ وغريبة. فوصل إلى هذه الحالة التي لا يصلها البشر، والتي أخذت قديسنا نفسه مع كلِّ حاجياته وأغراضه، إلى ذلك المكان.

تلاشى وضاع، وجد نفسَه في شكلٍ مختلف، في أبديةٍ وخلود.

حيث كان هناك مع أولئك الذين لم يبحثوا عنه، ولم يعرفوه، ولم يهتموا بحياته، أو بكلماته، أو باهتماماته.

بالرغم من أنَّ الكثيرَ من الناس كانوا غيرَ مهتمين، فقد كان القديس إسحق مهتماً جداً. لأنه تآكل وشارك نفسه، وحطَّم ذاته إلى أجزاء، ووضع نفسه في طريقةٍ مختلفة، فمُنح ذاتاً جديدةً من الواحد الأحد.

هذه الذات الناهضة من الموت تمَّ العثورُ عليها بعد فقدانها. هذه النفس التي "لا يسود عليها الموت بعدُ" (رو6:9)، التي نثرها ومازال يستمر في نثرها، مثل بَرَكَةِ إحسان، وغنى فهمٍ يعود على الجميع. لا يطلب شيئاً لنفسه من أحد، متمنياً للآخرين التصرف بحرية، والرجاء في المسيح يسوع. لكي يعرفوا أنه حينما يجدون نفوسهم في نهاية الطريق، وضوء نهارهم يخفت، حيث ستطغى عليهم الوحدة... عندئذٍ يجب ألا ينهاروا، عليهم الصبر قليلاً، وعليهم الانتظار. إذ سينفتح لهم بابٌ، وسيمتد أمامهم طريقٌ مفتوحٌ، نورٌ لا يعروه مساءٌ. الفوضى الكونية التي اخترقت كيانهم، إنهم من خلال الوحدة سيملأُهم حضورُ حبٍّ وإحسان. ستُكشف لهم أشياء غير ظاهرةٍ وغير معروفةٍ من قبل.

سيسمعون أشياء لم يُسمع بها من قبل، ويتلمسون أشياء غير ملموسة، ويكونون في حالة راحة. هم أنفسهم يتابعون في طريقةٍ مختلفة، كأناسٍ مختلفين وجدد متابعين رحلتهم اللامتناهية، وما هي

إلا الفصح المقدس الامتداد غيرُ المتناهي.

✠

إذا كان القديس إسحق يمتلك غنى النعمة التي لا يُسبر غورها. فإن العديد من الكُتاب يتلقون الكثير منه، وهو يساعدهم بقدرٍ كبير. فهذا ما يتمثل في تلك الحالة البارزة لدوستويفسكي، الذي يتسم بالقرابة والشبه الروحيين للقديس إسحق بشكلٍ لا يقبل الجدل، بالرغم من الفروق الكبيرة والجليّة بينهما. عندئذٍ يمكننا القول عن دوستويفسكي: (إنه القديس إسحق في هذا العالم).

لذلك فإنكم مع هذا الكاتب المقدّس والفذّ يمكنكم أن تتكلموا عنه بغنى، لأنه باقٍ إلى الأبد في جَلَد العالم برمته، كتعزيةٍ وهبةٍ من الله وثمرة الروح.

ومع ذلك لا يُنَصِّبُ نفسه مُعلماً، ولا يتفوه بأشياء سطحية وسهلة القول. فهو يقدم لكم ما يفيض من أعماق قلبه، والذي لا يخص ذاته، بل يخص الروح الإلهي.

هذا المؤمن الثائر آمن بـ (الله - الإنسان) قائلاً: (لو برهنتم لي بأن المسيح لم يكن الحقيقة، فإني أريد المسيح وليس بالحريّ الحقيقة)[3]. يريد المسيح الذي قال: "من آمن بي تجري من بطنه أنهار ماءٍ حي. قال هذا عن الروح الذي كان المؤمنون به مزمعين أن

3- انظر "الأعمال الكاملة لدوستويفسكي" (في الروسية)، سانت بيترسبرغ. 1985م، المجلد 28، ص. 176. "الأعمال الأدبية الكاملة" (في العربية)، ترجمة الدكتور سامي الدروبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1972م.

يقبلوه" (يو7:38-39).

نعم تجري في داخله أنهار تعزية، اكتسبها عبر عذاباتٍ لا تعدُّ ولا تُحصى. وآلامٍ، وتجاربَ، وخبراتٍ لكونه مُهدَّداً بالموت والأشغال الشاقة. هذه التعزية تجذب كلَّ الناس وتهبهم الحياة، لذلك لديه الكثير ليقوله لكم، ومن خلال كلِّ شيءٍ يقوله، يتم تقديم شيءٍ واحدٍ: راحة الرُّوحِ الإلهي وتعزيته.

يبدو هذا الكاتب كما لو أنه يجلس وحده، محدِّثاً ذاته، ومتناقشاً مع الشخصيات المتعددة لكيانه. إنها ملاحظةٌ معروفةٌ جداً في رواياته المتعددة. ففي رواية الإخوة كارمازوف، يصف الكاتب ذاته في شخصيات كلٍّ من الإخوة. إنه شخصٌ صادق، يخلق مناخاً معتدلاً حوله. يُطلق موسيقى ساحرة ناثراً مادَّته الثمينة مجاناً، فيتجمع الناس حوله، مصغين إليه، وماكثين معه، متخذينه لذواتهم، ويقبلونه كخاصةٍ لهم. الماء الذي يجري فيه، ينعش جوهر كلّ من يشعر بالذبول والظمأ. فالآلام تُشفى، والمصابون بالشلل ينالون الشفاء من المياه الدافئة التي تتفجر من هذا النبع الشافي.

يتابع دوستويفسكي القصة من داخله ويعيش خبرة أبطاله، فيعرف ما يجري في داخلهم من خلال وحدة حياة، مجسداً كلاً من الخبرة والمعرفة الداخليتين بشكلٍ دائمٍ في قصته. إنه يجمع الأحداث ويُحيك الحوار، ويصيغ عباراته، ويخبرنا بالأشياء بوضوحٍ تام، أو أنه يدعها ليفهمها الآخرون. غيرَ أنَّه يمكُثُ دائماً في داخله، مرشداً

الأشياء بشكلٍ ثابتٍ إلى حيث يريدها أن تسير. والأفضل أن نقول بأن المسيح بذاته يوجه الأشياء بإرادته الكلية القداسة.

كلُّ حدثٍ هو رجفةٌ لهزةٍ أرضية، يتموضعُ مركزها في أعماق حياة دوستويفسكي الخاصة. فعندما يظهر شيءٌ ما للنور، ويتحرك على السطح، فهذا يعني في نفس الوقت أن كيان دوستويفسكي الذي هو جسد الأرض بالكامل، يهتز من أعماقه إلى سطحه مشاركاً في الحدث. وهو ما يجعله حاضراً بشكلٍ كليّ في كلّ أبطاله، متطابقاً معهم دون أيّ ارتباك.

ومهما كان الشغف وقوّةِ الحجة فإنه يُحافظ على وجوده في كلّ المواقف والأوضاع! فترى كيف يعرض لكلا الرأيين، وكلا جانبي السؤال وبالتالي يشعر الجانبان بأن لديه ما يقوله لهما. وكيف أن الحقيقة، التي يجسدها كلُّ شخصٍ إلهيٍ - بشري، تشكّل شيئاً ما، يتجاوز الأفكار التي تحاول التعبير عما يفوق الوصف أو عن تلك الآراء التي تُفرق الناس.

وبالتالي فإن دوستويفسكي يُعمم بشكلٍ لامنظور، لابساً ثياباً بيضاء، مع القائم من بين الأموات، معطياً السلام والفرح لليائسين والمحتقرين. إنه ينتقدكم دون أن يقول الكثير، مقدِّماً لكم صحة النفس دون أيِّ تعليق، يكلمكم دون أن يُنصِّب نفسه عليكم؛ وبينما يتكلم مع ذاته، يطرح عليكم أسئلةً شخصيةً بغاية الأهمية.

بحرّيتكم تقتربون منه رغماً عنكم، فهو لا يضع نفسه معلماً

لكم. ومع ذلك تصغون إليه بانتباهٍ شديد، لأنكم تجدون لديه ما تحتاجون إليه، وهكذا تبقون قريبين منه ومعه إلى الأبد.

فلو طلبَ من الناس الإصغاء إليه، فإن هذا سيكون كافياً بحد ذاته ليهربوا منه، وبالتالي يبرهن على أنه كاذبٌ. فالكذب يُعلن عن نفسه باحثاً عن مؤيِّدين له. بينما تُكرّمُ الحقيقة، رغم أنها محتقرةٌ من الناس. وهي تُخلّص أولئك القادرين على إدراك قيمتها فقط. إنهُ لا يسعى لشيءٍ ما لخاصَّته، إنما يُظهر كلَّ شيءٍ يُعمل ويتمُّ حسب مشيئة الله.

يبدو أنه في كلِّ أعماله يفعل شيئاً ما غير مترابطٍ، وكأنه في حالة تخبُّطٍ وتشوّش. أبطاله هم غالباً مختلُّون وممسوسون وحتى مجرمون أيضاً، قصصه مكثفةٌ ومعقدةٌ، غير أن محوره ثابتٌ، والنقطة التي يقودنا إليها واضحةٌ ومريحةٌ ومشجعة. إذ إنَّ كلَّ شخصٍ يأتي إليه من تلقاء ذاته؛ إلى المكان الذي يجدون فيه كيانهم المجهول، وحنينهم إلى الوطن.

"حيثما تكون الجثة فهناك تجتمع النسور" (مت28:24). والناس يأتون إلى الجثة، إلى الألم، إلى القبر، حيث تكون الحياة.

كم هم قليلون أولئكَ الّذين يحملون دوستويفسكي في قلوبهم، وهم يبتغون قتل بعضهم البعض، ولا يطيق أحدٌ منهم الآخر!!! أما الذين يحبونه فيعلقون صورته في غرفهم الشخصية، حاملين جراح سكين آلامه، لتنزف مُليّنةً أوصالهم الأكثر عمقاً.

إن كنتم تبحثون عن الصدق، فمن المستحيل أن تقرأوا دوستويفسكي وتبقون على حالكم. من المستحيل أيضاً أن تقرأوه في لحظةٍ ما، متلقّين فيها رسالته وبعد ذلك تنسونه. هو يصبح خاصّتكم، وأنتم تصبحون خاصّته، تصبحون إخوةً له في عالمٍ عميقٍ ورفيعٍ وواسع، في مملكةٍ تخصّ الجميع. فهناك مساحةٌ فيها للجميع.

صوته يلغي الانقسامات فتخاطب كلمته أعماقنا، وتنفذ تماماً عبر كلّ الطبقات الغرانيتية للقساوة البشرية. لروحه قوة الفولاذ وحساسية الملائكة، يدخل إلى أعمق مكانٍ في بيوتكم، حيث لم تتواجدوا بعد. يُنشد أغنيةً تأتي من أجدادكم، أغنيةً لم تسمعوها قطّ، ولكن اللحن يجعل قلوبكم تترنّمُ. يعود بكم إلى الوراء إلى البداية، من حيث بدأنا جميعاً. يأخذكم في طريقٍ طويلٍ إلى الأمام، إلى المستقبل، حيث نتلاقى جميعاً، ويحتضن القاتلُ ضحيته، والميتُ قاتله.

إنه إنسانٌ يحتوي في داخله وهجاً ساطعاً من الحبِّ، يمثّل ثروةَ حياةٍ شخصيَّة، وظمأً متّقداً للمُطلق. شخصٌ يعيش نعمة التواضع والرقة الملائكية لطفلٍ صغير، أو لقلب السكّير المجروح أو حتى المجرم. شخصٌ يعيش ويشعر ويُخبئ داخل ذاته كلّ آلام العالم، كلّ أنماط الشخصية، ولا يريد أن يؤذي أحداً في أيِّ شيءٍ ما. شخصٌ يُبقي الأسئلة كلّها مفتوحةً، فالكلمة الأخيرة يجب أن تُقال بواسطة الكلمة الإلهية، التي لا بدّ له أن يقولها لأنه هو الحبُّ بذاته.

هو شخصٌ لديه تلك الحساسية. ولديه مثل عظمة القلب هذه، ومثل هذه المسؤولية. هو شخصٌ لا يتجاهل أو يرفض أحداً ما، أو يخطئ تجاهه، ويتركنا نستوعب هذا بنفوسنا. هو شخصٌ معذبٌ مضحٌ بنفسه، يموت لحريتنا ووحدتنا جميعاً، شخصٌ لا يعيش دون الآخرين، بل من أجل الآخرين.

عندما يتكلم يصمت الجميع ليسمعوه. وعندما يسمعونه تتوقف الضجة والتشويش. كلٌّ يستطيع سماع الصوت العميق لذاته الشخصية، لأن ما يمكنهم أن يسمعوه في الحقيقة، هو الكلمة الذي هو من الأزل.

رفع دوستويفسكي من مستوى الحياة الإنسانية ومن عمل الإنسان وإبداعه، أكثر من أيّ شخصٍ آخر. لأنه هبط إلى أسفل الدرجات، وتذوق ألماً لا يُحتمل دون استياءٍ أو تذمر، مفجراً من داخله كلمات الشكر، وروحاً من الامتنان لكلّ هذه المعاناة. فقد تلقى معونةً ومساعدةً، لقد وجد السر، كما تلقى خميرة الملكوت الغنية، التي أعلت شأن حياته بأكملها وإبداعاته كلّها.

لقد تعذب كثيراً وتعزى، ونزل إلى أعماق الجحيم، وأُخذ إلى سماءٍ مغمورةٍ بالنور. عَبَرَ موتاً أعطاه حياةً جديدةً جعلته يعيش قيامة الموتى. لهذا السبب لديه القدرة والنعمة ليعطي بشارة الفرح للجميع.

هذه الخبرة التي عاشها تتكلم عن ذاتها من خلال كلّ شيءٍ

يقوله، ومن خلال كلّ شيءٍ يجعل أبطال رواياته يقولون هذا الشيء الخلاصي الذي ينكشف ويقدم ذاته، سواءً عندما يتشاجرون أو يتبادلون المزاح.

يعتقد بعض الناس عندما يقرأون روايات دوستويفسكي بأنهم يقرأون قصص جرائم، أو يقرأون عن مُكتشفٍ للنفس البشرية التي ترسم كياننا المجهول، والذي لا يُدنى منه. كلُّ هذا حقيقي، فهو يفعل كلّ ذلك، ولكن الشيء الأكثر أهمية من خلال هذا كلّه، أنه يغرس فينا تعزية الروح وتأكيد وجود الله، الحامل في جوهره كلّ الأشياء معاً، والذي يحب الإنسان ويخلصه.

يعرف دوستويفسكي حقيقة الحياة التي تملأه بفرحٍ غامر. كما يعرف ما يتوقعه الآخرون منه، وإلى أين يمكنه أن يقودهم الآن، بحيث لا يندفعون جداً في أملٍ زائفٍ، واضعين ثقتهم في أشياء زائلةٍ وعابرةٍ "التي لا يوجد فيها خلاص" (قارن مز3:145). فيعلمهم ألا ييأسوا بسرعةٍ كبيرة، معتقدين زيفاً، أن ما يمرون به من تجارب إنما هو مرضٌ يقود إلى الموت. فالله سيزودنا جميعاً بمعونته، ولكن علينا ببساطةٍ فقط، أن نتواضع ونسامح الآخرين، ومن ثمّ ننتظر.

إذا كنت تقرأ القديس إسحق أو الأديب دوستويفسكي، فإنك تحصل في النهاية على الرسالة ذاتها، التي تحمل النعمة نفسها والعزاء ذاته.

لدى هذا الكاتب خبرةً كبيرة في شرحه التوثيقي للقديس

إسحق. حيث يؤكد ويعزز في طريقته "الدوستويفسكية"، ومن خلال كلٍّ كتاباته، اليقين الثابت للقديس إسحق، الذي يساوي يقينه الذاتي: إذ دون تجارب صعبة لا تُمنح عطايا كبيرة من النعمة، والفرح الذي في الله، أقوى من الحياة الحاضرة.

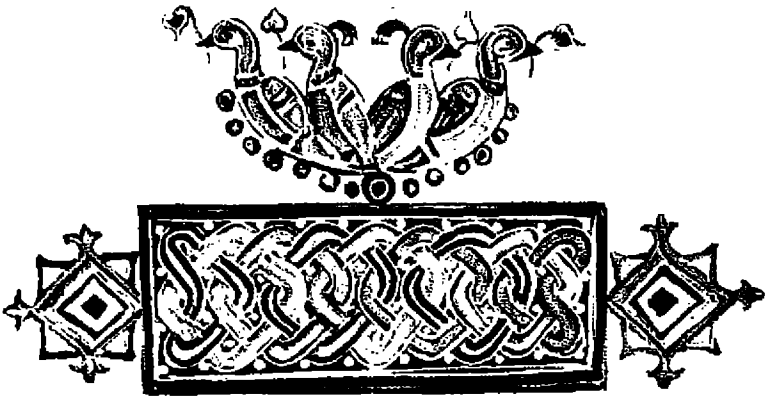

الفصل الثالث

القديس إسحق السرياني

فيلسوف الروح

أقوالٌ ملهمةٌ للقديسِ إسحق السريانيّ†

المقال الأول

1- مخافة الله هي بداية الفضائل التي تتولد من الإيمان، وتُبـــذر في القلب، وتشغله بخلاص النفس.

2- بداية حياة الفضيلة هي أن تنشغل بدراســة الكــلام الإلهــي، متحاشياً مديح العالم المُخزي.

3- دون الإيمان الحار بالله، لا نستطيع أن ننعتق من عبودية الأهواء.

4- عندما نفقد النعمة الإلهية لمدةٍ طويلةٍ، فمن الطبيعي حينئــذٍ أن نرفض العناية الإلهية.

5- خوف الله هو بداية الحياة الحقيقية للمؤمن، ومن حضور الله في داخل قلوبنا يتولد الشوق الإلهي فينا.

6- كلمة الله، أي الفضيلة، تنبت في القلوب التي لا تهتم ولا تعتني بأمور هذا العالم.

7- أتريد أن تشعر بحلاوة الاتحاد بالله في داخلك؟ أحبــب إذاً الله والناس.

8- كما أن الماء المرسوم على الجدار لا يروي العطاش، هكذا المعلم

† إن مجموعة الحكم والأقوال الروحية القيّمة التي بين أيدينا، هي أقوال نسكية للقديس إسحق السرياني، عمل على جمعها راهبٌ مجاهدٌ آثوسيّ (مجهول الاسم)، راجين له الأجر الكثير لحسنته الروحية في تمجيد الله.

المفتقد للفضيلة التي يعلّمها، يكون عاجزاً عن أن ينقلها إلى الآخرين.

9- بمقدار ما تكون الصالحات أو السيئات متحدةً بجسدك، فإنها سترافقه إلى القبر. ولكن بقدر ما تكون متحدةً بنفسك، فستشكل لك ثروة الأبدية.

10- يجب أن تُخفي في داخلك كلَّ خيرٍ يُفعل، لأن المعمودية والإيمان أصبحا وسيطين لهذا الخير.

المقال الثاني

11- شخصية الإنسان الخجول تتشابه مع تواضع المسيح. فلا شيء يفصلنا عن الحكمة الإلهية أكثر من: السخرية والضحك والمزاح.

12- لنقدس أجسادنا بالصلوات والأعمال الصالحة، لكي يأتي المسيح ويسكن فيها بالشركة الإلهية.

13- اقتن صديقاً لك في السماء، كي يستقبلك هناك عندما تغادر هذا العالم. مهما كان الحقل الذي عملت فيه فسوف يُدفَع لك الأجر. ابك كثيراً لأجل أن يرتاح فيك الروح القدس منظّفاً وسخَ قلبك.

14- لقد أعرضتُ عنك يارب فلا تصرف وجهك عني. احصني في رعيتك، غذّني بحلاوة أسرارك الإلهية، عزّني وجمّلني بفرحك الإلهي.

15- الشياطين، وعناصر الطبيعة، والناس السيئون، والوحوش، لا يستطيعون أن يضرونا دون إرادة الله. لأنه لو لم يتحكم الله بهم، لما عاش أيّ إنسان.

16- إلى هؤلاء الواقعين في التجارب القوية، الله ينوي أن يعطيهم حكمته وقوته.

17- الذي يشتهي العالم لا يحب الله. الذي يُخالط العالم لا يستطيع أن يُعاشر الله. الذي يهتم بأمور العالم لا يهتم بأمور الله.

18- الذي يهتم بالجسد بشكلٍ فائقٍ، يُنقص نصيبه من محبة الله.

19- الذي يعاني من ظلم العدالة، يصير شريكاً لآلام المسيح.

20- عندما يكون الإنسان بعيداً عن التجارب يكون بعيداً عن طريق الله، ولا يسير في إثر القديسين.

المقال الثالث

21- الناس يكرهون الفقر، والله بالمقابل يكره النفس المتكبرة. بالنسبة للناس إن الغني مُكرمٌ عندهم، أما بالنسبة لله فالنفس المنسحقة والمتواضعة مُكرمةٌ لديه.

22- عندما تعيش في البِّر انتظر التجربة. من لا يؤمن بالله يخاف من ظله. ومن يملك مدح الضمير يملك رغبةً في الموت.

23- وصايا الله أشرف من كنوز العالم، لأن كلَّ من يحفظها يجد الله.

24- كلٌ من يؤمن بالله سيُمدح من قِبَلِ أعدائه أيضاً. ومن ظن أن خطاياه صغائر سقط في الكبائر.

25- كلٌ من يرغب في إرادة الله يُرشَدُ من الملائكة. والذي يصبر بتواضعٍ على الوشاة يصل إلى الكمال، وينال إعجاب الملائكة.

26- هل فقدت العفة؟ إذاً لن يقبل الله منك إحساناً طالما أنت مصممٌ على الزنى. طالما أنّ الحسد يهزمك، فلماذا تحارب النوم باطلاً؟!

27- ليكن لسانك حلواً، وشفاهك كذلك. عندئذٍ ستملك أناساً كثيرين أصدقاء لك.

28- التجارب تجعلنا أكثر صلابةً في الفضيلة. وخلاف ذلك تكون الفضائل مُختلقةً وغير ثابتة.

29- كلُّ أمرٍ نفتخر به، سيسمح الله بأن نفقده لكي نتواضع. ومن يتحمل الظلم بفرحٍ ينال تعزيةً من الله.

30- القديسون كانوا يتعزون بالرؤى الإلهية، وكانوا يصبرون على كلِّ تجربةٍ من أجل محبة الله.

31- التفاني لأجل الله يقود إلى راحة الأفكار. وعدم التفاخر يقود إلى الحرية من اضطراب الأفكار. هدوء الحواس الجسدية يقود إلى سلام الذهن.

32- الإيمان بالله يقود إلى عدم الخوف من التجارب. والتجارب تقود إلى اقتناء حكمة الروح القدس.

33- دون تذوق آلام السيد المسيح، لن تملك النفسُ الشركةَ مع الله.

المقال الرابع

34- الذي يساعد الناس، يُسرُّ الله.

35- الأمراض تُعطى من قبل الله، لأجل صحة نفس الكسولين

والخمولين الذي يحبون الله.

36- الله يسمح بالأحزان حتى نقترب إليه بالصلوات والتواضع، فلا يصيبنا ما أصاب الشيطان.

37- أحزاننا تذكرنا بالله وتقربنا منه، وتُبعد عنا الأمور الباطلة والفاسدة، وتَهَبنا كلَّ الغبطة والفرح. وهذا معنى ما نقوله: (في الحزن نتذكرك).

38- الدالة نحو الله تُقتنى بالصلاة الدائمة والقوية، وهي تُفرِّح قلوب ملتمسي الرب.

39- كلُّ من يعترف ويهجر خطاياه، سيجد رحمةً من الله. هذه هي التوبة.

40- الإنسان الذي مات عن العالم يصبر بفرحٍ في التجارب والسيئات. والذي لم يمت عن العالم يضطرب ويغضب ويسود الحزن عليه.

41- نعمة الله قريبة من متواضعي القلوب. أما المتكبر فتحيط به الظروف المؤسفة، من أجل أن يتواضع ويخلص.

42- المتواضع يتقبل الرحمة من الله دائماً. إذاً تَواضعْ أمام كلِّ الناس، وتقدَّم إلى الكلِّ ساجداً، وسيكرمك الجميع. احتقر نفسك ترَ مجد الله. جاهد أن يحتقرك الجميع، لأجل أن تُمجَّد من الله.

43- لا تطلب من الناس أن يكرموك. فمن يطلب التكريم يَهرب منه. ومن يتجنبه فإن التكريم يلاحقه، ويصبح مبشِّراً بتواضعه.

44- مغبوطٌ من الله ذاك الإنسان الصالح والزاهد والمتواضع، الذي يمتلك حياةً منيرةً ويعيش بتواضعٍ....، الإنسان الذي يجوع ويعطش لله، سيُنعِمُ الله عليه بخيراته الوافرة. كن إنساناً جاهلاً وبسيطاً، خيرٌ من أن تكون حكيماً بجهلك.

المقال الخامس

45- خالط المتواضعين، الذين يملكون رؤيةً وتعاليم مفيدة. لا تستهزئ بالمرذولين، ولا تنفر من الذين عندهم جراحات. أكرم قريبك أكثر من قدره، وامدحه في الأمور التي لا يملكها، وهكذا ستشفي عيوبه!

46- احترس ولا تُدِنْ أحداً لأيّ شيء. لأن المحبة لا تغضب، ولا تُدين أحداً بخطأ.

47- عندما لا تبتعد عن أسباب الخطيئة تعطي العدو الفرص ليحاربك. بقراءة الكتاب المقدس تطرد الذكريات السيئة.

48- بعيداً عن العالم لا توجد أسبابٌ للسقوط في الغضب والشهوة والحقد والمجد الباطل. الأفضل لنا أن نموت مُحَارِبين الأهواء، من أن نعيش مغلوبين لها.

49- تجنب الدالة نحو البشر، ولا تقاطع أولئك الذين تحادثهم. اعتبر نفسك أقل من الآخرين، ولا تثرثر مع أيِّ شخصٍ تصادفه. كُل واشرب قليلاً من كلِّ شيء. لا تستعجل في المشي دون سبب. خاطبْ الناس بوداعة.

50- لا تنظر في وجه مُحدِّثك. لا تراقب خطايا أحد. لا تتجنب الأعمال الوضيعة. صاحب أصدقاء يخافون الله. خبئ أسرارك وحروبك عن كلِّ إنسان.

51- لِتُحتَقَر، لكن لا تحتقر الآخرين. لتُظلَم، لكن لا تظلم. لا تحب الأشياء العالمية. أَحسنْ إلى الكل، وابتعدْ عن الكل. لا تثرثر، لا تخاصم، لا تسكن مع المتكبرين.

52- لا تمتحن عقائد الكنيسة. لا تعبر أمام الغاضبين والمقتَتِلين، لأجل ألا يمتلئ قلبك غضباً وسخطاً.

53- الإهمال والضجر يولِّدان الضيق والحزن في النفس. فرح القلب يُجبر اللسان على الصمت، ويَنتج عن ذاك الصمت لذةٌ وبهجةٌ ورقةٌ في النفس. وهذا الابتهاج والتذوق هما حضور ملكوت السماوات في داخلنا. فالفرح والبهجة عندما يدخلان إلى القلب يعطيان الصحة للنفس، ويخرجانها من ظلمة عدم الإيمان.

54- الجوع لمعرفة أقوال الله، السهرانيات طوال الليل، وغزارة الصلوات، تُظهر لنا غنى النعمة الإلهية حسب استحقاق كلٍّ منا.

المقال السادس

55- اجلس في قلايتك وهي ستعلمك كلَّ شيء. وستمنحك حرارة القلب التي تقود إلى الدموع المستمرة. وبدورها تقودك إلى سلام الأفكار، واستمرارية نقاوة الذهن، وإلى أسرار الله، التي لا تُكشف إلا للمتواضعين.

56- يجب على الراهب أن يكون نموذجاً وذا منفعةٍ في كلّ تصرفاته في العالم. لأن السيرة الرهبانية هي فخر كنيسة المسيح.

57- من مقومات الراهب الحقيقي:

1- ازدراء أشياء العالم كلّها.

2- المكوث الدائم في الهدوء.

3- تجنب النظر.

4- التوقف عن المشاجرات.

5- الكلام المختصر.

6- البساطة وطيبة القلب.

7- الهرب من الناس والثبات على الصلوات والمطالعة.

8- تجنب الكرامات، والصبر برجولةٍ على التجارب.

9- البكاء الدائم في الليل والنهار.

10- حفظ العفة.

بكل هذه الأمور يقترب الراهب من الله، ويُعَدُّ مائتاً عن العالم.

58- توجد ثلاث درجاتٍ روحية:

1- المبتدئون 2- المجاهدون 3- الكاملون.

في الدرجة الأولى تتحرك الأهواء بداخلنا. في الثانية نجد حالتنا تتراوح بين متأثرة وغير متأثرة. وفي الثالثة نشعر بنعمة الروح القدس.

59- ماذا يمكن أن نقول للمؤمن الذي اقتنى داخل قلبه شعوراً بنعمة الروح القدس، على الرغم من أنه غير مستحقٍ لهذه النعمة الكاملة؟ هذا

المؤمن يُعتبر مُخلِّصاً بسبب تآلفه مع النعمة، لذلك عليه الحفاظ عليها.

60- تبدأ سحابة نعمة الروح القدس بتغطية خباء قلبك، عندما يترل ذهنك إلى قلبك.

61- علامات النفس المتقدمة:

1- غنيةٌ بالصلوات.

2- لا تتكبر وتتغاض عن عيوب الأقرباء.

3- تتمنى أن تخرج من الجسد.

4- تصبر بفرحٍ على كلِّ الأحزان.

5- وتشكر الله وتمجده على كلِّ شيء.

المقال السابع

62- الإنسان ذو الاهتمامات الكثيرة والأمور الكبيرة، لا يستطيع أن يصبح وديعاً وهادئاً دون الصلاة المستمرة، ولا يستطيع أن يقترب من الله بسبب مشاغله.

63- أحاديث الرهبان العالمين وعديمي التقوى ونظرياتهم. تسبب للنساك الهدوئيين تعكير الذهن وقلق النفس، مما يمنعهم من احترام الأمور الإلهية.

64- الإنسان المتكبر يمشي في طريق الظلام، ويعتقد أنه أعلى شأناً من جميع الناس. بينما هو في الحقيقة أقل من الباقين، لأنه لم يرد أن يسلك بالتواضع الذي هو طريق الله.

65- القراءة الدائمة للكتب المقدسة، تملأ النفس بالدهش والسرور الإلهي.

66- توجد دموعٌ ممزوجةٌ بالعسل، يذرفها الهدوئيون خلال أوقات المطالعة وفي الصلاة. وهذه الدموع المستمرة تقود إلى سلام الأفكار، وإلى معاينة الأسرار الإلهية.

67- من ازدرى المجد البشري، استأهل المجد الإلهي.

68- الذي يُخضع نفسه لله سوف تَخضع له كلُّ الأشياء. لأن سلام الله سيُولَدُ في قلبه. وإذ لم نتواضع ذاتياً، يُخضعنا الله بالتواضع. والتواضع الحقيقي هو الذي يُولَد من المعرفة والتجارب.

69- الإيمان وممارسة سر المناولة الإلهية، يمنحاننا مواهب كثيرة تجددنا دائماً.

70- الأولاد الصغار يملكون جسداً طاهراً، ونفساً نقية (اللاهوى). لكنهم يفتقدون نقاوة الذهن التي هي الكمال. لأنه بالنعم الإلهية يُستمتع بالكشف الإلهي لعالم السماء.

المقال الثامن

71- المعرفة التي تتقدم الإيمان تكون معرفة طبيعية. أما المعرفة التي تنتج من الإيمان فهي معرفةٌ روحية.

72- المعرفة الطبيعية تميز الصالح والسيئ، وتقودنا إلى الإيمان بالله. والإيمان بالله يقودنا إلى خوف الله. وخوف الله يقودنا إلى التوبة

والأعمال الصالحة. ومن الأعمال الصالحة نُعطى المعرفة الروحية والشعور بالأسرار، اللذين يلدان معاينة الله (الثيوريا).

73- معاينة الله ورؤيته هما التمتع بالله.

74- أتريد أن تجد الحياة الأبدية؟ اقتنِ أمرين اثنين؛ الإيمان، والتواضع.

75- عندما تقف للصلاة انسحق، واعتبر نفسك نملةً، أو سحليةً، أو علقةً، أو طفلاً.

76- ارمِ كلَّ اهتمامك على الله وصلِّ بحرارةٍ، إلى أن تشعر بالفرح داخلك.

77- من امتلك المعرفة العالمية لا يستطيع أن يصل إلى الكمال. ولن يشعر بالمعرفة الروحية إن لم يرفض كلياً المعرفة العالمية.

78- لكي تشعر في داخلك برقة الحياة الآتية وحنانها وفرحها، يجب أن تعود طفلاً كما قال السيد.

79- إذا حمّلت الله اهتماماتك كلّها، فبشكلٍ طبيعي سيهتم هو بك. وعندها ستشاهد عجائب الله.

80- بالإيمان وتجنب الناس، وبمقت المعرفة العالمية تصل إلى نقاوة القلب. وبها تتذوق نعمة الروح القدس وفرحه (المعرفة الإلهية).

81- النعمة الإلهية تأتي إلى الذي يرفض كلَّ مساعدةٍ عالمية وكلَّ رجاءٍ بشري. ويكرس نفسه لله.

المقال التاسع

82- كلُّ فضيلةٍ تُحققها بسهولةٍ تكون شيئاً مشكوكاً فيه. وحسب قول القديس مرقس الراهب فإن: (كلُّ فضيلةٍ تدعى صليباً عندما تُنفَّذ بحسب وصية الروح القدس).

83- عندما يبدأ الإنسان بالتكبر، يسمح الله للتجارب القوية أن تأتي عليه وتغلبه. وذلك ليتواضع ويطلب المساعدة الإلهية مجدداً.

84- الإماتة، لا تتحقق بالأشياء المحزنة التي تحزنك في هذه الحياة، ولا بالأشياء المفرحة التي تفرحك!.

85- ماذا تقول أيها الإنسان؟! أتريد أن تصعد إلى السماء وترث ملكوت الله والراحة والنعيم، وتتحد مع الملائكة والحياة الأبدية؟ وتسأل إن كان يوجد في الطريق صعوبات؟!

86- عندما يتبنى قلبنا الأمور الروحية بحماسٍ، لن يشعر جسدنا بالضيقات والأحزان. وذلك لأنه يترجى أموراً أفضل بكثير: هي ملكوت السماوات.

87- التواضع هو لباس الألوهة الذي يتشح الله به. وبالمكونات المتواضعة للخبز والخمر تحلُّ الألوهة فينا، وتدخل وتقدسنا.

88- الإنسان المتواضع لا يُكرهُ من أحدٍ، ولا يُوبَخَّ، ولا يُزدرَى به. فالمسيح يُحبه، ولهذا فهو محبوبٌ من قبل الجميع. يُحب الجميع والكلُّ يريدونه. الحكيم والمعلم يصمتان أمامه، ولِما يقوله ينتبهان. أقواله موجزةٌ وحلوةٌ (أحلى من الشهد والعسل)، ويُعتبر من الجميع كسيد،

على الرغم من كونه جاهلاً، وشكله لا يوحي بالأهمية. الوحوش تتروض أمامه لأنها تشتم منه عطر آدم! فكلُّ من يزدري المتواضع يُجدِّف على الله نفسه.

89- المتواضع ينظر إلى ذاته كخاطئ وحقيرٍ ومرذول. وهو يتحسس الأفاعي كأنها جراد! وحين يقترب من الناس فهم يقبلونه كالسيد! وتذوي الشياطين السيئة أمام المتواضعين دائماً! كلّ هذا هو نتاج عظمة التواضع وقوته، الذي يقبله القديسون.

90- هل من الممكن أن يصبح الإنسان متواضعاً؟ الجواب نعم. فبقوة الأسرار المقدسة الإلهية التي تُكمِّل كلَّ إنسان، كما حصل مع الرسل المغبوطين في يوم العنصرة (عند حلول الألسنة النارية). وبإتمام الفضائل كلها!

91- المغبوط هو كلُّ من عَرَفَ ضعفاته، وهذه المعرفة هي أساس كلِّ فضيلة.

المقال العاشر

92- لا أحد يستطيع أن يَعرِف ضعفاته ما لم يسقط في التجارب النفسية والجسدية. عندئذٍ يصلي وينسحق ويتواضع.

93- التجارب النفسية هي:

الإلحاد، والتجديف، والتكبر، والحرب المنظورة للشيطان، والغيظ، والغضب.

وأما التجارب الجسدية فهي:

الأمراض الجسدية، والضيقات لأجل محبة الله.

94- بهذا القدر الكبير يحب الله المتواضعين، كما يحب السيرافيم!

95- عندما يتواضع القلب يُحاط برحمة الله، ويمتلئ بالفرح والسعادة، عندئذٍ لا يعود يصلي بتغصُّبٍ بل بفرح.

96- بقدر شوقنا إلى الاقتراب من الشركة الإلهية. بقدر ما يقترب الله منا بنعمه. وهو لا يترعها منا أبداً، طالما بقينا متواضعين!

97- كلُّ إنسانٍ يجهل ضعفاته يُحرم من التواضع. والمحروم من التواضع يُحرم من الكمال. والمحروم من الكمال يكون في خوفٍ دائمٍ لأنه لا يعتمد على الله. لذلك من الأفضل لنا أن يسمح الله بتجربتنا!

98- الإنسان الزاهد والمكرس لله، يرجو الله بحكمةٍ وصلاح.

99- من يقضي حياته في الخطيئة، لا يحق له أن يترجى مساعدة الله عندما يمر بالضيقات، ما لم يتب بصدق.

المقال الحادي عشر

100- إيمانٌ دون عملٍ، كمن يريد أن يمسك الهواء في كفه.

101- لا تنخدع فتبحث عن الطريق السهلة: فالتعب لأجل الله، والعرق في عمل الوصايا يسبقان دائماً الرجاء نحو الله. حين تؤمن تعمل عملاً جيداً. ولكن الرجاء بالله يَظهر من خلال التعب في الفضائل (الأعمال). ولهذا فإن الإيمان يريد أعمالاً.

102- أكون معك في الأحزان والضيقات، لأساعد الصدّيق وأمجده،

مانحاً إياه حياةً مديدةً، ومرشداً إياه إلى خلاص نفسه. هكذا يقول الله.

103- النفس التي تحب الله تستريح في كلِّ ما يخص الله فقط. ولكي ترتبط أنت مع الله، يجب أن تنعتق من كلِّ قيدٍ مادي للعالم الخارجي.

104- لا تمدح أبداً ذاك الذي لا يريد أن يسمع كثيراً، ولكنه يريد أن يتكلم كثيراً، ويجول بنظراته في كلِّ مكانٍ، رغم معاناته جسدياً.

105- المعاناة لأجل الله يتبعها الفرح دائماً. اصبر على الازدراء بشكرٍ لتملك دالةً لدى الله. الإنسان الذي يغادر العالم وهو يعرف مجده الباطل، يشعر بمجد الدهر الآتي في داخله.

106- أن تغفر خطايا الآخرين فضيلةٌ عظمى، لأنك تصبر على الظلم وترحم ظالميك.

107- أكرم السهرانية مع العمل الروحي، وستجد تعزيةً في نفسك. اثبت في مطالعة الكتب الروحية بهدوء، عندئذٍ ستمجِّد الله. احترس من الزلات الصغيرة، حتى لا تقع في الأكبر. تُرى هل من يطلب المجد البشري يملك أفكاراً متواضعة؟ لا. فالذي يطلب المجد البشري لا يكون متواضعاً أبداً.

المقال الثاني عشر

108- الفاسق لا يملك ذهناً متواضعاً ولا قلباً نقياً. وهو يأكل طعام الوحوش لا الملائكة! المتواضع هو العفيف والبسيط، وأما المتعجرف فهو خادم الزنى.

109- أحبب الفقر، واهتم بنفسك فقط مبتعداً عن الناس. أحبب الثياب المتواضعة، لأن المتكبر هو الذي يتزين بالملابس البراقة.

110- إنه لأمرٌ جيدٌ أن تتعلم اللاهوت لأجل الله، لكن الأفضل من ذلك أن تُنقيَّ نفسك لأجل الله.

111- كثيرون هم المرضى النفسانيون، الذين كانوا يدخلون إلى بحر هذا العالم لأجل أن يشفوا النفوس، فخسروا النفوس الأخرى بالإضافة إلى نفوسهم، لأنهم أصبحوا حاملين للأهواء، وصارت نفوسهم ميتة.

112- حيثما تذهب اجعل نفسك غريباً، فستُجنب نفسك أذى الدالة. وفي كلِّ فرصةٍ تظاهرْ بأنك لا تعرف شيئاً.

113- تكلم كتلميذٍ صغير وليس كأستاذ. تَفَكّر في كلِّ شيءٍ أنك بحاجةٍ للتعلم، عندئذٍ ستكون حكيماً في كلِّ حياتك.

114- لا تقرأ الكتب الهرطوقية أبداً، بل اقرأ كتب آباء كنيستك دائماً.

115- بارك دائماً ولا تلعن، لأن البركة تلد البركة، والإدانة تلد إدانة.

116- لا تَنقل إلى الآخر الأمور التي لم تختبرها عملياً.

المقال الثالث عشر

117- عندما تفتح النعمة الإلهية حدقتي نفسك، عندئذٍ تجري دموعك كالصنبور. وهذه الدموع علامةٌ واضحةٌ لزيارة النعمة الإلهية.

118- اختر مكاناً هادئاً لتقرأ الكتب المقدسة، فتتعرف على عظمة الله، وتشعر نفسك بالفرح والحلاوة السماويين.

119- استقبل في بيتك فقط المشابهين لك في الأسلوب والرأي والتعقل والفضيلة.

120- وَحّد صلاتك بالإحسان، فتُضاء بنور الله.

121- اقرأ الكتب الروحية وسير القديسين واقرنهما بصلاةٍ كثيرة، عندئذٍ ستشعر بحلاوة الله.

122- مثلما لا يُسمح للعاهر أن تتكلم عن الأخلاق هكذا الأمر أيضاً للناس الجسدانيين، لا يحق لهم أن يتناقشوا بالأمور الروحية، لأنهم لم يتذوقوا في نفوسهم حلاوة الأعمال الروحية.

123- السيد المسيح اشتركَ مع العشارين والخطأة في الأكل، ساعياً لجذبهم إلى مخافة الله. وأنت عندما تعمل عملاً صالحاً لا تنتظر أجراً عنه، فأجرك عند الله.

124- نقص الطعام يقود الإنسان إلى ضبط النفس (عفتها)، وأما كثرة الطعام فتقوده إلى عدم ضبط النفس. من ينتصر في حرب الحواس، يُشبه هؤلاء الذين أغلقوا أبواب المدينة، وتفرغوا لمحاربة الأعداء الداخليين فقط.

125- ينصح الآباء بالعمل اليدوي للمرضى المشوشين فكرياً، أما الكاملون فالعمل اليدوي يسبب اضطراباً لهم.

المقال الرابع عشر

126- أن يستريح المرءُ ويهدأ خلف باب قلايته، فهذه موهبةٌ إلهيةٌ

حصل عليها.

127- يمكن للمرء أن يبقى حاملاً للرجاء بالخلاص واستحقاق النعمة الإلهية طالما لم يصل للكمال، بشرط أن يبقى متجنباً أعمال الخطيئة السيئة، وجاهداً في اقتناء أعمال الفضيلة الصالحة. كلٌّ من اقترب من الكمال يشعر في نفسه بسر الغبطة الأبدية.

128- إذا لم يُمِتِ الإنسان صلته بكلِّ أمور العالم الخارجي، ولم يبتعد عن الخطيئة، وعن الذكريات السيئة، وعن الأفكار الشريرة، فلن تتحرك فيه حلاوة الروح القدس.

129- المغبوط هو من يهدأ وينشغل بالصلاة فقط، ولا ينشغل بأشياء أخرى.

130- من ابتعد في معيشته عن العالم، وجد في نفسه سر الغبطة الدهرية، واستحق النعمة الإلهية.

131- محبتنا لله لها علاماتٌ محسوسةٌ هي:

1- يصبح الوجه مبتهجاً وأحمر كالنور.

2- يصبح الجسد دافئاً.

3- يُفكر بالموت الرهيب بفرحٍ.

4- يتذكر الأمور السماوية بشكلٍ دائم، ويتحدث عنها.

5- يكون الذهن سابحاً في الهواء، ومندهشاً كما لو أنه يتكلم مع شخصٍ آخر.

132- إذا لم نصل إلى فضيلة التواضع المقدسة فلن نحصل على

الراحة، ولن ننعتق من سيطرة أعدائنا.

133- كلُّ الذين يمرضون بسبب مشيئتهم الذاتية، لا يستطيعون أن يربحوا الحياة الأبدية. لذلك يقود الله نفوسهم إلى الفضيلة بوساطة الأحزان المكروهة.

134- اعرف أن الرغبة التي تتغلب عليك تعيش في داخلك.

المقال الخامس عشر

135- محبة الله للبشر تتماشى مع الأحزان القاسية التي يسمح بها صلاحه. وعندما لا يستفيد الإنسان من هذه الضيقات يعيش العالم في داخله، ويطغى على شوقه للمسيح. وهكذا تعيش محبة الجسد في داخله بدلاً من محبة المسيح.

136- غَرَقُ الجسد في التجارب والأحزان، هو الطريق لتنتصر محبة المسيح على حزن الذهن.

137- الطريق التي تحمل الإنسان إلى نور حياة المسيح هي:

1- الهدوء 2- الأكل بعفة 3- الانشغال الدائم بكلمة الله، من حيث هي إقامة في الشركة الإلهية، والصلاة، ومطالعة الكتب الإلهية. وينشأ من هذه الأمور: حرية المسيحي الحقيقي، وفرحٌ دائمٌ في النفس، والراحة مع المسيح في ملكوت السماوات.

138- الإنسان النهم يكون دائماً فاحشاً، ويشعر بـ:

1- دوخة في الرأس.

2- ثقل في الجسم وارتخاء.

3- خمول وظلمة الأفكار.

4- الضجر في كلِّ عملٍ روحي.

139- نحن لا نُقبل على قراءة الكتب الإلهية، لأننا وبسبب كبريائنا الروحي! لم نتذوق حلاوة الكلام الإلهي.

140- الإنسان الذي يعيش متوحداً في الصحراء، لا توجد عنده تجربةٌ جاهزةٌ حاضرةٌ آنية، لأنه لا يرى نساءً، ولا يسمع أحاديث غير محتشمة، ويبتعد عن أي شيءٍ يضر بسيرته في صداقة الله معه.

المقال السادس عشر

141- بعد أن يقنعنا الشيطان بإلغاء الصلاة القلبية المستمرة، وعدم الالتزام بالقانون الذي وضعه لنا الأب الروحي. يدفعنا من سيء الأمور إلى أسوئها.

142- شجاعة القلب تُقتنى من الإيمان الكبير بالله. وهذا الإيمان ينبع من القلب المتواضع.

143- الإنسان الجبان يعاني من محبة الجسد وقلة الإيمان. كلُّ من ينتصر على هذين الاثنين، يكون قد حاز إيماناً حقيقياً بالله.

144- الدالة عند الله تُقتنى من الضمير الجيد، ومن أعمال الفضيلة.

145- صمتك الدائم يكون لأجل مجد البشر، أو بسبب غيرةٍ في اكتساب الفضائل، أو أنك تحمل في قلبك عملاً إلهياً.

146- يفرح الله والملائكة حين تنزل الأحزان والضيقات علينا. أما الشيطان فيفرح في راحتنا! نحن نزدري الله عندما نزدري هذه الأحزان والضيقات، التي هي مسبباتٌ للفضيلة.

147- الأحزان والضيقات تقتل الأهواء، بينما الراحة تغذيها.

148- عسل المسيحي الذي يغتذي به، هو الانشغال بمطالعة الكتب الإلهية، وبالصلوات ليلاً نهاراً.

149- كلٌ من يثبت ساهراً في الصلوات يعمل عمل الملائكة، ويستحق المواهب العظمى من لدن الله.

150- كنتَ سترتاحُ في أحضان المسيح الحلوة، لو أنك قمت بعمل النهار على شكلٍ يتفق مع عمل الليل (تعبٌ وصلوات). لا تُبعثر في النهار ما تجمعه في الليل من تعبٍ وصلاة.

المقال السابع عشر

151- هادئاً وساهراً في مطالعة الكتب الإلهية، عندئذٍ ستصبح عيوني كصنبورٍ من الدموع.

152- التوبة تَكْمُل باكتساب التواضع، وعندئذٍ نتخلص من كلّ الخطايا، وحتى من أفكار الزنى.

153- الخطيئةُ التي لا تُغفر هي خطيئة الإنسان الذي لا يندم ولا يتوب.

154- تأمل الأحزان الكبيرة التي يكابدها الآخرون، فتحتمل أحزانك الصغيرة وتصبر عليها.

155- اقتنِ السلام في نفسك، فيكون لك سلام السماء والأرض. تعلَّمْ أن تدخل إلى مخدع قلبك، عندها ستشاهد المخدع السماوي.

156- الطعام الروحي لا يُشبه طعام هذا العالم، وحلاوته ليست كذلك. لأن الإحساس بملكوت السماوات يَنشأ بداخلنا من عمل الروح القدس، وليس من تعاطينا الأمور الحسية.

157- مُحبُّ الفضيلة هو ذاك الذي يتقبل بفرحٍ الأمور السيئة، لأنها تتبع ممارسة الفضيلة.

158- انشغل دائماً بدراسة الكتب الإلهية، لكي لا تكون لك أفكارٌ فاسقة. واستر على الذي أخطأ، فتعطيه الشجاعة ليجابه الخطيئة. ومن جهةٍ ثانيةٍ ستحمِلُ في نفسك رحمة الله.

159- يُظلِمُ الذهن عندما لا يملك صلاةً وعملاً روحياً، وذلك لأنه يُحرم من المساعدة الإلهية، وتسكنه الشياطين.

160- إذا كان القلب نقياً، تأتي مواهب الله وحدها.

المقال الثامن عشر

161- العالم هو الأهواء:

1- هوى الغنى.

2- هوى طعام الجسد والجنس.

3- هوى التكريم والحسد.

4- هوى السلطة.

5- هوى التبرج والغرور.

6- هوى المجد البشري والحقد.

فعندما تنعتق من كلٍّ هذه الأهواء، ستخرج من عالم الأهواء، وستكون إنساناً حراً حقيقياً متنفساً هواء الروح القدس. وهكذا ستصبح إنساناً روحياً.

162- شهوة ولذة الصلاة هي خاصية المبتدئين، أما الكاملون فنصيبهم الرؤيا الإلهية. والرؤيا (الثيوريا) ليست هي منظر الأشكال، بل هي الانخطاف الذي يتبع الصلاة، حيث يصبح الجسم جامداً بلا حركة.

163- كلُّ طرق الصلاة تتجه إلى الصلاة النقية، التي لا يوجد بعدها شيء. واحدٌ من ألف يصل إلى هذه الصلاة النقية.

164- تهدف وصايا الله إلى خلق القلب النقي.

165- القديسون في الدهر الآتي لا يُصَلّون. بل يتهللون ويفرحون في ذلك المجد، لأنهم ممتلؤون بالروح القدس.

166- ما هو انخطاف الذهن؟ إنه صلاة الذهن التي تَسلُبك شعورك بنفسك.

167- عندما يتجهز الكاهن ويقف للصلاة مستعطفاً الله، وجامعاً ذهنه ومتضرعاً إليه، عندئذٍ يترل الروح القدس على الخبز والخمر الموجودين على المذبح ويقدسهما.

168- كلُّ الرؤى التي تظهر على القديسين، تحدث وقت الصلاة!

169- مغبوطٌ ذاك الإنسان الذي وصل إلى نقاوة الصلاة الحميمية، فأُعطي الدهش. ولعلنا نحن نستحقها بنعمة سيدنا يسوع المسيح.

170- الدراسة الدائمة للكتب الإلهية، هي نور النفس التي تحفظنا من الأهواء.

المقال التاسع عشر

171- الملائكة القديسون يأخذون هيئات قديسين، ويظهرون للنفوس في فترة النوم لإسعادها. ويتحقق ذلك لنا عندما نفكر طوال النهار بالأفكار المفيدة.

172- من يفكر طوال النهار بالأفكار السيئة والفاحشة تزوره الشياطين الأشرار طوال فترة النوم، حيث تؤلمه وترهق نفسه.

173- الضجر وقلق النفس يتولدان من تشتت الذهن، ومن الأحاديث الباطلة، ومن تخمة البطن، ومن الامتناع عن المناولة الإلهية، ومن عدم أداء الصلوات.

174- ليس من عمل الراهب جعلُ قلايته فندقاً لإطعام الجائع، بل عليه التزام الصلاة. فهي أفضل من عمل الإحسان، الذي هو من عمل العالم.

175- عندما يتشتت ذهنك خلال ساعة الصلاة، اقرأ الأناجيل ولا تصلِّ، لأن المطالعة هي مصدر الصلاة النقية.

176- اقبلْ على عمل صلواتك، وقانونك... عندما تتذوق الحلاوة الكثيرة في الصلاة، وحين تصل إلى الدموع، اترك كلَّ شيءٍ حتى الصلاة.

177- الزنى يتبع التكبر، وضلالة الأفكار تتبع الزهو والتعجرف.

178- أحبب الصمت أكثر من أيِّ شيءٍ آخر، فهو يولِّد اللذة في القلب، والدموع الغزيرة في العين. وهو وحده يتجاوز كلَّ الأعمال

الأخرى في الحياة الرهبانية ويغلبها.

179- تكفي المناولة لتؤجج شوق المؤمن إلى الله، وتعزِّيه في الأحزان والضيقات التي تحيط به في هذه الحياة المتعبة.

180- الإنسان الذي يحب الصلاة، يحب الوحدة أيضاً. حيث يجد المسيح ويتكلم معه. أما الذي يكون صديقاً للعالم، فلا ينال شيئاً من ذلك، لأنه يريد أن يوجد بين أناسٍ كثيرين.

المقال العشرون

181- كلُّ من يعرف خطيئته، يكون أفضل من الذي يقيم الأموات بصلاته. وكلُّ من يتنهد على نفسه ساعةً من الزمن، يكون أفضل من الذي يفيد العالم بتعاليمه. وكلُّ من يسير وراء المسيح حزيناً على خطاياه، هو أفضل من الذي يُمدح من قبل الشعب في الكنيسة.

182- لنتذكر الموت، ولنزدرِ بطلان هذا العالم وملذاته، لكي نستحق الراحة المستقبلية في الملكوت.

183- يجب علينا أولاً أن نُصفِّي ذهننا عن طريق الانعتاق من اضطراب الاهتمامات الدنيوية، ومن ثم نتوق إلى الكلام مع الله عن طريق الصلاة، وهي التي تقودنا إلى محبة الله والغبطة.

184- لا يسكن الروح القدس في أولئك الذين يعيشون بالراحة، ولكن روح الشيطان تسكن فيهم. العبيد الحقيقيون والمخلصون لله يعيشون بالأحزان والضيقات، بينما العالم يعيش بالراحة والاستجمام.

هم يبكون والعالم يضحك، هم يتألمون والعالم يفرح، هم يصومون والعالم يأكل.

185- الفضيلة هي حفظ وصايا المسيح بما يتبعها من أحزانٍ وتجاربٍ يُسببها لنا حسد الشياطين. بالصبر نصل إلى التواضع، وبشكلٍ مستمر نتمتع بنعمة الله.

186- لا تُعطى المكافأة للإنسان بسبب فضيلته فقط، بل لأجل تواضعه كذلك. لأن كلَّ الأشياء دون التواضع باطلة.

187- المسيح لا يطلب عمل الوصايا، ولكنه يريد إصلاح النفس من فسادها.

المقال الحادي والعشرون

188- الابتعاد عن الأعمال الصالحة والصلاة يقودنا إلى الكبرياء. حينها يغادرنا ملاكنا الحارس ويأخذنا الشيطان.

189- إذا مُنحتَ موهبةً فاطلب من الله تواضعاً، وملاكاً حارساً، وأن يأخذها منك حتى لا تسقط في الكبرياء. وعند ذلك تصبح نقائصنا الطبيعية حراساً للفضيلة التي أعطانا الله إياها.

190- المتكبر بحاجةٍ للانسحاق الذي يتبعه التواضع. وعندها تأتي مواهب الله، التي لا تعطى إلا للمتواضعين فقط.

191- قبل الانسحاق توجد الكبرياء. وأما قبل الموهبة فيوجد التواضع.

192- الكبرياء لا يتشكل من الفكر العابر للتكبر. ولكنه ذاك الفكر

الذي يقيم في الإنسان الذي لا يعرف النوح.

193- من وصل إلى محبة الله يتمنى الموت، ولا يرغب بالإقامة في هذه الحياة الحاضرة.

194- الصبر مدة سنين كثيرة يقود إلى التواضع، والتواضع يقود إلى صحة النفس، وصحة النفس تقود إلى معرفة الله، ومعرفة الله تقود إلى محبة الله، ومحبة الله تقود إلى فرح الله في النهاية، الذي هو أحلى من شهد العسل.

195- الحياة الخالدة هي شعورٌ بالله في داخلنا، وهو ما يقود إلى محبة الله. لأن أية حلاوة في القلب لا يمكن أن تقارن بحلاوة معرفة الله.

196- خذ حكمة الروح القدس، أي التواضع الذي يكره المجد العالمي وعُجب العالم.

المقال الثانية والعشرون

197- كل من استحق تذوُّق النعمة الإلهية، لا يسمح للأهواء أن تأتي إلى قلبه. فقد انتصرت فيه رغبةٌ أخرى أفضل من كلِّ شيء، وهي الغذاء الإلهي.

198- الذي يرتبك بالأمور العالمية ويتعثر في أحاديثه الكثيرة، لا يمكن أن يحفظ نفسه سليمة.

199- أيها الرب يسوع المسيح، اجعلني مستحقاً أن أبقى ميتاً عن معاشرة هذا العالم. فأن يموت أحدٌ ما عن العالم، يعني أنه لا يشتهي

شيئاً بفكره، ولا يطلب شيئاً من خيرات هذا العالم.

200- عندما يطأ الإنسان أولى درجات التوبة، يمتلك تذوق حلاوة الروح القدس ومعرفته من خلال النعمة الإلهية.

201- حلاوة محبة الله الدافئة تحرق أهواء النفس والجسد. بقدر ما يجاهد أحدٌ ما بالمطالعات والصلوات، يذهب في طريقٍ ينسيه أنه موجودٌ في وسط العالم، ويصبح متقبلاً للنعم والإعلانات الإلهية.

202- إن آدم وحواء والثعبان قد أخطأُوا. وكلٌّ واحدٍ منهم قد ورث اللعنة بشكلٍ مختلفٍ. وكلُّ إنسانٍ منا سيأخذ في الجحيم قسوةً في العقاب، بحسب ميله ورغبته نحو الخطيئة.

203- كلما سقط الإنسان المجاهد في الخطيئة، نهض من جديد وتابع جهاده. بينما من هو عبدٌ للخطيئة، يبتكر أساليب ليتمتع بها، ولا يتوقف عند حدٍّ معين.

204- التوقف عن الصلاة وعن قراءة الكتب الإلهية، وكذلك الامتناع عن المشاركة في المناولة الإلهية، كلها تجلب لنا الشياطين لتسيطر علينا.

المقال الثالث والعشرون

205- عندما نكون عبيداً للأهواء، تكون نفوسنا مائتة.

206- الفم الصامت يشرح الأسرار الإلهية ويفسرها. بينما الثرثار الخبيث والغضوب فموضعه يكون بعيداً عن الله.

207- الذي يمنع فمه عن الكلام السيئ والإدانة، يحفظ قلبه ويقيه من التأثر بالأهواء. فينظر له السيد الإله، ويطرد الشياطين بعيداً عنه.

208- القلب الذي يعتني بنفسه يفرح كثيراً.

209- كما يموت السمك عندما يخرج من الماء، هكذا يموت الذهن أيضاً عندما يخرج من ذكر الله.

210- الصلاة تميت الأهواء.

211- إذا كنت نقياً من أهواء الغضب ومن الرغبات السيئة، فستكون السماء فيك، وسترى السيد المسيح وملائكته.

212- الإنسان الغضوب والحانق ومحب المجد البشري، والذي أسلم نفسه للطمع والشره، وأحب مخالطة الناس العالميين، وكذلك العنيد في رأيه، والمتكلم بالسوء، والممتلئ بالأهواء. كلهم في الظلمة يمشون!!

213- الإنسان العالمي المُعَاني من اهتماماته الدنيوية، أفضل من الراهب الذي يعاني في الأمور الروحية.

214- كلُّ من يزدري نفسه ويصغِّرها (يتواضع)، سيعطيه الله الحكمة.

215- كلُّ من يتخلص من تعزية هذا العالم، يستحق الفرح الإلهي من خلال الروح القدس.

216- الإنسان المقتني أصدقاء أغنياء، سوف يصبح فقيراً من الله.

217- كلُّ من يتذكر الموت، ويبتعد عن ملذات هذا العالم، يكون قد وُلِد من الله وتغذى من الروح القدس، واستمتع بالفرح والسعادة.

المقال الرابع والعشرون

218- نقيُّ النفس يتكلم بالأقوال الروحية دائماً. أما من استولت عليه الأهواء فإنه يتكلم بالسوء، وإن تكلم عن الأمور الروحية.

219- المعاشرة العالمية، والحديث والثرثرة بأمورها، تُبرِد وتُطفِئ نار الروح القدس في قلوبنا.

220- أحبب الله لكي لا تصير عبداً لمحبة العالم.

221- المُهتم بعمل مآدب الطعام والمشروبات بشكلٍ دائمٍ، يكون عاملاً لشيطان البغاء، ويلوِّث نفس المتواضع.

222- أسباب الخطيئة هي: الخمر والنساء والغنى والقوة الجسدية.

223- كلُّ من يفتقر لأجل الله، يجد كنوزاً لا تنتهي.

224- مائدة الإنسان المصلي تكون دائماً أذكى من كلِّ العطور.

225- الإنسان الذي يَقصُر مأكله على الخبز النازل من السماء، والمعطي الحياة للعالم في المناولة الإلهية. يكون مغبوطاً، ويبقى قلبه فرحاً ومبتهجاً بشكلٍ دائمٍ.

226- مغبوطٌ من يشعر في قلبه بندى الحياة الإلهية، من خلال علاقته بالروح القدس. فهو الذي يملأ قلبه بالفرح والسعادة، حتى يرتوي منها.

227- لا يعادي المتواضعَ والوديعَ، إلا المتكبرُ والثرثار.

228- يهتم الملائكة القديسون بنا، كما يهتم الإخوة الكبار بإخوتهم الصغار.

المقال الخامس والعشرون

229- الصبر والوحدة، يوحدان الإنسان مع الله من خلال الصلاة.

230- ازدرِ الأمور السيئة غير الشريفة، لكي تنال الشرف والكرامة. وصِر مائتاً، لكي تحيا.

231- اترك الأشياء الصغيرة لكي تجد الكبيرة. كن مائتاً بحسب هذه الحياة لتعيش بعد الموت في الحياة الثانية. فضِّل أن تموت من أن تعيش في التهاون والكسل! اطلب الأمور المفيدة للنفس من الله - كما فعل سليمان وصالومة وأليشع - لأجل أن تتمجد في الأرض وفي السماوات.

232- من يطلب الأمور الأرضية في صلواته، يهين الله! أما الذي يزدري جسده طالباً الأمور السماوية، فإنه يُفرح الملائكة.

233- كلّ ما يُكتسبُ بجهادٍ وصعوبةٍ كبيرةٍ يُحفظ ويبقى! اعطش للمسيح ليسكرك بمحبته الدائمة وبفرحه المستمر.

234- كلُّ ما تطلبه من الله ولا تناله، فذلك بسبب:

1- أنك غير مستحق أن تأخذه.

2- أو أنك لم تطلبه من قلبك.

3- أو لأنك لم تصل بعد إلى درجةٍ روحيةٍ متقدمةٍ تستطيع فيها أن تتلقى الموهبة التي طلبتها.

235- الإنسان الملتصق والمرتبط دائماً بالأمور الأرضية، لا يستطيع أن يطلب الأمور السماوية. وهي لن تُعطى له مطلقاً.

236- كن هادئاً رزيناً وديعاً، وأحبب التواضع في كلِّ أعمالك. كي لا تُقتنص من الشياطين بالتكبر!

237- لا تهرب من الأحزان والضيقات، لأنك بها تجد الله! دون تجارب لا نستطيع أن ندخل إلى ملكوت السماوات.

المقال السادس والعشرون

238- صلِّ كي لا تدخل في التجارب النفسية، التي هي:

1- الإلحاد.

2- التجديف.

3- التكبر.

4- الحرب المنظورة مع الشيطان.

5- الغضب والحنق.

239- تجارب الجسد التي يجب أن نتقبلها برضى من كلِّ قلوبنا هي:

1- الأمراض الجسدية

2- الاضطهادات لأجل محبة الله.

دون هذه التجارب والمحاربات الجسدية، فإننا نَظهرُ أننا لا نؤمن بالعناية الإلهية، ولا نملك الدالة نحو الله، ولا نعرف حكمة الله، ولا نكتسب الشوق له. بهذه التجارب نختبر محبتنا تجاه الله.

240- ذاك الذي لا يصبر على التجارب، لا يستطيع أن يظفر بفضيلةٍ واحدةٍ من الله.

241- سيسقط من الإيمان الحقيقي بالمسيح، كلُّ من يترك التعقل والحكمة، أو يطرح الإسكيم الرهباني، أو يرفض الإيمان بالمسيح، أو يتخلى عن أيِّ فضيلةٍ من الفضائل الأخرى.

242- كلام الله أحلى وأطيب من العسل. وهو مثل الندى في نفس الإنسان الحكيم الورع.

243- أيُّ شخصٍ لا يُشابهك في سلوكك الروحي، لا تطلب منه أية نصيحةٍ روحيةٍ، وإن كان كثير الحكمة.

244- لا يعطي الله موهبةً روحيةً كبيرةً لشخصٍ ما، دون أن يُعطيه تجربةً كبيرةً أولاً.

245- أن تمتلك سلاماً بشكلٍ دائمٍ دون اضطرابٍ، فهذا يعني أنك لا تسير في الأمور الروحية جيداً. لأنه عندما تتقدم وترتقي روحياً، تُهيِّجُ ضدك التجارب. وبحسب عِظَمِ النعمة الإلهية التي تُقبلُ إليك، تأتيك التجارب بالمقدار نفسه.

المقال السابع والعشرون

246- سؤال: هل تأتيك التجربة أولاً ثم تليها النعمة الإلهية؟ أم تأتي النعمة أولاً ثم تتبعها التجربة؟

جواب: الرسل القديسون اقتبلوا الروح في البداية، ومن ثَمَّ دخلوا في التجارب. الله يريد أن ترافق الأمور الجيدة مع الأحزان دائماً. وهكذا فالنعمة الإلهية تتقدم على التجربة، لكنها تتأخر في إظهار

عملها، وكشف نشاطها في الإنسان.

247- عندما يبدأ إنسانٌ باعتبار نفسه حكيماً وعاقلاً، يسقط في تجاربَ سيئةٍ تتناسب مع درجة الكبرياء التي وصل إليها؛ فيُحرم من الحكمة، ويُحارب بأفكار الزنى، ويُصبح غضوباً وسريعاً في المشاجرة، ويُجدِّف ضد الله، ويُكثِر من الثرثرة والهذيان، ويُحرَمُ من تعزية القلب، وكذلك يُمنَعُ عنه الرجاء والإيمان.

248- عندما يُريد الله أن يضغط على الإنسان بشكلٍ كبيرٍ، يُذيقه الاضطراب، أي اختناق النفس، ويُسلط عليه روح الأفكار الفاسدة مع عواقبها. كلُّ هذا يكون من الكبرياء. أما شفاؤه فيكون بالتواضع.

249- التواضع يبدد أذى كلِّ التجارب، لأنه يُنْشئ الصبر في المصائب. ومن الصبر تأتي التعزية، وبها تتشكل المحبة نحو الله. فيزداد فرح الروح القدس، الذي يقود المتواضع إلى كمال النفس.

250- يجب على الإنسان الذي يملك اضطراباً وقلقاً ألا يُعلِّم الناس وألا يُرشدهم، لأنه لا يملك الصحة النفسية. فهو مريضٌ نفسياً.

251- جسدٌ مرتبطٌ بالخطيئة لا يستريح بالأعمال الروحية، إنما يركن للأعمال الجسدية. وروح الله لا يسكن في هذا الجسد.

252- ليس من فضيلةٍ من الفضائل تفوق وتعلو على فضيلة التوبة. إنها تُوافق الجميع من خطأةٍ وأبرار، وجميع الذين يُريدون أن يفوزوا بالخلاص الأبدي.

المقال الثامن والعشرون

253- ما حاجتي إلى حياةٍ تكون بعيدةً عن الله؟

254- عظيمةٌ هي قوة الشفاعة، عندما تملك دالةً نحو الله.

255- عندما أكون مُولهاً بمحبة الله، أمتلك دالةً لديه، ويساعدني في جميع ما أطلب منه.

256- يسمح الله بالتجارب؛ للمجاهدين ليزداد غناهم الروحي، وللمتهاونين لكي يُحفظوا من السقوط، وللنائمين لكي يستيقظوا، وللبعيدين عن الله لأجل أن يتقدموا إليه، ولأحبائه ليقتنوا الدالة عنده. هكذا يعطي الله صحة النفس للمسيحيين بهذه الأدوية المرة.

257- كما تتبدل الأحوال الجوية من حارٍ إلى باردٍ، هكذا في نفوسنا تَعقُبُ الحرب الشيطانية مساعدة النعمة الإلهية. لذلك لا تيأس عندما تتبدل حالات النفس، إذ في ساعة الفرح يجب أن نترقب الأحزان. لهذا عندما تظللك النعمة الإلهية لا تتكبر.

258- التواضع، وإن دون أعمالٍ، يغفر خطايا كثيرة. أما الأعمال الخالية من التواضع فهي ليست مفيدة، وتكون سبباً لخطايا كثيرة. فكما الملح يجعل الأكل شهياً، هكذا يفعل التواضع في كلّ فضيلةٍ. فضيلة التواضع هي الوحيدة الكافية لكي تُطهِّرنا وتُخلِّصنا وتُقدِّمنا أمام الله.

المقال التاسع والعشرون

259- التوبة هي ابتهالٌ دائمٌ نحو الله في صلاةٍ مترافقةٍ بالدموع، لكي يترك لنا خطايانا السابقة، حتى نصل إلى الدهور الآتية حيث لا يوجد خوف من التغيير.

260- العالم ساحة صراعٍ وجهاد، وهو ما يوجب علينا ألا نيأس وألا نتهاون في الصلاة. بل أن نُكثِر من طلب المساعدة الإلهية.

261- التجارب عطية الله الكبيرة، لذلك يجب ألا نتهاون إزاءَها، بل أن نجني الفائدة عند دخولنا فيها.

262- يحارب الشيطان المتهاونين روحياً بتجارب شديدة، ليخافوا ويستعفوا من الجهاد. لذلك إن لم تمت حسياً من أجل محبة الله، ستتعرض لخطر الموت روحياً!

263- يُظلل الله المبتدئين بنعمته، ولا يسمح بأن يسقطوا في أيدي الشياطين، لأنهم لا يعرفون بَعْدُ كيف يُحارِبون.

264- لا يُحارِب الشيطان الشجعان والأقوياء والمتحمسين في البداية. ولكنه يبدأ بمحاربتهم عندما تفتر همتهم، ويَضعَفُ حماسهم الروحي.

265- كالإعصار يضطهد المُجرِّب الجبناء والأنانيين، لأنهم لا يعتمدون على النعمة الإلهية.

266- عندما يسمح الله للتجارب أن تصيبك؛ كالأمراض الجسدية، والجوع، والرؤى المخيفة. فذلك كله لمصلحتك وفائدتك.

267- التكبر يطرد ملاكنا الحارس، بينما الصلاة والتواضع يجعلانه

دائماً معنا، وقريباً منا لمساعدتنا وحراستنا.

268- الشهوة الجسدية مع الراحة والأنانية هي أسباب السماح لسقوطنا في الخطيئة. وبإكثارنا الصلاة، وتحملنا للأتعاب، وعيشنا التواضع، سننال الخلاص بمعونة الملاك الحارس.

269- كلُّ من تأدب وتاب عن خطاياه في هذه الحياة الأرضية. غلب الجحيم!

المقال الثلاثون

270- بعد كلِّ راحةٍ يأتي التعب والعناء. وبعد كلِّ شهوةٍ ولذةٍ تأتي المرارة والتكدر والقرف. وبعد كلِّ تعبٍ لأجل الله تأتي الراحة الإلهية.

271- أبعد نفسك عن العالم تشعر بعفونته ونتانته. وابتعد عن علل الأهواء تتحرر منها.

272- الذي لا ينتصر على التجارب الصغيرة، لا يمكنه أن ينتصر على الكبيرة منها.

273- إذا لم نقترب من الله بخوفٍ في الصلاة والأسرار المقدسة. لا يتم اقترابنا منه إلا بتأديبه لنا.

274- المسيحي الجيد يجب أن يطالع ناموس الله ليل نهار.

275- الراهب هو الذي يكون بعيداً عن العالم، ويلتمس دائماً من الله أن يدخل الملكوت. غنى الراهب هو التعزية الإلهية والفرح، اللذين ينبعان من الإيمان.

276- الحكيم هو ذاك الذي يطرد الأفكار الفاحشة بالصلاة.

277- ليس المتواضع هو ذاك الذي يحتمل اتهامات الآخرين بفرحٍ فقط، بل هو من يتهم نفسه لأيِّ شيءٍ لم يكن.

278- في ملكوت السماوات يفرح كلٌّ واحدٍ منا بحسب النعمة التي نالها في هذه الحياة. وفرحه هذا يكون داخلياً، غير ناظرٍ للفرح الذي يكتسبه الآخرون. لذلك لا يغار ولا يحزن، عندما يزداد الآخرون من النعمة الإلهية.

279- الإنسان المضطرب مريضٌ نفسياً، لذلك يجب ألا يُعلِّم الناس الآخرين.

280- اعتزال الناس، والمناولة الإلهية المتواترة مع الصلاة المستمرة، ومعرفة الكتب الإلهية، كلُّها أمورٌ ضروريةٌ وحتميةٌ ليسود الروح القدس على نفوسنا.

المقال الحادي والثلاثون

281- عندما تخرج نفوسنا من الظلمات نمتلك حياةً جديدةً، فيسخن قلبنا ويحترق مثل النار ليل نهار. ونفقد شهوة الطعام بسبب حلاوة الأفكار. وتصبح قراءة الكتب الإلهية والعمل والصلاة، سبيلاً لسكب دموعنا مدراراً. كلُّ هذه الأشياء نخسرها إذا ما سقطنا في التهاون والتراخي والاستكبار.

282- صلاة المتواضع، تخرج من فمه لتدخل إلى أذني الرب.

283- الخمر يشفي الجسد، أما كلمة الله فتشفي الذهن!

284- خدمتنا الجيدة وتواضعنا، يجعلاننا آلهةً على الأرض!

285- الحرارة والحزن لا يجتمعان معاً. فعندما تُعطى الحرارة يخرج الحزن من القلب.

286- المغبوطون هم من قرّروا أن يبحروا في بحر الشدائد والأحزان لأجل محبة الله. وهؤلاء من يصلون بسرعةٍ إلى ميناء ملكوت السماوات.

287- الموت لأجل محبة الله، أفضل بكثيرٍ من الحياة في كسلٍ وعيوب.

288- إذا كنتَ صاحب قلبٍ نقيٍ سوف يُصعِدُكَ الله إلى قمة الفضائل، وسيجعلكَ حكيماً وكاملاً.

289- عندما تملك أفكاراً مظلمةً، اذهب ونَمْ. لأنه بعد الظلمة تأتي أفكار التجديف.

290- المرضى والعليلون نفسياً يحتاجون إلى عطفٍ ورأفةٍ أكثر من حاجتهم إلى التوبيخ. لذلك عندما أقسو على الآخرين أُضرِّ بنفسي كثيراً.

291- الوداعة والمسامحة هما مبدأ حكمة الله. فتحمل ضعفات الآخرين مأثرةٌ للنفس الشجاعة.

292- تجنُّب تجربة القلق والتهاون شيءٌ غير ممكن. وأيضاً من غير الممكن أن نتعزى في هذه الحياة بشكلٍ نهائي.

المقال الثاني والثلاثون

293- الحماسة الغبية غير الواعية تطرد السلام من النفس.

294- كالأعمى الذي يدل الناس على الطريق، هكذا يكون المريض نفسياً عندما يحاول إصلاح الآخرين.

295- من يصلي وهو حافظٌ للإساءة، يكون كمن يزرع في البحر.

296- عندما أُحبُّ الله، أتواضع بسهولةٍ وبساطةٍ.

297- من يثرثر ويتكلم باطلاً، وإن بالأمور الصالحة، فهو لا يستحق القداسة.

298- التوبة التي تحدث بعد مخالطاتٍ تشبه إناءً خزفياً مشوهاً!

299- العفة والكلام مع النساء، هما مثل الحمل واللبوة في غرفةٍ واحدة.

300- أن تُحسن لإنسانٍ مستحقٍ العقاب، فذاك أمرٌ مفيدٌ له.

301- كما أنه لا يمكن مقارنة حبة الرمل بالذهب. هكذا لا يمكن مقارنة عدل الله برحمته الكبيرة.

302- من اكتسب التواضع يكون قد مات عن العالم، وابتعد عن الأهواء الجسدية.

303- يسكن الشيطان في قلب الحسود!

304- التواضع والعفة يقوداننا إلى خلاص نفوسنا.

305- حين تكثر اجتماعاتك بالناس، الزم الصمت واخش المخالطات السيئة.

306- الجسد العفيف، أفضل من كلِّ ذبيحةٍ تقدم إلى الله!

307- يحب الله المتواضعين، بقدر محبته للسيرافيم!

308- أيتها المحبة، مغبوطٌ ذاك الذي وَجَدَكِ، لأنك ميناء كلِّ فرح.

309- لا تُنشئ صداقةً مع الناس الذين يخدعون الآخرين ويتلاعبون بهم.

310- تَجهَّم في وجه ذاك الذي يَتهمُ الآخرين ويشتكي منهم.

311- لا تتكلم مع المتكبر والحسود أبداً. وإن اضطررت لذلك فتكلم معهما بكثيرٍ من الانتباه.

المقال الثالث والثلاثون

312- أن تحزن من أجل الأشرار يعني أنك قمت بفضيلةٍ كبيرةٍ في الحقيقة. ولكن الأكبر من ذلك، هو أن تُحسِن وتُساعِد الخطأة أكثر من مساعدة الصالحين.

313- أعط إحسانك بوجهٍ بشوشٍ، وعزِّ الحزانى دائماً.

314- عندما تحزن وتتألم مع إنسانٍ مريض، اعتبر نفسك قد أصبحت شهيداً للمسيح.

315- اقتن ضميراً صالحاً وجيداً في كلِّ أعمالك، فلا عذر للإنسان المسيحي في عدم اقتنائه الضمير الصالح!

316- إذا ما شكيتُ أو اتَّهمتُ أحداً ما، أكون مائتاً وخاسراً لجميع أعمالي في ذاك اليوم! وإن صادقت وعاشرت مرضى الجزام، فخيرٌ لي من العمل مع المتكبرين.

317- احزن مع الخاطئين، وافرح مع التائبين! كن صديقاً للكلِّ، وابتعد عن الكلِّ!

318- استر على الخاطئ، وانظر إلى الآخرين كقديسين!

319- إذا لم تستطع أن تكون قديساً في قلبك، فكن طاهراً بحسب الجسد، ولا تفعل خطايا جسدية.

320- إذا لم تكن وديعاً، فسالم نفسك على الأقل.

321- هيكل النعمة الإلهية، هو إنسانٌ يتذكر الله دائماً.

322- نحن نريد الأمور الصالحة، ولكن الله هو من يعملها فينا.

323- راحة الجسد تضر بالشباب. وفي المقابل يجب الانتباه للمرضى والشيوخ، في ضرورة حصولهم على ما يحتاجونه من راحة.

324- يجب أن لا نحزن عندما نرتكب خطأً ما، ولكن يجب أن نحزن كثيراً عندما نصر عليه.

325- لا تكره الإنسان الخاطئ، بل اكره الخطيئة. فمحبتك للخاطئ، هي جزءٌ من قداستك وبرِّك.

326- مائتٌ عن هذا العالم من لا يحب الإنسان الذي يُكرِمُه، ولا يزدري الذي لا يُكرِمُه. عندما أملك الصلاة، لا أغضب ولا أكون نهماً وشرهاً.

المقال الرابع والثلاثون

327- أحبب الله أيّها الإنسان، ليس طمعاً بالخيرات المستقبلية التي وُعدتَ بأن تنالها في الحياة الثانية. ولكن من أجل الخيرات التي يعطيك إياها في هذه الحياة. النعمة الإلهية التي تُنهضُنا وتَبعثُنا من موت الخطيئة، هي أعلى وأرفع مرتبةً من النعمة التي حملتنا جسدياً من العدم إلى الوجود.

328- الحماس والغيرة لله هي الكلب الحافظ والحارس لناموس الله، وهذا فضيلةٌ كبيرة. الإنسان الغيور مثل الشيروبيم يَستَعِرُ كالموقد الملتهب

الذي يُدفئ. وهو يتيقظ في كلّ لحظةٍ لحيل الأرواح الشيطانية الماكرة.

329- تضعف وتفتر الغيرة والحمية؛ عندما لا يؤمن الإنسان، ولا يعترف بالمعونة الإلهية، وكذلك حين ينسى الله.

330- عندما يذهب المجاهد إلى العالم يفرحُ ويُسَرُّ بالمدح والثناء، فيسقطُ في المجد الباطل. وعند صمت المدح والثناء يغرقُ ويسقط أيضاً.

331- تفتر فضيلة الغيرة أو الحماسة، بسبب ضعف الرغبة في عمل الفضيلة، وبالاعتداد والثقة بالنفس، وبالاستهتار بقوة الشياطين.

332- الإيمان هو عيش الطفولة بقلبٍ بسيطٍ. في حين أن المعرفة تُدَقّق وتُناقش الأشياء، فتحكم على صحتها من خطئها، وتحفظ النواميس والقوانين الطبيعية. لذلك يتبع المعرفة الخوف، بينما الإيمان يتبعه الرجاء. المعرفة التي يمتلكها الإنسان تبقى فقيرةً وناقصةً، أما كنوز الإيمان فلا تعادلها سعة السماء والأرض.

333- الذي يتكل على المعرفة لا يمشي على الماء أو على النار. بينما الكثيرون قد ساروا على المياه وعلى النار بقوة الإيمان دون أن يتأذوا.

334- الإيمان يملك كنوزاً دائمةً وثابتة، ويملأ قلب المؤمن شهوةً ولذةً إلهية! أما المعرفة فنحتاجها كسُلّمٍ لتُوصِلَ الإنسان إلى الإيمان.

335- من تذوَّق حلاوة الإيمان، ثم أراد أن يذهب نحو المعرفة البشرية المادية، يكون مثل من قايض اللؤلؤ الثمين بثمنٍ بخسٍ جداً.

المقال الخامس والثلاثون

336- الغنى الذي ينبع من الإيمان غنىً عظيم. ودرب الإيمان ممتلئٌ بالشجاعة والحماس والرجاء، حيث تصبح الأحمال خفيفةً من كثرة ما نشعر به من لذة العمل وحلاوته بإيمان.

337- الفضائل الجسدية تجتمع في: 1- الصوم 2- والإحسان 3- والرحمة 4- والسهر 5- ونقاوة وطهارة الجسد.

338- الفضائل الروحية تجتمع في: 1- المحبة 2- والتواضع 3- والمسامحة 4- والحفظ من الأهواء 5- وصفاء الذهن في الصلاة والأعمال الروحية.

339- المعرفة البشرية تقودنا إلى:

1- دراسة الحكمة الخارجية.

2- الغنى والثروات.

3- المجد الباطل. وهذا ما يدفعنا إلى التبرج والزينة ورفاهية الجسد.

340- من يقتنون المعرفة البشرية يستحوذ عليهم:

1- خوف النفس.

2- الحزن.

3- الجهل.

4- الخوف من الشياطين.

5- الجبن والخوف من اللصوص والموت.

6- الاهتمامات المادية.

7- الكبرياء.

341- المؤمن يتخذ الله مرجعاً له في كلِّ شيءٍ. والفكر المتواضع يُلهَمُ من الروح القدس.

342- تتكبر المعرفة البشرية، لأنها لا تعرف أموراً كثيرةً أفضل منها. فتسير في الظلمة.

343- المعرفة الإلهية تقودنا إلى:

1- الصوم.

2- السهر الروحي.

3- الصلاة.

4- الرحمة والإحسان.

5- دراسة الكتب المقدسة.

6- مجابهة الأهواء.

7- الاشتراك في سر الشكر الإلهي.

344- يوجد ثلاثة سبلٍ في الحياة؛ فهناك من يعيش بحسب الطبيعة، أو بخلاف الطبيعة، أو فوق الطبيعة. في الحالة الأولى يعمل الشخص الفضيلة بشكلٍ طبيعيٍ أخلاقي. وفي الحالة الثانية يذهب ليرعى الخنازير كما في مَثَلِ الابن الشاطر. وأما في الحالة الثالثة فتبتهج نفسه بالأسرار الإلهية ويفرح بها! وهذا يعني أن الأول يعيش نفسياً، والثاني جسدياً، والثالث يغمُره فرحٌ روحي!!!

345- في الحالة الثالثة التي نعيش فيها حياةً فوق الطبيعية، يسكن فينا الروح المعزي، ونرتفع إلى صفوف الملائكة.

المقال السادس والثلاثون

346- المعرفة الطبيعية تُغذّى من حواس الجسم الخمس، وتُكتسب بالمطالعة والدراسة.

347- المعرفة الروحية تُلمس من خلال الروح القدس بعيداً عن الحواس الجسدية، وتُكتسب من سيرة الحياة النقية الطاهرة.

348- المعرفة فوق الطبيعية تدور حول فهم وإدراك الله. وتُكتَسبُ من الإيمان الحي، الذي يهب لصاحبه كلَّ شيءٍ.

349- الخطأة لا يرون نفوسهم، ولا بعضهم بعضاً. ولكن إذا ما تنقوا بالتوبة، يشاهدون نفوسهم، وتظهر أمام أعينهم الملائكة والشياطين.

350- عندما تشعر بداخلك بفرح الروح القدس، تتحول ضيقات الحياة وأحزانها إلى ما هو أحلى من العسل!

351- من يرغب في الروح القدس ويتمناه ويشتاق إليه، يتجنب هذا العالم ويخرج منه. لأنه يأكل خبز نعمة الروح القدس في المناولة الإلهية، ويؤدي الصلاة في هدوءٍ وراحة.

352- يقول المزمور "بنورك نعاين النور" (مز36:9). لذلك فالنفسُ حين تعجز عن الشعور بحلاوة الروح القدس، فسبب ذلك يعود إلى الأهواء التي تعمينا، وتحجب عنا النور الإلهي.

353- محبة الله هي ثمرة المناولة (الشركة الإلهية) والصلاة. وهي التي تقتل الإرادة الجسدية، وتقودنا إلى إنكار الذات.

354- من البطن الجائع لا تأتي الأفكار الفاحشة أبداً.

374- من تيقن أن المسيح هو الجوهرة الثمينة، لا يسعى للحصول على أيِّ شيءٍ آخر في هذه الحياة.

375- كما السحابة تَحجبُ وتُعتِمُ الشمس، كذلك تَفعلُ الثرثرة في النفس فِعلَها.

376- الطير الهيرودي يبتهج عندما يقطن في مكانٍ مقفر، وهكذا نفس الراهب أيضاً عندما يسكن في مكانٍ هادئ، فتتقبل الأفراح السماوية حتى ساعة خروجها.

377- معايشة حلاوة الأفكار الإلهية تمنح الحلاوة السماوية لنفس الراهب، حينها ترتفع النفس بكلّيتها نحو الله. خلاف ذلك لن تشعر النفس بتعزية الله.

378- بعد الإهمال والتهاون يكون الفرح كبيراً جداً، مثل حرارة الشمس عندما تزول السحابة.

379- عندما يدغدغنا الغرور ويجعلنا نشعر بالحلاوة، يكون قد حمل المعول ليدمرنا! وذلك لأنه يجلب كلَّ الأهواء إلى نفوسنا.

380- خُلوُّ حياتنا من العمل والأحاديث الروحية الطويلة يجلب ظلام الأفكار. فكيف تكون حياتنا إذا مُلئَت بالأحاديث الباطلة؟

المقال التاسع والثلاثون

381- حكمة الروح أفضل من حكمة العالم، ففيها يُهيمن الصمت. بينما حكمة العالم تفضي إلى الثرثرة!

382- اقتناء النفس لحكمة الروح، يملأُها من:

1- التواضع، 2- الوداعة، 3- السلام.

383- اقتناء النفس للحكمة العالمية، يملأُها بـــ:

1- الكبرياء 2- التشتت 3- اضطراب الذهن 4- الوقاحة، 5- الترفع.

384- إكثار الراهب من مشاهدة أمور العالم، تؤذي نفسه وتجلـــب إليها الاضطراب.

385- عندما يُبعث الإنسان الروحي ويكتمل في داخلك، تموت عن أمور العالم، وتحوز نفسك حرارة الإيمان من كثرة الفرح.

386- بامتلاكك صبراً كثيراً، ستحوز في نفسك على فرح التعزية.

387- حياة القلب موتٌ للحواس، وموت القلب حياةٌ للحواس.

388- عندما تَسكَرُ نفسك بالابتهاج والفرح الإلهيين، يخلو الجســـد من الشعور بالأحزان والآلام، لأنه يشارك النفس بفرحها وتنعمها...!

389- حِفظُ لسانك يلج بك إلى فرح الروح القدس. وإذ لم تمتلك نقاوة القلب، فاقتن على الأقل نقاوة الجسد.

390- لا تَخَفْ من الموت. لأن الله جَهَّزَ الخيرات الآتيـــة ليجعلـــك خالداً.

391- لا تحزن لمصائب وآلام جسدك. فـــالله النـــاظر إلى صـــبرك سيأخذها منك.

392- بمغادرة أعمال الصلاة، تصبح النفس جاهزةً لتكون مرتعاً للأهواء.

المقال الثاني والأربعون

393- الأرض غير المفلوحة تعطي أشواكاً. وكذلك النفس غير المفلوحة تولد الأهواء. لذلك يجب علينا تطهير قلوبنا من الأهواء كلَّ يوم، حتى لا نخنق البذرة الصالحة فيها.

394- اصبر بفرحٍ على الإهانة غير المقصودة ولا تضطرب منها، واحذر من أن تكره الذي يهينك.

395- مخاصمة الناس والجدل والأخذ والرد معهم يهيج القلب؛ فيُفقده الهدوء الحالَّ فيه، ويغشيه الظلام ويلفه.

396- يجب ألا نتغافل عن عمل الله، استجابةً لما يغرسه مدح الناس لِعَملِنا من شعورٍ زائف.

397- لا ينبغي أن نترك الصلاة وهي سيرتنا السماوية، لننشغل بالأمور العالمية حتى ولو كانت صالحة.

398- من لا يعرف عبادة الله بالروح وبالأعمال الخفية، فلْيَقُمْ بالأعمال الظاهرة من إحسانٍ وصدقة....

399- فضائل الراهب تتكون من؛ تحرره من الأمور الجسدية، وتعب جسده في الصلوات، وتَذكُّرِه غير المنقطع لله.

400- الصلاة فقط، وليس الاهتمام بالأمور المعيشية وعمل الإحسان، هي التي تتلاءم مع الراهب الحقيقي.

401- بأعجوبةٍ أيها الإنسان خرجت إلى العالم، فلا تعش حياةً عالميةً. بل عِشْ لأجل المسيح، واصبر على الأحزان كجَزاء على أعمالك السيئة.

402- التوبة: هي ترك الخطايا السالفة كلـها، والحـزن عليهـا. والنقاوة: هي القلب الرحيم إزاء كلّ الخليقة. والكمال: هو التواضـع العميق، أيّ عدم الاهتمام مطلقاً بالأمور الحسية والعقلية.

المقال الحادي والأربعون

403- الصلاة هي عدم انشغال الذهن بالأمور الحسية، وانشـغاله بالخيرات الآتية.

404- أكون متواضعاً عندما استحضر الموت وأتـذكر خطايـاي؛ وارتدي الملابس الزهيدة، وأُفضِّل المجالس الأخيرة والأعمال الوضـيعة، وعندما أطيع بحسن استعدادٍ، واصمت دائماً، وأتجنـب المخالطـات، وأسعى لأن أكون مُهمشاً في كلّ مكان وغير معروف، وأمتنع عـن أن أوبخ أحداً بذهني، وأتجنب الحسد، ولا أهتم بالأمور العالمية!

405- اقتن التواضع بالاعتراف والمناولة الإلهية المستمرين، والتـزم معهما بالوحدة والفقر، وبالتغرب والصلاة.

406- الفضيلة الكاملة هي تقديم الفائدة للآخرين.

407- من اقتنى المحبة اقتنى الله نفسه. ومن اقتنى الله لا يطلب شـيئاً آخر سوى الخروج من هذا الجسد.

408- الرجاء بالخلاص يمنحك حلاوةً كبيرة، ومعه تصير الأعمـال خفيفةً، وتتم كلّها بقلبٍ مفعمٍ بحرارةٍ وفرحٍ كبيرين.

409- ليس اللاهوى هو ألا نشعر بالأهواء. ولكن اللاهوى هو ألا

نقبلَها وأن نرفضها.

410- الكبرياء مرضٌ مميتٌ للنفس.

411- المتواضع لا يدين الآخرين أبداً، ولا يريد أن يراه أحدٌ، ولا أن يُعرف من الآخرين. لهذا يختبئ ويغادر العالم، وبسلوكه هذا يقترب من الله.

412- لا يرغب المتواضع بالتجمعات الحاشدة، والاضطرابات والأصوات، والاهتمامات والأطعمة الشهوانية. بل يتمنى الفقر وهدوء البال، والسلام والسماحة والتقوى. هو رؤوفٌ، عفيفٌ، قليل الكلام. ولا يغضب، ويحتمل تصرف الآخر ويصبر عليه. يخجل ويتخشع من الجميع. جوهر المتواضع أنه لا يريد أن يتعلم أياً من أشياء العالم.

المقال الثالث والأربعون

413- المتواضع الحقيقي ينتظر بصمتٍ رحمة الله قائلاً: (يارب، لتكن مشيئتك الكلية القداسة في حياتي).

414- فرح المتواضع وسروره الوحيد هو التنعم بالسيد المسيح (أي بالمناولة الإلهية)، وبالكلام معه من خلال الصلاة، وقراءة الكتب الإلهية.

415- عندما تهدأ النفس من أمور العالم، وتنصرف عن الاهتمامات المعيشية، تدخل في فهم الله وإدراكه مع خلائقه.

416- جُبِلت النفس خاليةً من الهوى، فلا يوجد أهواءٌ نفسية، بل مسببات لهذه الأهواء.

417- النفس المضاءة من الله تصير نقيةً ومستنيرةً. والأهواء هي مرضٌ لها.

418- عندما يعاني الجسد، فإن النفس تشاركه آلامه. والجسد أيضاً يشارك النفس الأحزان والأفراح.

419- الفضيلة هي الصحة الطبيعية للنفس. الأهواء هي الأمراض التي تضر بصحة النفس.

420- عندما تقترب النفس من صحتها الطبيعية، تمتلئ بالمسرة والابتهاج.

421- عندما تتحرر النفس من اهتمامات الجسد، تمتلك مساعدة الروح القدس، لرجوعها إلى مساكنها السماوية.

422- ليس الذهن النقي هو الذي لا يعرف الشر كالأطفال والحيوانات. ولكنه ذاك الذي يرتفع ويتأمل في الأمور الإلهية بعد ممارسة الفضائل.

423- إذا وُجد القلب النقي، فجميع الحواس تكون نقية. القلب يتنجس بصعوبةٍ، ولكنه بصعوبةٍ أكبر يتنقى.

المقال الثالث والأربعون

424- بعيون أجسادنا نرى الملائكة (بكيانٍ كثيف)، وأما بعيون النفس والفكر فنراهم (بكيانهم الخفيف)!

425- عندما تقترب منا الأرواح الشريرة لكي يؤذونا، نراهم إما بعيون الجسد أو بعيون النفس، وهم يفعلون ذلك دائماً!

426- الملائكة ينشرون الأفكار النقية، والشياطين تنشر الأفكار القذرة. كلٌّ واحدٍ مما لديه يعطي للآخرين.

427- الأذهان اللاجسدية تستنير بتواترٍ من الروح القدس. وهكذا فالمسيحيون الأنقياء من الأهواء، يخدمون الله ويمجدونه.

428- لا نستطيع أن نعرف أسرار الله دون وساطة الملائكة. وهذه الأسرار لم تُعلن كذلك لجميع طغمات الملائكة...!

429- طالما أن الله محبة، فكيف يعاقِب؟ لكن الذين أخطؤوا إلى محبة الله نصيبهم عقابٌ أكبر. لأن الحزن الناتج عن الندم بسبب خطئهم إلى محبة الله لا يُحتمل. ألم يُصب يهوذا بالشيء نفسه؟

430- لماذا أُحزن الله كثيراً، وهو الذي أحبني كثيراً؟ هذا هو جحيم الخاطئ.

431- نفوس الخطأة تتعذب من الندم، المعادل لنار جهنم! وهذا كله دون أن يُحرموا من محبة الله.

432- كيف نعرف أن خطايانا قد غُفرت؟

1- عندما لا يُؤنبنا ضميرنا لأجل خطايانا.

2- عندما نكره خطايانا من صميم قلوبنا، ونعمل الأعمال المعاكسة لها بشكلٍ ظاهرٍ.

المقال الرابع والأربعون

433- القوي هو ذاك الذي يُسَرُّ في الضيقات والمحن الحاضرة. لأن فيها تختبئ الحياة ومجد انتصاره.

434- المستنير هو ذاك الذي تَيَقّن من المرارة الموجودة في حلاوة هذا

العالم، فانشغل بخلاص نفسه دائماً.

435- العاقل هو ذاك الذي يحاول أن يخرج من الحياة الحاضرة رابحاً الأبدية.

436- الغبي هو ذاك الذي يحاول باستمرارٍ أن يربح أمور الحياة الحاضرة.

437- إنكار الذات هو أن نكره هذه الحياة صاعدين على الصليب، لنموت عن رغباتنا لأجل الحياة الأبدية.

438- العالَمُ هو زانيةٌ تحاول بمحاسنها أن تجذبنا لقربها، لكي تُعرِّينا من كلِّ فضيلةٍ، مخرجةً إيانا من البيت الأبوي ساعة الموت.

439- الإرادة والرغبة في الصلاح تضعف عندما لا ننفصل عن أمور العالم.

440- مبدأ طريق الله هو:

1- الصوم 2- السهر 3- صلاةٌ بدون انقطاع.

441- المتواني هو ذاك الذي يهمل الصوم، ويُقصِّر في جهاداته الأخرى.

442- الصوم هو طريق القداسة نحو الله، وهو أساس كلِّ فضيلةٍ. إنه إكليل المتعفف، وجوهرة العفة والقداسة. وهو أم الصلاة، والطريق السابق لكلِّ عملٍ صالحٍ.

443- الأتعاب الجسدية وحدها لا تُصلِح الأهواء النفسية، ولا تعطي سلاماً، ولا تخلِّص النفس من اضطرابها.

444- لا نستطيع أن نعرف أهواءنا إذا لم نهجر مخالطة العالم، ونتخلص من شرود الأفكار.

المقال الخامس والأربعون

445- بقدر ما تزداد دموع المسيحي يتقدم في محبة الله. وبقدر ما يقترب من العالم تجف الدموع في عيونه.

446- الدموع نوعان؛ دموعٌ تجفف الجسد، ودموعٌ أخرى تغذيه وتُبهجه.

447- كلُّ من يكتسب قلباً جديداً وروحاً جديدةً (أي رغباتٍ وأشواقاً روحيةٍ) يشترك بالقيامة مع المسيح.

448- تحدث الظهورات والرؤى والإعلانات من أجل:

1- شعب الله.

2- التعزية للمرضى، والتشجيع والتعليم للجهال....

ينتفع من رحمة الله ثلاث مراتب من البشر:

1- البسطاء من الناس والطيبون جداً.

2- الكاملون والقديسون.

3- من لديهم غيرة نحو الله، الذين نسوا من أجله العالم وأنكروه تماماً. فتعينهم رحمة الله حتى لا يقعوا في اليأس عندما يصلون إلى الموت الناتج عن جهاداتهم مع الجوع، أو من معاناتهم من مرضٍ عضال.

449- القلب النقي هو الذي يرى جميع البشر صالحين. والعين الصالحة لا ترى بخبث. هكذا يكون الإنسان البسيط الطيب القلب الذي يشبه الطفل.

450- نفوسنا ميتةٌ ويجب أن نبكي عليها. دعونا نطلب من الرب أن يعطينا نعمة الدموع والحزن "طوبى للحزانى لأنهم يتعزون" (مت5:4).

451- عندما لا يستطيع أحدٌ ما أن يقتني الحزن يصبح دون

إحساس، وعليه عندئذٍ أن ينشغل بمطالعة الكتب المقدسة.

452- كلٌّ من استحق الصلاة المستمرة (صلاة القلب)، وصل إلى كمال كلِّ الفضائل، وصار مسكناً للروح القدس. لأنه عندما يسكن الروح القدس فينا، لا يتوقف عن الصلاة في أيِّ وقت؛ عند الأكل، أو النوم، أو عندما نعمل أيَّ شيءٍ آخر. وبالأخص عندما نصمت.

453- يستحق الصلاة الروحية كلُّ من يحفظ وصايا الله، لأن المسيح يسكن فيه.

المقال السادس والأربعون

454- نصل إلى كمال ثمار الروح القدس (المحبة، والفرح، والسلام...) عندما نسعى نحو المحبة الكاملة لله.

455- نتيقن من وصولنا إلى المحبة الكاملة لله، عندما يتحرك فينا ذكر الله، ونحبه كثيراً، وتجري الدموع في أعيننا. لأن من يحب الله، لا يُحرم من الدموع أبداً.

456- إنها هبةٌ من الله مجانية، عندما يكرس أحدنا نفسه لله، ويعيش بالفضائل. ولكن إذا ما انتابنا فكرٌ بأننا نقوم بفضيلةٍ ما بعملنا هذا نحو الله. عندئذٍ يرفضنا الله، ونُسلَّم إلى أهواء الرذيلة.

457- يبدو واضحاً وجلياً في صراعنا ضد الأفكار، أن الله هو المنتصر فينا ولسنا المنتصرين. أما نحن فنتقبل نتائج النصر منه مجاناً. لذلك يجب أن نشكر الله الذي فصلنا عن العالم، وعرَّفنا نعمة أسراره

السرمدية، حتى لا نقع ثانيةً في الكبرياء وأهواء الرذيلة.

458- يجب أن نتجنب أسباب الأهواء كلّها، ونَثبُتَ في الصلاة، وفي المناولة الإلهية المستمرة، إلى أن نصبح رجال الروح.

459- عندما نبتعد عن أسباب الأهواء، يجهل الكثيرون هدفهم فيعثرون. ونحن لسنا بمسؤولين عن عثرتهم، لأنه لا يستطيع أحدٌ أن يخدم الله، ويرضي جميع الناس في الوقت نفسه.

460- التطهر من الأهواء يعطي صحةً للنفس، وبالنتيجة يمنحها فرحاً روحياً. هذا يحدث من خلال المناولة الإلهية، والصلاة ومطالعة كلام الرب.

المقال السابع والأربعون

461- لا يوجد شيءٌ يقدر أن يحررنا من شيطان الزنى، إلا الاهتمام باحتياجات المرضى.

462- كلُّ من يتذوق حلاوة الهدوء يتجنب محادثة الناس.

463- يا أرسانيوس ارحل، واصمت، واهدأ. فحتى لو كانت هناك فائدةٌ من الجمع بين الرؤية الإلهية (الثيوريا) والحديث مع الإخوة. فإن الهروب منهم يفيدك أكثر من رفقتهم.

464- هل تريد أن تكتسب محبة القريب؟ ابتعد عنه، فسيحترق قلبك من المحبة لأجله، وستراه ملاك نور. هل تريد من الإخوة أن يحبونك؟ اقترب منهم لأيامٍ معدودةٍ فقط.

465- ما أحلى تأثير الصلاة والدعاء ومطالعة الكتب المقدسة في

النفس! وكم تَفرحُ النفس وتَبتهجُ وتَتنقى بذلك. وهذا لا يعرفه إلا من يمارس هذه الأمور.

466- الصمت هو سر الدهر الآتي. أما الكلام فهو لسان هذا العالم. الصمت والصلاة يرفعاننا لنشابه الملائكة.

467- المحبة يمكن أن تُكتَسَب مع صحة النفس. لا تصح النفس إذا لم تحفظ الوصايا. وكما يعمل الدواء في الجسد المريض، تعمل وصايا الله في النفس المريضة. يجب أن تصير النفس صحيحةً لكي تصير مسكناً للثالوث القدوس.

468- البعض يكتسب طهارة النفس بالالتزام بالوصايا الإلهية. والبعض بالنعمة الإلهية، كما اللص على الصليب.

469- كلٌ من يعيش بحسب الجسد يهتم بالجسد، ولا يستطيع أن يُسِرَّ الله.

470- إنساننا القديم والمريض لا يستطيع أن يسير في طريق المسيح. لأن عقيدته ومبدأه يقومان على معاداة الله، فهو لا يخضع لناموس الله أبداً.

471- لا جرأة لنفسٍ في الصلاة إذا لم تغلب أهواءها.

472- لنطلب مغفرة خطايانا بانسحاقٍ وتواضع نفس. إذا لم تُشْفَ النفس من أمراضها السيئة، ولم تكتسب صحتها الطبيعية، فمن المستحيل أن تتوق إلى المواهب الروحية.

473- كما هو حال الأعمى. حين تتكلم معه عن لمعان الشمس والجواهر، فيعجز عن إدراكها، كما يدركها من له عينان. هكذا

الإنسان البعيد عن الله، حين يكلمه عن مجد الله، من تنعم متغذياً بلَـذة الرؤية الإلهية الداخلية، فلا يستطيع فهمه.

474- في هذه الحياة لا يوجد الكمال. أين ظهر الكمـال في هـذا العالم حيث شمس النفس شارقةٌ وغاربةٌ وسط غيوم الأهـواء؟ حيـث يكون الطقس صافياً حيناً، وممتلئاً بالغيوم أحياناً أخرى؟ وحيث ينتاب النفس فرحٌ حيناً، وأحزانٌ أحياناً أخرى؟ وكلُّ من يعتقد بخلاف هـذه الأمور، يشبه الذئب الذي لا يسير في الطريق الممهدة الملوكية.

475- القبر هو السبت الحقيقي المنقطع الـنظير. حيـث البشـرية بأسرها تستريح هناك جسداً ونفساً. في القبر ستُدفن وترتاح طبيعتنا من كلِّ حزنٍ وتدخلٍ شيطاني.

المقال الثامن والأربعون

476- كلُّ من يعرف مرضه يكون على عتبة التواضع.

477- كلُّ من يتكبر يغادره الله، ويبتعد عنه ويدعه ساقطاً في اللعنة. وكلُّ من يفتخر بفضائله أيضاً، ينفصل عن الله، ويسـقط في الـزنى. الأناني مُعرض كثيراً أن يسقط في فخاخ الشرير الظلماء.

478- كلُّ من لا يتذكر الله ويفتكر به، يضـمر الكـره لقريبـه. وبالمقابل فإن كلّ من يتذكر الله يكون محباً لكلِّ إنسان. كلُّ من يساعد المظلوم يكون الله حليفه. كلُّ من يتهم أخاه فإن الله يغادره، ولا يكون حليفاً له. كلُّ من يرحم أخاه ويُحسن إليه سراً دون أن يعلـم أحـد،

يُظهر لله قوة محبته. كلُّ من يوجِّه ملاحظات لأخيه أمام الجميع، فإنه يستهزئ به ويسخر منه. من يحرص على صحة الآخر النفسية، عليه أن يفعل هذا دائماً بمحبة، لأن الله يفعل الأمر نفسه حين يختبر الإنسان دائماً بمحبةٍ حتى تتعافى أيقونته الداخلية. فالله لا يؤدب الإنسان انتقاماً منه على خطاياه، بل يؤدبه حتى يشفيه.

479- بقدر ما يتمم الإنسان الفضائل، يقترب من الله أكثر ويتبعه. وبقدر ما تزداد محبته لله، يتقدم بالفضيلة. حين يرمي أحدٌ ما أعواد خشب جافة في النار، فمن الصعب أن تنطفئ، هكذا شأن الذي يحب الله محبةً حقيقية.

480- كما التاجر عندما يبيع بضاعته يتوق للعودة إلى بيته، هكذا المسيحي أيضاً، عندما ينتهي من عمله، يتوق للانشغال بالله وبنفسه. كما التاجر المسافر في البحر يخاف من عاصفةٍ بحريةٍ تُغرق حلمه ومرتجى عمله، هكذا المسيحي أيضاً في هذا العالم، فإنه يخاف من قدوم شتاء الأهواء الذي يفقده ثمرة جهاده.

481- كما البحَّار يراقب مواضع النجوم عندما يبحر موجهاً المركب تبعاً لموضع تلك النجوم، هكذا المسيحي أيضاً، يتقدم في طريق الحياة بوساطة الصلاة، حتى يصل إلى ميناء الحياة الدهرية. حيث الناس لا يركضون ولا يتاجرون كما في هذه الحياة، بل يستريحون في غنى الفضائل التي حصلوا عليها بالجهاد ضد الخطيئة. طوبى لذاك الذي لم يضيِّع بضاعته في بحر هذا العالم المزيف. طوبى لذاك الذي لم يُغْرق

زورقه، بل كان أهلاً ليصل بفرحٍ إلى ميناء الحياة الأبدية.

482- كلُّ من يريد أن يجد حجر المرغريت الثمين يدخل إلى البحر عارياً. هكذا الإنسان العاقل يمر في هذه الحياة بدون أموالٍ وثروةٍ كثيرة حتى يجد المرغريت الثمين، الذي هو يسوع المسيح. وعندما يجده يتنازل عن حب أيِّ شيءٍ آخر في هذا العالم.

483- كما الأفعى في حالة الخطر تحمي رأسها، هكذا هو الإنسان المسيحي أيضاً. فعند أيّة حالةٍ أو مرحلةٍ صعبة، فإنه يحمي إيمانه الذي يشكل قاعدة حياته وأساسها.

المقال التاسع والأربعون

484- كما الشجرة عندما لا ترمي أوراقها القديمة لا ينبت لها أوراقٌ جديدة، هكذا رجل الله سيكون عديم الثمار الروحية، إن لم يرمي ذكرَ الشر والأهواء من داخله.

485- الريح تغذي ثمار الأرض، وعناية الله تغذي ثمار النفس.

486- المجد العالمي يشبه صخرةً مغمورةً في عمق البحر، لا يراها القبطان، فيصطدم بها قاربه. الكبرياء والمجد الباطل المختبئان في النفس يلحقان بها الأذى.

487- دون صلاةٍ حارةٍ إلى الله، لن تفهم كلام الأسرار الإلهية الموجودة في الكتاب المقدس. الصلاة هي المفتاح الذي سنفهم به المعاني الإلهية.

488- دون تعبٍ جسدي لا يمكنك أن تقترب من الله. جميع الآباء

القديسين تعبوا كثيراً ليقتنوا الروح القدس في داخلهم. حالما يسكن الروح القدس في النفس، فإنها تكتسب عذوبةً وسلاماً، ويغادرها كلُّ فكرٍ شيطانيٍ جهنمي. لا تظن أنك بوساطة الصلاة تستطيع الاقتراب من الله، إن لم تكن قد طهرت قلبك من الأهواء التي تلوثه أولاً.

489- كما الزيت يغذي ويصون ضوء القنديل، هكذا أعمال الرحمة أيضاً تصون وتغذي النفس. ليس هناك من عملٍ في عين الله أروع من المحبة تجاه الإنسان الآخر. كم هي عذبةٌ حلاوة العلاقة الودية مع الإخوة بالروح، بوجود المحبة! المحبة نوعان محبة الله ومحبة الإخوة. وهما مرتبطان ببعضهما، ولا يمكن الفصل بينهما.

490- ذاك الذي يريد أن يحصد ثماراً ونِعماً روحيةً ناضجة، عليه أن يعمل دائماً بالصلاة. كما أن النفس أسمى من الجسد، هكذا هي الصلاة أسمى من أيِّ عملٍ روحيٍ آخر.

491- يحصل الإنسان من بعض أعمال النسك والجهاد الروحي الصغيرة على قوى كبيرة. وعندما تصبح هذه الأعمال ثابتة ومستمرة، تشبه قطرات المياه اللينة، التي تستطيع أن تجوِّف وتنحت الصخرة الصلبة.

492- عندما تُدفن الأهواء، تكتسب النفس دفئاً من حلاوة الفرح الروحي، ويكون حضور الله في النفس قوياً جداً. الإنسان بحاجةٍ إلى جهادٍ وصبرٍ كبيرين، ليحصل على النعمة والراحة من الله. فعندما يدخل

الله إلى نفس الإنسان، تُقلع الأهواء.

493- البطالة والفراغ هما دمارٌ للنفس. اللامبالاة أسوأ الشرور. فهي تعني عدم اهتمامنا بخلاص نفوسنا بالصلاة والجهاد والصوم وباقي الوسائل التقديسية التي نعيشها في الكنيسة. لا تحبس جسدك في نسك الفضائل، لأنه لا بد أن يقاوم. الشيطان يعمل ما بوسعه حتى يبعدنا عن أعمال الله.

494- العمل الروحي يتطلب هدوء وصلاة القلب. لا يستطيع أحدٌ أن يتطهر بأعماله الحسنة تجاه الآخر فقط، بل يجب أن يعمل أيضاً في داخله، حتى يتخلص من أهوائه الجسدية وأفكاره السيئة. إذ مِنَ السهل على أيٍّ واحدٍ أن يقوم بأعمال الإحسان والصدقة، ولكن من الصعب أن يقطع أهواءه وعاداته السيئة. الله يقبل أعمال الإحسان والصدقة عندما يرافقها قلبٌ طاهرٌ ونظيف. لا نستطيع أن نهتم بالأمر الأول ونتجاهل الثاني. وإلا فإننا سنسقط من عين الله.

495- في الأعمال الروحية عليك أن تتقدم درجةً درجة، لأن القفزات الكبيرة والمفاجئة خطيرة. عندما تتذوق النفس حلاوة الفرح الروحي ستتقدم وتستمر أكثر فأكثر. كحال ذاك الذي يشرب قليلاً من الخمر، فإنه طالما أعجبه يتابع الشرب أكثر فأكثر، حتى يسكر. الأحزان والمآسي تُواجَه بالصبر والرجاء بالله.

496- ليس بالأمر السهل أن يدخل الروح القدس في نفوسنا. علينا أولاً أن ننقّيها من كلّ تلوثٍ جسدي حتى تكون إناءً طاهراً. حينئذٍ

سيأتي الله ويسكن فينا. وهذا وحده لا يكفي لننال الهبة الإلهية، بل يجب أن نركع ونسجد كثيراً في صلاتنا. وصلاتنا يجب أن تترافق بالتواضع حتى تكون مقبولةً عند الله.

497- عليك أن تحرس لسانك حتى لا يتلفظ بأقوال بطّالةٍ وغير نافعة. لأن من الكلام الكثير تأتي الخطيئة. لقد تمرس آباؤنا كثيراً في الصمت، حتى تمكنوا من الاقتراب من الله واتحدوا معه. يقول القديس يوحنا السلمي: إن الفم النقي ينقي القلب، والقلب النقي يسكن فيه روح الله. ولكن إن انتصر عليك لسانك، فكن واثقاً بكلامي، من أنه لا يمكنك أبداً أن تتقدم بالفضائل، وستكون نفسك خالية، مثل غصنٍ دون ثمر.

498- إن أردت أن توجه نصائح لترشد الآخر إلى الصلاح، أظهر له محبتك أولاً، وبعد ذلك وجه له الملاحظات بانتباهٍ ودقةٍ شديدين، وانتبه ألا تؤذيه. وهو سيلاحظ محبتك التي ستظهرها له أولاً، وبعدها سينتبه إلى الملاحظة التي وجهتها له. وهكذا ستكون قد أفدته دون أن تؤذي نفسه.

499- بقدر ما يبتعد الإنسان عن الأمور العالمية، بقدر ما يقترب من الله أكثر.

500- لا تحزن عندما تصادف في حياتك صعوباتٍ وأحزاناً، لأن كلّ هذه الصعوبات والأحزان تحدث بإذنٍ من الله لأجل فائدة نفسك. وحتى الموت لا تخفه، لأن الله ينظر إلى صبرك، ويساعدك حتى تصل إلى النصر. هناك حيث ستحصل على الصالحات الأبدية، التي أعدها الله لأولئك الذين أحبوه بصدق.

الخاتمة:

قال ربنا: "إذا لم ترجعوا وتصيروا مثل الأطفال، لن تدخلوا ملكوت السماوات" (مت3:18). ويقول لنا القديس إسحق السرياني: (إذا لم ترجعوا وتكتسبوا التعليم الروحي الطفولي، لن تقبلوا بحرارة تعاليمي).

حسب تعليم القديس إسحق، الإنسان المحظوظ جداً هو من يعيش بقرب الله، ممتلئاً بالفرح وبالحلاوة الروحية. أما الذي يعيش بعيداً عن الله، فهو تعيسٌ (إنسانٌ مخزيٌ، وشعبٌ يائسٌ) ممتلئ بالحزن والمرارة النفسية.

الأرض هي مكانٌ للصبر على الشدائد والمحن والتجارب والأحزان. وذاك الذي يحمل صليبه بصبرٍ وبرحابة صدرٍ يخلص. أما الذي يتذمر ولا يصبر، يخسر خلاص نفسه.

كما يفهم قارئ هذا الكتاب، نرى أن كلَّ الأمثلة والأقوال هي عملٌ وحياة. على القارئ أن يقرأ من ثلاثة إلى خمسة أقوال، ويطبقها في حياته العملية لتصبح جزءاً من حياته في ذلك اليوم. وعليه في اليوم التالي أن يتابع قراءة الأقوال الأخرى وتطبيقها.

قال لنا أحد النساك المعاصرين والمعروف على مستوى اليونان: (أنا أقرأ كلَّ يوم صفحةً واحدةً من القديس إسحق، وأحاول أن أطبق ما قرأته في هذا اليوم). أتعتقد أن القليل الذي قلناه يكفي للعقلاء من قرائنا؟

ليشددِ الله الكليّ القداسة جميع المسيحيين بتعاليمه المقدسة. فهو وحده الذي يجب له المجد والقدرة والعظمة، الآن وكل آنٍ وإلى دهر الداهرين. آمين.

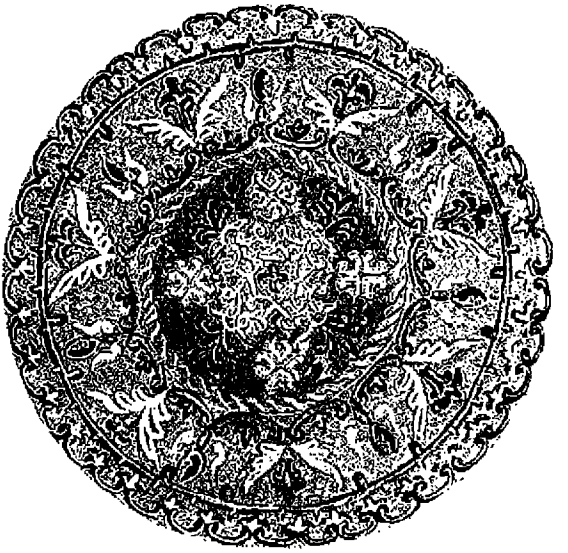

صلوات

القديس إسحق السرياني

مقدمة

يجمع حديث صلاة القديس إسحق القلبية - والتي صاغها ونسقها وكتبها بكلماتٍ من المشاعر والتضرعات - كلَّ جوارح الإنسان، جاعلاً إياه جسداً واحداً، نافعاً للتأمل في هذه الصلاة القلبية. فيمكن للمرء أن ينشغل بهذه الكلمات سواء كان واقفاً أو جالساً، في عمله أو في سيره داخل قلايته، أو أثناء خلوده إلى النوم، وفي تواجده داخل مكانٍ ما، مسافراً في رحلة أو شاغلاً قلبه بالصلاة سراً، وهو في حالة سجوده الدائم على الأرض، أو أينما كان واقفاً، وإن لم يكن أمام الصليب. حيث يمزج محدودية جسده بفاعلية صلاته، لأنه بها سيجد الفائدة المرجوة، جاعلاً إياها قاعدته. ومن المكان المخصص (أي مكان الصلاة) مع المزايا النافعة التي تُحدثها فيه، في مواجهة حالة عقله المتغيرة، وفي أوقات السلام والمضايقات التي تحل فيه.

من خلال ممارسة هذه الصلوات الموضوعة بشكلٍ ملائمٍ يجد المرء الراحة، وتنال روحه القداسة منها فيمتلئ بنعمة الروح.

بانحناء روحي نحو الأرض موطئ قدميك يا إلهي
أقدم لك بكلٍّ عظامي، وبملء قلبي العبادة اللائقة بك.
يا إله المجد المستقر في أعماق الصمت عديم الوصف
لقد أبدعتَ لتجديدي هيكل حبٍ على الأرض
حيث تستريح مسرتكَ الكلية الصلاح،
في معبدٍ صغته من الجسد وبأقدس زيتٍ أبدعت هذا الهيكل.
إذ ملأته بحضورك المقدس لترتفعَ نحوك كلَّ عبادةٍ تقام فيه،
معترفةً بأقانيم ثالوثك الأقدس الأبدية،
ومعلنةً، لكلِّ عالمٍ خلقته بنعمتك، سراً فائق الوصف،
وقوةً لا تقدر كلُّ خلائقك التي أبدعتها، على الإحساس بها وإدراك كنهها.
عجباً خيم الصمت العميق على الملائكة، رهبةً لهذه السحابة الموشحة

بهذا السر الأبدي،
فيضاً من المجد النابع من داخل هذا الدهش، لذلك يتلقى العبادة بصمتٍ يخيم على كلّ الأجواء من كلّ ذهنٍ قُدِّسَ وصار مستحقاً لك.

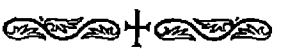

أسجد، يا رب، عند موطئ قدميك
وعند يدك اليمنى المقدسة التي جبلتني
وجعلتني إنساناً قادراً على إدراكك.
ولكنني قد أخطأت، بحق نفسي وأمامك،
لأنني هجرت حديثك الإلهي،
وبذلت أيامي في التحدث مع الشهوة.
أتوسل إليك، يا رب، ألا تذكر معاصي شبابي،
وجهلَ أيامِ شيخوختي، وضعف طبيعتي الشقية،
التي جعلتني في التفكير الكريه أغرق.
بل بالحري أدر قلبي نحوك، مبعداً إياي عن تشتتي الناتج عن الشهوة؛
واسكنْ نورك الخفي في كياني.
أعمالك الصالحة تدفعني إلى
كلّ نوعٍ من إرادةٍ صالحةٍ أعملها
وكلّ استعدادٍ للفضيلة في قلبي.
إنك لم تحجب قط عنايتَك لتختبر إرادتي الحرة؛

بل تعطفت، مثل رعاية أبٍ تجاه ابنه الصغير،

هكذا عنايتك تتبعني

زارت رأفتك الأبوية ضعفي

لا لاختبار إرادتي،

لأنك عرفت دوماً بأني، وأنا الأصغر من طفل، لست أعلم كيف هي وجهتي.

يا الله، إليك أتضرع،

أرسل لي المعونة من أعلى سمائك

لكي أقدر على إبعاد قلبي عن كلِّ فكرٍ شريرٍ وكلِّ شهوةٍ جسدية.

لا تتخل عني، يا رب،

لئلا يجدني عدوي المضل ويدوسني كما يرغب، ويدمرني كلياً.

أنت الذي يقبل توبةً وقلباً متألماً للخاطئ التائب؛

في هذه الطريقة تزيح عن قلبه ثقل الخطيئة الراسية عليه،

بفضل الراحة التي تأتي من الألم ومن عطية الدموع.

أقرعُ على أبواب حنانك، يا رب،

لترسل العون إلى دوافعي المبعثرة الثملة بكثرة الأهواء وقوة ظلمة الخطيئة.

تستطيع رؤية أوجاعي مختبئة داخلي: تسحقني، ولثقل خطاياي ما خنعت،

يارب، بإدراكي ثقل خطاياي،

تفنى روحي من الألم المرِّ الآتي منها.

أعنْ خطواتي الضعيفة على طريق التوبة الحقيقية،

لعل ندمي الآتي من نعمتك، يزيل عني ثقل الخطيئة!

فبغياب قوة نعمتك، أعجز تماماً عن الولوج إلى ذاتي.

مدركاً أخطائي، التي برؤيتها علني أسكّن تشتتي النابع من أهوائي.

يا اسم يسوع، يا مفتاح كلّ النعم،

افتح لي الباب الواسع إلى بيت كنزك

لأدخل وأُمجدك بشكرٍ وثناءٍ من قلبي رداً على مراحمك

التي اختبرتها في سالف الأيام؛

لأنك أتيت وجددتني لأدرك العالم الجديد.

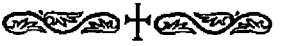

أرفعُ التمجيد لطبيعتك المقدسة، يا رب، لأنك جعلت طبيعتي

هيكلاً لأسرارك التي لا تدرك،

ومكاناً قد أحببتَ السكنى فيه،

ومعبداً مقدساً لألوهيتك،

يسوع الذي يحمل صولجان ملكوتك،
الذي يحكم كلَّ ما صنعته،
الهيكل المجيد لأبدية وجودك،
مصدر التجديد لمراتب ملائكتك الناريين التي تخدمك،
والطريقَ لمعرفتك، والباب لمعاينتك،
جوهر قوتك وعظمة حكمتك
يسوع المسيح المولود الوحيد من حضنك،
وما تبقى من خليقتك المتحدة، المادية والروحية.

يا للسر غير المدرك الذي يفوق كلَّ كلمة، وكلَّ صمت،
الذي أصبح بشراً لكي يجددنا،
من خلال إتحادٍ طوعي مع الجسد،
ارني الطريق الذي ارتفعُ به إلى أسرارك التي تفوق العقول،
مسافراً على طول طريقٍ هادئٍ واضح المعالم،
متحرراً من أوهام هذا العالم.
وإلى صمت الصلاة اجمعُ ذهني،
لتصمت أفكاري الهائمة في داخلي.
بحديثٍ من نورٍ متضرعاً، وبعجبٍ من سرٍ غامضاً لا يدرك.

أسجد، يارب، أمام عرش جلالك،
أنا التراب والرماد والحثالة البشرية.
آلافٌ وآلافٌ من الملائكة،
وجيوشٌ لا تُحصى من السيرافيم تخدمك،
أسجد أمام طبيعتك المقدسة الخفية عن أحاسيس وإدراكات خليقتك.
إذ الملائكة في طبيعتها الخفية، وبتمجيدها الناري
وبدوافعها المقدسة؛ تقدم لك العبادة الروحية.
قريبٌ أنت يا رب، بمساعدتك لكلٍّ واحدٍ منا في أوقات الضيق،
وبابك مفتوحٌ، في كلِّ وقت، لتوسلات الكل.
أنت لا تكره الخطأةَ، وجلالك لا يحمل كرهاً
لأرواحٍ ملوثةٍ بكلِّ أنواع الخطايا؛
رافعاً إيانا يارب، عن شرورنا اللامتناهية،
وبالأخص أنا عبدك، المذنب بكليتي؛
عالماً بأنك تجعلني مستحقاً أن أرتمي على وجهي أمامك
وللفظ اسمك القدوس بفمي أتجرأ،
رغم أنني إناءٌ مليءٌ بالدنس،
ولست مستحقاً أن أُحصى بين أبناء آدم.
فامنحني، يارب، أن أصبح مقدساً من خلال تمجيدك،
وأغدو طاهراً من خلال ذكر اسمك؛

جدد حياتي منيراً ذهني، بأفكارٍ صالحة،
تحركها أنت في داخلي، بنعمتك.
كن مرشداً لذهني في تأملاتي فيك،
واجعلني أنسى سلوكي المُعثِر،
من خلال تجديد فكرٍ تغرسه أنت فيّ.
حركْ فيَّ طلب الصالحات، وأجعل إرادتي وفق إرادتك،
لأنك أنت المعطي الصلاة لمن يصلي.
اغرسْ فيَّ إرادةً وحيدة،
إرادةً تحدق النظر نحوك في كلِّ الأوقات،
اغرسْ فيَّ تأنياً لا يضعف أبداً من التأمل فيك، بميتاتٍ مستمرةٍ من أجلك.
امنحني يا رب ألا أصلي أمامك بكلماتٍ جافة،
خارجةً من الشفاه فقط،
بل هبني أن أسجد لك، منطرحاً على الأرض في تواضع قلبٍ خفي، وذهنٍ تائب.

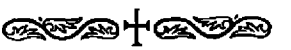

إلهي، يا من في حملك خطاياي،
وهبتني حياةً في هذا العالم.
لكن لا تحرمني من الحياة في العالم الآتي،

التي ينتظرها بأملٍ أولئك الذين على الأرض، في بؤسهم، لك يتضرعون.

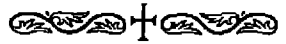

أيها المسيح، يا من حبُّه جعل القديسين،
عن عائلاتهم، وأقربائهم، وحياة البشر الرغيدة، منفصلين.
وأمام حلاوة هذا الحب؛ قوة الأهواء الطبيعية فيهم تستكين.
امنحني، يا رب، أن أنكر ذاتي حباً بك،
وأن أُوجد في حياتي ميتاً، عن كلِّ لذةٍ مما في هذا العالم.
بقدرتك، يا رب، سكنْ العواصف المتقدة في أوصالي،
وليفصلني حبك عن العالم وأحاديثه.
ارسمْ في ذهني صورةً لا يمكن وصفها،
لأتمكن بها من التغلب على بواعث حلاوة ذكريات هذا العالم الزائل وصوره.

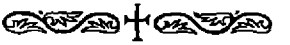

أركعُ وأسجدُ على الأرض أمام جلال مجدك، يا الله،
لأني دون أن أطلب منك، ومع أني زائل،
قد أتيتَ بي إلى الوجود؛
وقبل أن تشكلني، في الرحم، عرفتَ بأني سأعيش حياةً
مليئةً بالاضطراب والتواني.
مع ذلك عن خلقي لم تمتنع،

وعن منحي كلّ الخصال التي مجدتَ بها الطبيعة البشرية لم تبخل،
بالرغم من معرفتك بشروري سابقاً.
أنت تعلم طلباتي حتى قبل أن أعرفها،
وتضرعاتي قبل أن اسكبها أمامك:
امنحني، يا إلهي، في هذه الساعة كلّ حاجات طبيعتي البائسة التي تعلمها.
وبلية روحي التي أنت تعرفها، في يديك شفاؤها.

أيتها القوة التي بها تغلّب الآباء القدامى على الهجمات الهائلة والمخيفة للمتمرد،
أناسٌ، رغم طبيعتهم البشرية الخاضعة لحاجاتٍ كثيرة،
غدوا مثل أولئك الذين لا تعوزهم حاجة،
مجسدين على هذه الأرض حبهم للأمور الآتية.
بينما أمست القبور والكهوف والشقوق،
مكاناً لظهوراتك لهم:
اسكب في قلبي اتقاد أفكارهم،
لكي بها أصير شجاعاً وأدوس على الشهوة الطبيعية
وعلى كلّ المخاوف التي تعاكس الطبيعة البشرية؛
ازرعْ فيّ معرفة التواضع،
وحماسةً لا يمكن كبحها من أجل الرحلة الشاقة نحوك.

يا ملجأ الضعفاء، والطريق المستقيم لمن بضلالهم مأسورين،
ومكان نجاةٍ لكلٍّ من حجزته العواصف،
لا تجعل العدو يتفاخر عليّ، بل أمتْ قوة أفعاله الشريرة ضدي،
وادحض من عظمة كبريائه المتقد،
واجعل سبلك الخفية مستقيمةً أمام أفكاري،
وكن لي راحةً في شدة ألمي،
ومرشداً في مكان الخطر.

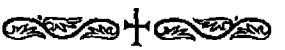

يا شمس البِّر، التي بها قد رأى ذواتهم الأبرار،
ومرآةً للأجيالِ صاروا،
افتح بوابةً في داخلي بها أُستنارُ
وامنحني عقلاً حبوراً، عقلاً فوق صخور الخطأ يبحرُ
حتى سكينة مينائكَ أصلُ
كما فعل آباؤنا الأقدمون، الذين أسعدوك بحياتهم إذ بالحكمة استناروا.

قدسني بأسرارك الغامضة، أنر عقلي بمعرفتك،
أشرق رجاءك في قلبي، واجعلني مستحقاً في التضرع كي أناله،
إلهي، أبتي، وسيد حياتي؛
أنر مصباحك فيَّ، ضع فيَّ ما يخصك لكي أنسى ما يخص ذاتي.

قيدني متعجباً فيك،
لأتغلب على قيد الطبيعة فيّ.
حركْ في داخلي رؤية أسرارك الغامضة
لأدرك نعمتك التي نلتها في سر المعمودية المقدسة.
مرشداً في داخلي وضعت، ليريني مجدك كلَّ حين.
جعلتني نوراً وملحاً للعالم؛ لأبرهن على أنني لست حجر عثرةٍ لإخوتي.
وأنا معاينٌ مغادرتي للعالم، أتمنى ألا أنظر مجدداً إلى الوراء،
وإلى الأشياء التي أنكرتها عندما قدمتُ وعدي لك.
امنح قلبي البهجة،
لكي لا تحدق حواسي خارج طرق ناموسك.
لنجهز معاً (أنا وأنت)، دوافعي لسفينة التوبة،
لأبتهج خلال سفري في بحار العالم
لأصل إلى مرفأ رجائك.
عند التجربة، ليت ذهني يتشجع بتذكرك،
وبنور معرفتك أنر طريقي المظلم.

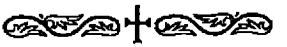

يا الله، اجعلني مستحقاً للتبصر في سر حبك الغامض،
الكامن في تدبيرك للعالم المنظور،
وفي خليقتك يُعلن، وفي سر صلب ابنك الحبيب.

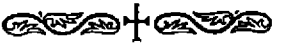

خالقنا،

طبيعتي المريضة أنت تعلم حالها،
عنف العدو أقصِ عني؛
واطرد هيجان الخطيئة من أعضائي؛
مدّ يدك الشافية إلى روحي الساجدة؛
لتُخمد حرارة الخطيئة في قلبي،
قيد حواسي الداخلية مضمداً بالصليب إياها؛
زدني حباً وفيراً لك، نابعاً من التبصر في شخصك المصلوب؛
شد عقلي للدخول في خفايا أسرارك التي يحملها صليبك؛
اجعلني متذكراً تواضع ابنك الحبيب؛
زدني عجباً في سر تدبيرك.

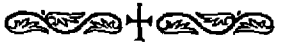

إلهي، هذا العالم قَبلَ أن تصالحه،
مولودك الوحيد أعطيته،
وبعد المصالحة، جعلتنا نرث عرش ألوهيتك،
فلا تتركني أذهب إلى القبر بلا رجاء،
ولا أن أجلس مقيداً بسلاسل خطيئتي في الظلمات،
كمثل ميتٍ يرقد إلى أبد الدهر.

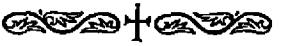

نشكرك،

يا الله، على ما وهبته للعالم،

من هباتٍ تعجز مخلوقاتك عن وصف غناها؛

وبما أنني أنا أيضاً جزءٌ من ذلك العالم،

أتمنى ألا أتوانى في تقديم الشكر، الذي لك أدين به.

لذلك سأمجدك وأعترف باسمك.

لقد وهبتَ العالم كلَّ كترك:

لأنك أعطيت مولودك الوحيد من حضنك

ومن عرش وجودك، لمنفعة الجميع،

وماذا بجعبتك أيضاً لم تهبه لخليقتك؟

صار العالم متحداً بك يا الله، وغدا الخالق والخليقة واحداً!

المجد لك، ولأسرارك الغامضة الوصف،

المجد لك، ولأسرارك المخفية عنا.

اجعلني مستحقاً، يا رب، أن أتذوق هذا السر الغامض المخفي عنا،

إنه سرٌّ لا يزال العالم غير مستحقٍ لإدراكه.

ألعلك كشفت شيئاً منه لقديسيك،

الذين يحيون في الجسد مترفعين عن العالم،

وعن شهواته كلَّ حين.

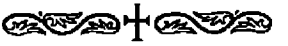

كأمواج البحر، فيض أسرار المسيح الغامضة تدغدغ ذهني.
أردت أن أصمت أمامها، ولا أتكلم،
ولكنها برهنت على أنها نارٌ متقدةٌ في عظامي.
عقلي يوبخني، ويُظهر لي آثامي.
سرك الغامض يذهلني، ولرؤيته يدفعني
وفي صمتٍ يدعوني:
أيها الخاطئ، لا تتباطأ في الاقتراب مني، خوفاً من آثامك،
لأن التأمل فيَّ، سيزيل وحل الخطيئة عن فكرك.

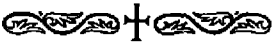

يا محرر طبيعتنا،
حررني من القيود الخفية التي قيدت أعضائي الداخلية،
وفك رباط القيود الظاهرة عن حواسي الخارجية
لأهرع في الدخول إلى جنة أسرارك الغامضة
وآكُل من شجرة الحياة تلك التي حُرم منها آدم.

يا مخلصي، احفظني من ضلالات الشياطين؛
يا إلهي، أبعد عني انحلال الهدف؛
يا رجائي، اسكب في قلبي نشوة الأمل بك.
يا يسوع المسيح، القيامة والنور لكلِّ عالم،

توج هامة روحي بمعرفتك؛
افتح باب مراحمك على مصراعيه أمامي؛
دع أشعة نعمتك تشرق في قلبي؛
كن مرشداً لأفكاري،
لأصل إلى جبل صهيون، جبل قدسك.
أهلني لسكنى مدينتك المقدسة، التي دخلها قديسوك في نهاية رحلتهم.
خالقي وأملي، يا مرساة حياتي وسط العواصف،
عكاز ضعفاتي، ويا فخري في خزي وعاري،
ورافع رأسي المنحني إلى الأرض،
لا تسلمني إلى مراد عدوي؛ ولا تجعلني فرصةً لوقاحته.
ضع هوةً عظيمةً في وجهه، لمنعه من العبور لإزعاجي.
اعتبرني مستحقاً لأكمل حياتي القصيرة والزائلة في خدمتك؛
علّي أوجد قريباً منك في أواخر أيامي،
علّي أوجد في كرمك وقت غروب حياتي.
اجعلني مستحقاً، قبل وقت رحيلي، لقطعة النقود المزخرفة
التي تعطفت بها على العاملين في الكرم.
يا رب ليس بسبب خدمتي بل بنعمتك أهلني لأوجد
مجتهداً في خدمتك حتى الساعة الحادية عشر من حياتي.
أتمنى ألا يقدني العالم بمشاغله المؤذية، وألا يحتجزني في قفص اهتماماته.

أيها المسيح، المتردي النور كالسربال،
الذي من أجلي وقفت عارياً أمام بيلاطس،
سربلني بالقوة التي ظللت بها قديسيك،
والتي بها انتصروا في عالم الصراع.
لتبهجني ألوهيتك يا رب،
ولترفعني فوق العالم لأكون معك.

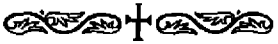

أيها المسيح لمجد محياك،
تعجز الشيروبيم كثيرو الأعين عن النظر إليك،
يا من تلقيت البصاق على وجهك، من تلقاء حبك:
امسح الخجل عن وجهي،
وامنحني أمامك، وجهاً مشرقاً في وقت الصلاة.

أيها المسيح، لقد خرجت إلى البرية، بسبب خطيئة طبيعتنا،
وقهرت حاكم الظلام،
منتصراً عليه بعد خمسة آلاف سنة؛
اجبره على الهرب مني،
هو الذي يجبر الجنس البشري على الخطيئة كلَّ حين.

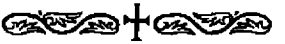

ليصبح صليب العار الذي اعتليتَه من أجلي
جسراً إلى ذلك المسكن الهادئ؛
وليصبح تاج الشوك الذي تُوج به رأسك،
خوذة خلاصٍ في يوم المعركة الحامي؛
والبصاق الذي تلقيته على وجهك،
ليزودني بوجهٍ مشرقٍ في المحاكمة لدى مجيئك الثاني؛
وجسدك المقدس الذي عُريّ على الصليب،
ليصلبني عن العالم وشهواته بحبي لك؛
وثيابك، التي أُقترع عليها،
لتمزق إرباً أمام عيني، لباسَ الظلمة الذي ألبسه في داخلي؛
والماء والدم اللذان خرجا منك،
ليصبحا وثيقةً تحررني من العبودية القديمة؛
وجسدك ودمك اللذان امتزجا بجسدي، ليبقيا كعهدٍ بداخلي،
فلا أحرم من استمرار رؤيتك في تلك المملكة الأبدية؛
وأسرار الإيمان الغامضة، التي حفظتها نفسي دون فسادٍ،
لتبقي لي شيئاً أُمجَّدَ به، عند استعداد العالم في ذلك اليوم لاستقبال مجيئك الثاني،
ولتحل أسرارك مكان قلة جهاداتي النسكية.

لنذكر، يا رب، على مذبحك المقدس، في اللحظة الرهيبة
عند ذبح جسدك ودمك لخلاص العالم،
لنذكر كلَّ الآباء والإخوة الذين هم في الجبال،
وفي الكهوف وفي الوهاد وفي الجروف،
وفي الأماكن الرثة والمقفرة،
المختبئين عن العالم، والذين تعرف أنت فقط مكان وجودهم.
أولئك الذين رقدوا،
والأحياء الذين مازالوا يخدمونك جسداً وروحاً.
أنت القدوس الذي يسكن في القديسين، الذين في ألوهيتك يستريحون،
أولئك الذين هجروا العالم الزائل، وماتوا عنه،
وفي بحثهم عنك، يسعون إليك بشوقٍ وسط أحزان حالتهم البالية:
يا ملك كلّ العالمين والآباء الأرثوذكسيين
الذين تحملوا النفي والأحزان على يد المضطهدين
في سبيل حقيقة الإيمان،
أولئك الذين في الأديرة وفي الصحارى، وفي كلّ مكانٍ
قد وضعوا مسرتك نصب أعينهم،
ليصيروا مقدسين،
لترافقهم معونتك، يا رب، ولتكن لهم خوذة كلّ حين،
ولترسل لهم خفيةً راحةً دائمة،

ولتكن عقولهم متعلقةً بك في كلِّ صراعاتهم؛
ولتسكن قوة ثالوثك القدوس فيهم،
ليخدموك، بضميرٍ يقظٍ، وحياةٍ صالحةٍ، إلى نهاية حياتهم.
اعتبرهم مستحقين وهم في الجسد، لميناء راحتك.
وأولئك الذين يواجهون معارك قاسية مع الشياطين،
علناً أو سراً،
ساعدهم، يا رب، وظللهم بسحابة نعمتك؛
ضع خوذة الخلاص على هاماتهم،
اضعف أمامهم قوة العدو،
ولتكن يدك اليمنى سنداً لهم في كلِّ حين،
لئلا تضعف أفكارهم، ويفشلوا في التأمل فيك دائماً،
ألبسهم درع التواضع، ولتنبعث منهم رائحة طيبٍ في كلِّ حين،
ولتتحقق فيهم مشيئتك.

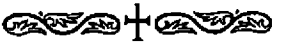

أيضاً لنذكر أمامك أولئك الذين يعانون من الأمراض الأليمة
وأسقام الجسد المبرحة؛
أرسل لهم ملاكاً حنوناً،
وهدئ اضطراب أرواحهم المعذبة جداً، من آلام أجسادهم المريعة.
لتكن رحمتك يا رب أيضاً على من هم عرضةً

لأيادي الأشرار والأئمة والكفرة؛
أرسل لهم على عجل ملاك حنوٍ وشفقة، وخلصهم من محنتهم.
يا ربي ويا إلهي، أرح كلَّ مقيدٍ بأية شدةٍ.

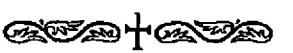

يا رب، ظلّل على كنيستك المقدسة، التي افتديتها بدمك؛
ليسكن فيها سلامك الحقيقي الذي منحته لرسلك القديسين؛
وحد أبناءها برباطٍ مقدسٍ من حبك السرمدي؛
لئلا يقوى عليها المتمرد الشرير،
وأبعد عنها الاضطهاد والشغب والحروب،
من الداخل ومن الخارج؛
وليتحد معاً الملوك والكهنة، بسلامٍ وحبٍ كبيرين،
ولتمتلئ أذهانهم على الدوام بالتأمل فيك؛
وليكن الإيمان المقدس، سنداً وحافظاً لشعبك.
واجعلني أنا الخاطئ أيضاً، مستحقاً بصلواتهم
لأُحفظ دائماً تحت حماية ذراعك المقدسة.
فتشملنا جميعاً ألوهة عنايتك. آمين.

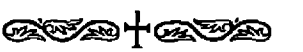

أتوسل متضرعاً يا رب إليك،
أن تمنح التائهين معرفةً حقيقيةً عنك،

ليتسنى لكلٍّ واحدٍ منهم أن يعرف مجدك.

أما الذين رحلوا عن هذا العالم،
وكان ينقصهم الإيمان والحياة الفاضلة،
فكن يا رب مدافعاً عنهم،
لنقدم وإياهم، نحن المشكلين جسد المسيح الواحد،
المجد للآب والابن والروح القدس في ملكوت السموات،
نبع الفرح الأبدي غير المنتهي.

ينبغي على أولئك الذين ينتظرون بترقبٍ تلقي نعمة الروح القدس في داخلهم، أن ينشغلوا باستمرارٍ في تأملاتٍ وتضرعاتٍ كما ورد أعلاه: فيتقدسوا من خلالها، وبعزيمتهم هذه يُعتبرون مستحقين لنيل هبةٍ من الأعالي.

علينا أن نصلي بمعاناة، ونتضرع بألمٍ إلى الله لنوال هذه النعم. متبنين هذا الموقف نحو كلّ البشر. فنصلي من أجلهم بمعاناة، كما الحال بالنسبة لنا. لأنه هكذا ستأتي الألوهةُ وتسكن فينا، ولتتم مشيئة الله فينا، كما في السماء كذلك على الأرض.

أنت أيضاً يا أخانا، يجب أن تضع دائماً نصب عينيك في صلاتك

وتأملك هذا الهدف؛ وأنت ساجدٌ على الأرض، أو خفية داخل قلبك خلال بقية ساعات النهار. فليس من الضروري أن تستخدم تسلسل وترتيب كلمات الصلاة السابقة نفسها، فهدف الصلاة واحدٌ كلٌ حين، أن نستحق بعزيمتنا وصلاتنا النعمة التي تلقاها آباؤنا، والذين أصبحت أجسادهم وأرواحهم هياكل للروح القدس.

القديس إسحق...

هو إنسانٌ فريدٌ من نوعه... هو تعزيتنا كلنا
من يستطيع أن يعبِّر عن حاجة الناس، في بحثهم
عن قليلٍ من الدفء الإنساني بعيداً عن الغضب أكثر منه؟
إنه محيطٌ عميقٌ... لا تستطيع أيّة فوضى تعكير مياهه
فليس هناك أحدٌ أكثر منه جرأةً في سبره أعماق النفس البشرية
إن كنت تبحث عن رفقةٍ بشرية، تجدها عنده
وإن كنت بحاجةٍ إلى الراحة...
تنالها منه... أما إذا كانت تعذبك مشاكل الإيمان
والألم الوجودي... أو كنت تبحث في أعماق نفسك
عن معنى الحياة... وقد خيب الكثيرون من الناس آمالك
وتركوك مهجوراً وحيداً
فتوجه إليه فإنه لن يتركك وحيداً، يعرف مقدار ما تتحمله
من تجارب أفضل مما تعرفه نفسك. كلَّ شيءٍ اختبرتَه
اختبره هو قبلك. تساهُله قاسٍ وصرامَتُه مُحبّة
يحرقك، ويعزيك، يحلُّك تماماً من قيودك
يفتح عوالم جديدةً لكَ...بهواءٍ ونورٍ مختلفين
وبلغةٍ ومثالياتٍ مختلفةٍ
هذه هي النعمة الإلهية الإنسانية التي سكنت بداخله
لهذا لا تعرف إن كان شاعراً أو بالأحرى نبياً
لا تعلم إن كان يعيش هنا
أم يسكن في العالم الآخر...!